مقدمة الطبعة الثانية

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، الذي شـرعَ لنا الصلاةَ صلةً بينَنا وبينَـه، نقـفُ فيها بينَ يديْه، ونحقّقُ بها الزّلْفى لدَيه، ونفْـزَعُ بهـا عنـدَ وقـوعِ الشـدائدِ والكرباتِ إليه، والصلاةُ والسلامُ على مَن كانتِ الصلاةُ قرّةَ عيْنِه وراحةَ نفْسِه وطمأنينَةَ قلبِه، نبيّنا محمدٍ، وعلى آلِه وصـحبِه، ومـن اهتـدى بهدْيِـه واستَنَّ بسنّتِه وسارَ على نهجِه إلى يومِ الدينِ. وبعدُ:

فهذه هي الطّبعةُ الثانيةُ من كتابي (**وقفـاتٌ مـع الصـلاةِ ؛ أحكامُهـا ـ أسـرارُها ـ معانيها ـ ومـا يعـينُ على تحقيـقِ الخشـوعِ فيهـا**)، تضـمَّنَتْ زياداتٍ وتنبيهاتٍ يسيرةً تفضَّلَ بها بعـضُ إخوانِنـا مـن المشـايخِ وطلبَـةِ العلمِ بعد قراءتِهم للطّبْعَةِ الأولى، وأخرى ظهَرَتْ لي حـالَ قـراءةِ بعـضِ إخوانِنا للكتابِ عليَّ، وقد صَحَّحْتُ فيها غالبَ ما وقعَ في الطّبعَـةِ الأولى من أخطاءٍ مطبعيّةٍ وأخرى لغويّةٍ سبقَ بها القلَمُ.

أسألُ الله تعالى أن يجعلَها خالصَةً لوجْهِه الكريمِ، وأن ينفَعَ بها كاتبَهـا وقارئها، وأن يجعلَها في ميزانِ الحسناتِ إنه سميعٌ مجيبٌ.

راجياً من كلِّ مَن قرأ كتابي هذا ووجدَ فيه خللاً أو نقصاً أنْ لا يَبْخَـلَ عليَّ بنُصْحِه وتَوجيهِه، وله مني الشكرُ والدّعاءُ.

أبو عمر القلموني

المدينة المنورة

ليلة الأول من رمضان عام ١٤٣٤هـ

tmallat@hotmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدّمةُ الطّبعةِ الأولى

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على نبيِّنا محمدٍ خاتَمِ النَّبيينَ وإمامِ المرسَلينَ، وعلى آله وأصحابِه والتابعينَ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ.

وبعدُ:

فهذه **وقفاتٌ** تضَمَّنَتْ فوائِدَ وفرائدَ، حولَ الصلاةِ وأحكامِها، ومعانِيها وأسرارِها، وما يُعينُ على تحقيقِ الخشوعِ فيها، جمعتُها من كتبِ أهلِ العلمِ وأفواهِهِم، ومن مُذاكرَةِ طلابِ العِلمِ وفوائِدِهِم، كنتُ قد ألقيتُها دُروساً على إخوانِنا في شهرِ رمضانَ من عامِ عشرينَ وأربعمائَةٍ وألفٍ من الهجرةِ النَّبوية المبارَكَةِ، فطُلِبَ مني جمعُها تذكرةً وفائدةً، ولعلَّ النفعَ أن يَعُمَّ بها، فأجبْتُ إلى ذلكَ مُستعيناً بالله تعالى وحدَه، ومُتبرّئاً من الحولِ والقوةِ إلا به جلَّ وعلا، سائلاً إياه سبحانَه أن يبارِكَ فيها، وأن يجعَلَها خالصةً لوجهِهِ الكريمِ، مقبولةً عندَه، وأن يجعَلَها في ميزانِ الحسناتِ، إنه سميعٌ مجيبٌ.

هذا، وليسَ من منهجي فيها التركيزُ على تخريجِ الأحاديثِ والآثارِ، والاهتمامُ بالعزوِ والإحالةِ للمصادرِ والمراجِعِ، وإنما أذكرُ من ذلكَ ما يتيسَّرُ مختصَراً في سَرْدِ الكلامِ، وقد يفوتُني بعضُ ذلكَ أحياناً، ولا بأسَ فيه إن شاءَ اللهُ؛ فإن الهدفَ منها هو ذكرُ الحُكمِ الراجِحِ في المسائلِ، والتركيزُ على

المعاني والحِكَمِ والأسـرارِ، دون التوسُّعِ في الحواشـي والتخريجاتِ.

وقد أكثرتُ فيها من النّقلِ عن الإمامِ الحافظِ ابنِ قيمِ الجوزيَّةِ رحمه اللهُ تعالى، فإنّ له في ذلكَ كلاماً كثيراً تضـمَّنَ مـن الفوائـدِ واللطـائفِ مـا لا يوجدُ عندَ غيرِه، وغالباً ما أذكرُ المكانَ الذي نقلتُ منه، وقد أعـزوهُ إليـه دونَ بيانِ المرجِعِ، وقد أنقلُ عنه أحياناً بـدونِ عـزْوٍ، ولـيسَ مـن شـــرطِ النقلِ عنِ العُلَماءِ أن يُذكرَ ذلكَ دائماً تفصيلاً، كما هو واضحٌ من تصـــرُّفِ أهلِ العلمِ، ويكفي التنبيهُ إلى هذا، والله أعلمُ.

الوقفةُ الأولى

مُقَدِّمَة

أهميّةُ الخشوعِ في الصلاةِ:

قال اللهُ تعالى في أوّلِ سورةِ المؤمنـونَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ① ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ②﴾.

أخـبرَ اللهُ تعـالى في هـذه الآيـةِ المبارَكَـةِ أنَّ الفـلاحَ محقـق للمـؤمنينَ الصادقينَ الذينَ حقَّقُوا مقتضـياتِ الإيـمانِ الكامِـلِ وتمسَّـكُوا والْتَزَمُـوا بجميعِ شُـروطِه وأركانِه وأعمالِه.

وجاء بحرفِ (قد) الذي **يدُلُّ على التَّحقيقِ مَعَ الفِعْلِ الماضي**(أفلـحَ) مع أنَّ الفلاحَ يكونُ في المستقبَلِ في الجنةِ، **ليُؤَكِّـدَ وقـوعَ الفـلاحِ علـيهم** وأنه متحقَّقٌ لا محالةَ.

فالفلاح كله في أداء الصلاة التي شرعها الله، والتي ينـادى إليهـا عـلى المنابر كلَّ وقتٍ بنداء: «حيَّ على الفلاح» تـذكيراً وتنبيهـاً بـذلك، وأهـمُّ شيءٍ في هذه الصلاةِ هو الخشوع، كما دلت عليه هذه الآية المباركة.

والفلاحُ هو: الفوزُ والنجاةُ والسعادةُ ونيلُ كـلِّ مطلـوبٍ ومرغُـوبٍ، مع البقاءِ فيهِ.

ثم ذكرَ تعالى أهَمَّ صفاتِهِم فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾.

فما هُوَ الخُشوعُ في الصَّلاةِ؟

الخشوعُ: هو تذلُّلُ القَلبِ وخُضوعُه بينَ يَدَيِ الله سيدِّه ومولاه، الذي يُورِثُ غَضَّ البصرِ وخَفْضَ الجناحِ وسُكونَ الحركاتِ.

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**والخشوعُ في الصلاةِ إنما يحصُلُ لِمَنْ فَرَّغَ قلبَه لها واشْتَغَلَ بها عمّا عَداها**، وآثَرَها على غَيرِها، وحينَئِذٍ تكونُ راحةً له وطمأنينةً وقُرَّةَ عَيْنٍ، كما في الحديثِ الصحيحِ الذي رواه الإمامُ أحمدُ والنَّسائِيُّ عن أنسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن رسولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «**حُبِّبَ إليَّ الطِّيبُ والنِّساءُ وجُعِلَت قُرَّةُ عيني في الصلاةِ**»).

قلتُ: قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**قُرَّةُ العينِ فوقَ المحبَّةِ**، فجَعَلَ النساءَ والطِّيبَ مِمّا يُحِبُّهُ، وأخبَرَ أنَّ قُرَّةَ العينِ التي يطمئِنُّ القلبُ بالوصولِ إليها، ومحضَ لذَّتِه، وفرحَهُ وسُرورَهُ وبهجَتَه، إنما هو في الصَّلاةِ التي هي **صلةٌ بالله وحضورٌ بينَ يَدَيهِ ومناجاةٌ له واقترابٌ منه**، فكيفَ لا تكونُ قرةَ العينِ؟ وكيفَ تَقِرُّ عينُ المحبِّ بسواها؟ فإذا حَصَلَ للنَّفسِ هذا الحظُّ الجليلُ فأيُّ فَقْرٍ يُخْشى معه، وأيُّ غِنىً فاتَها حتى تلتَفِتَ إليه؟ ولا يَصِلُ لذلك إلا من صَارَتْ نفسُه مطمئِنَّةً وتغيَّرَ طبعُها وانْقَلَبَتْ عنِ النَّفسِ اللَّوامَةِ).

وقال في موضِعٍ آخرَ: (الصلاةُ مَحَكُّ الأَحوالِ وميزانُ الإيمانِ، بها يُوزَنُ إيمانُ الرَّجُلِ ويتحَقَّقُ حالُه ومقامُه ومقدارُ قُربِه من الله ونصيبِه منه، فإنها محَلُّ المناجاةِ والقربةِ، ولا واسطَةَ فيها بينَ العبدِ وبينَ ربِّه، فلا شيءَ أقرُّ لعينِ المحبِّ ولا ألذُّ لقلبِه ولا أنعَمُ لعيشِهِ منها إذا كان محباً، فإنه لا شيءَ آثَرُ عندَ المحبِّ ولا أطيبُ له من خَلْوَتِه بمحبوبِه ومناجاتِه له،

ومثولِه بين يَدَيْه، وقَد أقبلَ محبوبُه عليه، وكان قبلَ ذلكَ معـذَّباً بمقاسـاةِ الأغيارِ، ومواصلةِ الخلقِ والاشتغالِ بهم. فإذا قامَ إلى الصلاةِ هـربَ مـن سوى الله إليهِ، وآوى عندَه، واطمَأنَّ بذكرِه، وقرَّتْ عينُه بالمثولِ بينَ يديهِ ومناجاتِه، فلا شـيءَ أهمُّ إليه من الصـلاةِ كأنـه في سِـجْنٍ وضِـيقٍ وغـمٍّ حتى تحضـرَ الصلاةُ، فيجدَ قلبَه قد انْفَسَحَ وانْشَـرَحَ واستراحَ، كـما قـال النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لبلالٍ: «**يـا بـلالُ أَرِحْنـا بالصَّـلاةِ**» [رواه أبـو داودَ بإسـنادٍ صحيح] ولم يقُلْ: أرِحْنا منها كما يقولُ المبْطِلون الغافلونَ ...

فالصلاةُ قُرَّةُ عُيونِ المحبِّينَ، وسـرورُ أرواحِهم، ولذَّةُ قلـوبِهم، وبهجَـةُ نفوسِهم، يحمِلُون همَّ الفراغِ منها إذا دَخَلوا فيها كما يحمِلُ الفـارغُ البطّـالُ همَّها حتى يقضِيَها بسـرعَةٍ، فلهُـم فيهـا شَـأنٌ وللنَّقَّـارينَ شـأنٌ، يَشـكُونَ إلى الله سوءَ صنيعِهم بها إذا ائْتَمُّوا بهم كما يشكو الغافِـلُ المعْـرِضُ تَطوِيـلَ إمامِهِ، فسُبحانَ من فاضَلَ بينَ النُّفوسِ وفاوَتَ بينها هذا التَّفاوُتَ العَظيمَ.

وبالجملَةِ فمَنْ كانَ قُرةُ عينِه في الصلاةِ؛ فلا شـيءَ أحبُّ إليه ولا أنعَمُ عندَه مِنْها، ويوَدُّ أنْ لَوْ قَطَعَ عمُرَه بها غيرَ مُشتَغِلٍ بغيرِها، وإنما يُسَلّي نفسَه إذا فارَقَها بأنه سيعُودُ إليها عن قريبٍ، فهُوَ دائماً يَثُوبُ إليهـا ولا يَقضـي منها وَطَراً، **فلا يَزِنُ العبدُ إيمانَه ومحبَّتَه لله بمثلِ ميزانِ الصَّلاةِ، فإنها الميـزانُ العادِلُ الذي وَزْنُه غيرُ مائِلٍ**).

وقالَ أيضاً رَحِمَهُٱللَّهُ: (تأمَّلْ قولَه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**وجُعِلَتْ قرةُ عينـي في الصلاةِ**» ولم يقُلْ: بالصلاةِ، إعلاماً بأن عينَه إنما تَقِرُّ بدخولِه فيها، كما تقـرُّ عينُ المحبِّ بملابَسَتِه لمحبوبِه، وتقرُّ عينُ الخائفِ بدخولِـهِ في محـلِّ أمْنِـهِ،

فقُرَّةُ العينِ بالدُّخولِ في الشـيءِ أكملُ وأتمُّ من قرةِ العينِ به قبلَ الدخولِ، ولما جاءَ إلى راحَةِ القلبِ من تَعَبِه ونَصَبِه قال: «**أرِحْنا يـا بـلالُ بالصـلاةِ**» أيْ: أقِمْها لنَستَريحَ بها مِن مقاساةِ الشَّـواغِلِ، كـما يَسـتريحُ التَّعبـانُ إذا وَصَلَ إلى منزِلِه وقَرَّ فيه وسَكَنَ.

وتأمَّلْ كيفَ قـالَ: (أرِحنـا بهـا) ولم يقُـلْ: أرِحْنـا منهـا، كـما يقولُـه المتكلِّفُ بها الذي يفعلُهـا تكلُّفـاً وغُرمـاً، فهـو لـمَّا امْـتَلأ قلبُـه بغيرِهـا، وجاءتْ قاطِعَةً عن أشغالِه ومحبوباتِه، وعَلِمَ أنه لا بدَّ له منها، فهـو قائـلٌ بلسانِ حالِه وقالِه: نصلّي ونستريحُ مِن الصلاةِ لا بها، فهذا لونٌ وذاكَ لونٌ آخر، فالفَرقُ بينَ مَـن كانـتْ الصـلاةُ لجوارِحِـه قَيْـداً، أو لقلبِـه سِـجْناً، ولنَفْسِه عائقاً، وبينَ مَن كانتْ الصلاةُ لقَلبِه نَعيماً، ولعَينِه قرةً، ولجوارِحِـه راحةً، ولنَفسِهِ بُستاناً ولذةً.

فالأوَّلُ الصـلاةُ سـجنٌ لنَفسِـهِ وتقيِيـدٌ لهـا عـن التـوَرُّطِ في مسـاقِطِ الهلكاتِ، وقد ينالونَ بها التكفيرَ والثوابَ، وينـالهم مـن الرحمـةِ بحسَـبِ عبودِيَّتِهم لله فيها، وقد يُعاقَبُ على ما نَقَصَ منها.

والقِسمُ الآخرُ الصلاةُ بستانُ قلوبِهم، وقرةُ عيونِهم، ولَذةُ نُفوسِـهم، ورياضُ جوارِحِهم، فهم فيها يتَقلَّبونَ في النعيمِ، فصلاةُ هـؤلاءِ توجِـبُ لهم القربَ والمنزلةَ مـن الله، ويشـارِكونَ الأوَّلـينَ في ثـوابهم، ويختَصّـون بأعلاهُ وبالمنزِلَةِ والقُربَةِ، وهي قَدرٌ زائدٌ عـلى مجـرَّدِ الثـوابِ، ولهـذا يَعِـدُ الملوكُ من أرضاهُم بالأجرِ والتقريبِ كما قالَ السحرةُ لفرعَـونَ: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾، [الشـعراء: ١١٣،

١١٤] ، فالأول عبدٌ قد دَخَلَ الدارَ، دارَ الملِكِ، والسِّتْرُ حاجِبٌ بينَه وبينَ ربِّ الدارِ، فهو مِن وَراءِ السّترِ، فلذلِكَ لم تَقرَّ عَيْنُه بالنّظرِ إلى صاحِبِ الدارِ، لأنه في حُجُبِ الشهواتِ، وغُيومِ الهوى، ودخانِ النفسِ، وبخارِ الأماني، فالقلبُ عليلٌ، والنفسُ مُكِبَّةٌ على ما تهواهُ، طالبةٌ لحظِّها العاجِلِ، فلهذا لا يُريدُ هؤلاءِ الصلاةَ إلا على إغماضٍ، وليسَ له فيها راحةٌ ولا رهبةٌ، فهو في عذابٍ حتى يخرُجَ منها إلى ما فيه قرةُ عينِه مِن هواهُ ودنياهُ، والآخرُ قد دخَلَ دارَ الملِكِ ورَفَعَ السترَ بينَه وبينَه، فقرَّتْ عينُه واطمأنَّتْ نفسُه، وخَشَعَ قلبُه وجوارِحُه، وعبَدَ اللهَ كأنه يراهُ، وتجلّى له في كلامِهِ).

مراتبُ الناسِ في الصلاةِ :

وذكرَ رحمَه الله تعالى في الوابلِ الصيبِ أن الناسَ في الصلاةِ على مراتبَ خمسةٍ:

أحدُها: مرتبةُ الظالمِ لنفسِه، المفرِّطُ، وهو الذي انتَقَصَ من وُضوئِها ومواقيتِها وحدودِها وأركانِها.

الثاني: من يُحافِظُ على مواقيتِها وحُدودِها وأركانِها الظاهرةِ ووضوئِها، لكنّه قد ضيَّعَ مجاهدةَ نفسِه في الوسوسةِ، فذهبَ مع الوساوسِ والأفكارِ.

الثالثُ: مَن حافظَ على حدودِها وأركانِها، وجاهدَ نفسَه في دفعِ الوساوسِ والأفكارِ، فهو مشغولٌ بمجاهدةِ عدوِّه؛ لئلّا يسرِقَ منه صلاتَه، فهو في صلاةٍ وجهادٍ.

الرابعُ: من إذا قامَ إلى الصلاةِ أكْمَلَ حُقوقَها وأركانَها وحدودَها، واستغرَقَ قلبَه مراعاةُ حدودِها وحقوقِها؛ لئلا يضيِّعَ منها شيئاً، بل همُّه

كلُّه مصروفٌ إلى إقامتِها كما ينبغي، وإكمالِها وإتمامِها، قد استغرَقَ قلبَه شأنُ الصلاةِ وعبوديةُ ربِّه تباركَ وتعالى فيها.

الخامسُ: من إذا قامَ إلى الصلاةِ قامَ إليها كذلكَ، ولكنْ مع هذا قد أخذَ قلبَه ووضعَه بينَ يديْ ربِّه ﷻ، ناظراً بقلبِه إليه، مُراقِباً له، ممتلئاً من محبَّتِه وعظمتِه، كأنه يَراه ويُشاهِدُه، وقد اضْمَحلَّتْ تلكَ الوساوسُ والخطراتُ، وارتفعتْ حُجُبُها بينَه وبينَ ربِّه، فهذا بينَه وبينَ غيرِه في الصلاةِ أعظمُ مما بينَ السماءِ والأرضِ، وهذا في صلاتِه مشغولٌ بربِّه ﷻ قريرُ العينِ به.

فالقسمُ الأولُ مُعاقَبٌ، والثاني محاسَبٌ، والثالثُ مُكَفَّرٌ عنه، والرابعُ مُثابٌ، والخامسُ مُقرَّبٌ؛ لأنَّ له نصيباً ممن جُعِلَتْ قرةُ عينِه في الصلاةِ، **فمن قرَّتْ عينُه بصلاتِه في الدنيا قرَّتْ عينُه بقربِه من ربِّه ﷻ في الآخرةِ، وقرَّتْ عينُه أيضاً به في الدنيا، ومن قَرَّتْ عينُه بالله قرَّتْ به كلُّ عينٍ، ومَن لم تَقَرَّ عينُه بالله تعالى تقطَّعَتْ نفسُه على الدنيا حسراتٍ.**

وقد رويَ أن العبدَ إذا قامَ يصلي قالَ اللهُ ﷻ: «**ارفَعوا الحُجُبَ بيني وبينَ عبدي، فإذا التَفَتَ قالَ: أرْخوها**». و قد فُسِّر هذا الالتفاتُ بالتِفاتِ القلبِ عن الله ﷻ إلى غيرِه، فإذا التفتَ إلى غيرِه أرخى الحجابَ بينَه وبينَ العبدِ، فدخلَ الشيطانُ، وعرَضَ عليه أمورَ الدنيا، وأراه إيّاها في صورةِ المرآةِ. وإذا أقبلَ بقَلْبِه على الله، ولم يلتفتْ لم يقْدِرِ الشيطانُ على أن يتوسَّطَ بينَ الله تعالى وبينَ ذلكَ القلبِ، وإنما يدخلُ الشيطانُ إذا وقعَ الحجابُ، فإنْ فرَّ إلى الله تعالى وأحْضَرَ قلبَه فرَّ الشيطانُ، فإنِ التَفَتَ حضرَ الشيطانُ، فهو هكذا شأنُه وشأنُ عدوِّه في الصلاةِ.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكلَّما كانَتِ المحبَّةُ أقوى كانتْ لـذَّةُ الطاعَـةِ والخِدْمَـةِ أكْمَلَ، فلْيَزِنِ العبدُ إيمانَه ومحبتَه لله بهـذا الميـزانِ، ولْيَنْظُـرْ هـلْ هُـوَ مُلتَـذٌّ بخدمَةِ محبوبِه أو مُتكَرِّهٌ لها يأتي بها على السَّـآمَةِ والملَـلِ والكراهَـةِ؟ فهـذا مَحَكُّ إيمانِ العَبدِ ومحبَّتِهِ لله.. ولهذا قالَ النبـيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**جُعِلَـتْ قُـرَّةُ عَيني في الصَّلاةِ**»، ومنْ **كانتْ قُرَّةُ عينِه في شـيءٍ، فإنـه يَـوَدُّ أنْ لا يفارِقَـهُ ولا يَخرُجَ مِنه**، فإنَّ قُرَّةَ عَينِ العبدِ نعيمُه وطِيبُ حياتِـه بـه.. وهـذه اللـذةُ والتنعُّمُ بالخِدمةِ إنما تحصُلُ بالمصابَرَةِ على التَّكرُّهِ والتَّعَبِ أوَّلاً، فإذا صَـبَرَ عليه وصَدَقَ في صَبره أفضَـى به إلى هذهِ اللَّذَّةِ..).

وقال أيضاً ـ رحمه اللهُ تعالى ـ في بيانِ الخشوعِ وحالِ مَـن يصـلِّي ببَدَنِـه لا بقَلبِه: (وكانَ سـرُّ الصلاةِ ولبُّها إقبالَ القلبِ على الله وحضـورَه بـينَ يديـهِ، فإذا لم يُقبِلْ عليه واشتَغَلَ بغيرِه وَلَـها بحديثِ النفسِ، كانَ بمنزِلَةِ وافِدٍ وَفَـدَ إلى بابِ الملِكِ مُعتَذِراً مِن خَطئه وزَلَـلِه مُستَمْطِراً لسَـحائِبِ جـودِه ورَحمتِـه مستَطْعِماً له ما يقوتُ قلبَه، ليَقوى على القيامِ في خدمتِه، فلما وصـلَ إلى البـابِ ولم يبقَ إلا مناجاةُ الملِكِ، الْتَفَتَ عـن الملِـك وزاغَ عنـه يمينـاً، أو وَلّاه ظهـرَه، واشتَغَلَ عنه بأمقَتِ شـيءٍ إلى الملِكِ وأقلِّه عندَه قَدْراً، فآثَرَه عليه وصيَّرَه قِبلَـةَ قَلْبِه ومحلَّ توجُّهِهِ وموضِعَ سِـرِّهِ، وبَعَثَ غِلمانَه وخدَمَه ليَقِفوا في طاعةِ الملِـكِ ويعتَذروا عنه وينوبوا عنه في الخدمَة، والملِكُ شاهدٌ ذلِكَ ويرى حالَه..).

فقدانُ الخشوعِ وبعضُ علاماتِ ذلك:

وقد أخبَرَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن **أوَّلَ عِلْمٍ يُرفَعُ من الأمَّةِ الخشـوعُ** كـما في الطبراني بسندٍ صححه الألبانيُّ في صحيح الجامع، حَتىّ تدخُلَ مسـجِدَ

الجماعةِ فلا تَجِدَ فيهم خاشعاً.

ولا شكَّ أنَّ عَدَمَ الخشوعِ في الصلاةِ قَدْ غَلَبَ على حالِنا، وهو أمرٌ خطيرٌ جداً؛ لأنه دَليلٌ على نَقصِ الإيمانِ وبالتالي نقصانِ الفلاحِ.

وإذا أردْتَ ـ أخي ـ أن تعلمَ هل أنتَ من الخاشعينَ، فكُنْ صَريحاً مَعَ نَفسِكَ وأجِبْ على هذه الأسئِلَةِ:

ـ هل تشعرُ وأنتَ في الصلاةِ أنك نسيتَ الدنيا ومشاكلَها ومشاغِلَها، وتمثَّلَتْ لك الآخرةُ وأهوالها وشدائدُها؟

ـ هل تشْعُرُ براحَةٍ نفسيَّةٍ تغلِبُ على هُمومِكَ وغُمومِكَ فتَنْسَاها؟

ـ هل تتمَنّى أن تطولَ الصلاةُ ولا تنقَضِي؟ أمْ أنكَ تَتَمَّنى الخروجَ منها بسرعةٍ وكأنَّكَ تُريدُ أن تتخَلَّصَ منها؟

ـ هلْ تَشْعُرُ وأنتَ في الصلاةِ أنَّكَ بينَ يَدَي الله يستَقْبِلُكَ بوَجْهِهِ؟

ـ هل تَتأَثَّرُ بالصلاةِ والقرآنِ فيخضَعُ قلبُكَ وتبكي عَينُكَ؟

ـ هل دَفَعَتْكَ صلاتُك لِتَرْكِ ما أنتَ عليهِ من الفَحْشاءِ والمنْكَرِ والحرامِ؟

إن كانْ الجوابُ بنَعَمْ، فاحْمَدِ اللهَ تعالى واسْأَلْه الثباتَ والتوفيقَ فأنتَ في أعظَمِ نعمةٍ، وإنْ كانَ الجوابُ بلا ـ وهو الغالِبُ ـ فاعْلَمْ أنكَ على خَطَرٍ وأنَّ صلاتَكَ ناقِصَةٌ، وقد أخبَرَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنَّ العبْدَ يخرُجُ من صلاتِه ولم يُكْتَبْ له إلا نِصفُها أو رُبُعُها أو خُمُسُها أو سُدُسُها، حتى وصلَ إلى عُشْرِها، كما في سننِ أبي داودَ ومسندِ الإمامِ أحمدَ بإسنادٍ صحيحٍ، **فلا يُكْتَبُ لَكَ من صَلاتِكَ إلا ما تَخْشَعُ.**

فصلاةٌ بلا خشوعٍ ولا حضورِ قلبٍ كبَدَنٍ ميتٍ لا روحَ فيه، أفلا يستحي العبدُ أن يُهدي إلى مخلوقٍ مثلِه عبداً ميتاً أو جاريةً ميتةً؟ فما ظنُّ هذا العبدِ أن تقعَ تلكَ الهديّةُ ممن قصَده بها، من ملِكٍ أو أميرٍ أو غيرِه؟ فهكذا سواء، الصلاةُ الخاليةُ عن الخشوعِ والحضورِ وجمعِ الهمَّةِ على الله تعالى فيها بمنزلةِ هذا العبدِ أو الأمَةِ الميتِ، الذي يريدُ إهداءَه إلى بعضِ الملوكِ؛ ولهذا لا يقبلُها اللهُ تعالى منه ـ وإن أسقَطَتِ الفرضَ في أحكامِ الدنيا ـ ولا يُثيبُه عليها؛ فإنه ليسَ للعبدِ من صلاتِه إلا ما عقَلَ منها.

ومن علامات قَبولِ الصلاةِ أن تتركَ وتَمْتَنِعَ عمّا أنتَ عليه من المعاصي؛ لأنّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فَمَنْ لَمْ تَنْهَهُ صلاتُه عن الفَحْشاءِ والمنْكَرِ فهُوَ على خَطَرٍ عظيمٍ، فلْيَجْتَهِدْ في تَحسينِها ولْيُجاهِدْ نفسَه في الوصولِ إلى كمالِها.

لذا وَجَبَ علينا ـ أحِبَّتي في الله ـ أن نَحرِصَ أشدَّ الحِرْصِ على الخشوعِ في الصلاةِ، وأنْ نجتَهِدَ في تحْصيلِهِ والوصولِ إليه، بل يَجِبُ أن نجعَلَ هذا الأمرَ الهمَّ الأَكبَرَ في حَياتِنا، ومحَطَّ تَفكِيرِنا باللَّيلِ والنَّهارِ؛ لِـمَا يتَرَتَّبُ على تحقيقِهِ من حَياةٍ للقُلوبِ ولَذَّةٍ وسعادَةٍ وراحَةٍ لا يُمكِنُ أن يَصِفَها إلا مَنْ عاشَ فيها، كما يَتَرَتَّبُ عليه صلاحُ الجوارِحِ والأعمالِ وتركٌ للفَحشَاءِ والمنكَرِ، وخروجٌ بالنَّفْسِ مِن ضيقِ هذه الدنيا إلى سَعَةِ الآخِرَةِ، ومن هُمومِها إلى لَذَّةِ مناجاةِ الله تعالى، فيَشْعُرُ العبدُ كأنه في جَنَّةٍ وهي الجنَّةُ في الدُّنيا التي مَنْ لَمْ يَدْخُلْها لَمْ يدْخُلْ جَنةَ الآخِرَةِ.

فاللهُ ﷻ قدْ جعَلَ الصلاةَ سَبَباً مُوصِلاً إلى قُربِه ومُناجاتِه ومَحَبَّتِه والأُنسِ به، وجَعَلها سبحانَه بحِكْمَتِه ـ وهو الرَّحيمُ الوَدودُ ـ **عبوديةً جامِعَةً للخيراتِ** وما يُقرِّبُ العبدَ من ربِّهِ ذي الجلالِ والإكرامِ، يأخُذُ مِنها كلُّ واحدٍ ما يحتاجُ إليه قلبُه من النُّورِ والحياةِ، وما يناسِبُه من الخيراتِ التي يتطَهَّرُ بها مما يَكونُ قدْ عَلِقَ به من الأدرانِ والأنجاسِ بسَبَبِ المعاصِي والزَّلاتِ التي حَصَلَتْ له بينَ الصَّلاتَينِ فأبعَدَتْه عن ربِّه وأورَثَتْه الهمومَ والغُمومَ والأحزانَ والحسَراتِ التي لا يدري سبَبَها وأنها بسبَبِ بُعْدِ القلبِ عن ربِّه سبحانَه وأنوارِه ذي الجلالِ والإكرامِ، فكانتْ هذه الصلاةُ تَطهيراً له مِن هذه الأوْساخِ، وحياةً للقلبِ وصحةً له وقوَّةً، إنْ صَلاّها العبدُ كما شَرَعَ له الحكيمُ سبحانَه، وهو ما سيأتي بيانُه إن شاءَ اللهُ.

من الأسبابِ المعينةِ على الخشوعِ في الصلاةِ:

واعْلَمْ ـ أخي ـ أنَّ للخُشوعِ في الصلاةِ أسْباباً كثيرةً تُعِينُ على الوُصولِ إليه، منها:

١ – **أنْ يَمْلأَ المصَلِّي قلبَه بمعْرِفَةِ الله تعالى**، وذلكَ مِنْ خلالِ التَّعَرُّفِ إليه سبحانَه بأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه وآياتِه، هذه المعْرِفَةُ التي تَجْعَلُ القَلبَ مُحِبّاً لله مُعَظِّماً له، بحيثُ يُسَيْطِرُ عليه هذا الحُبُّ والتَّعظيمُ، فيَخْشَعُ عندَها الْقَلْبُ وتَسْكُنُ الجوارِحُ.

٢ – **أن يُفَرِّغَ المصَلِّي قلبَهُ** مِنْ جَميعِ العَلائِقِ والمشاغِلِ الدُّنْيَوِيَّةِ التي تَحُولُ بينَه وبينَ التَّفَكُّرِ في عَظَمَةِ الله تعالى وجلالِه وجمالِه وكمالِه قَبلَ أنْ

يقومَ بَينَ يَديهِ، فلا يكونُ هناك شــيءٌ يُشـغِلُ قلبَـه وهُـو في الصَّـلاةِ إلا التَّفَكُّرَ في الله جَلَّ وعَلا وعَظَمَتِه، والتَّوبَةَ والإنابَةَ إليه سبحانَه.

٣- **أنْ يَجْتَنِبَ العبدُ الحرامَ ويَبتَعِدَ عن الشُّبُهاتِ** التي تَجْعَلُ على القَلبِ ظُلمةً تُبْعِدُ عنه أنوارَ الله سبحانَه.

٤- **أنْ يقومَ بما أَوْجَبَ اللهُ عليهِ** من الأقوالِ والأعمالِ مما يُساعِدُ على صَفاءِ قَلبِهِ وطهارَتِه.

٥- **أن يَتَفَكَّرَ ويَتَدَبَّرَ في معاني الصلاةِ** وأسرارِها وحِكَمِها، ويَتَأَمَّلَ كُلَّ حَرَكَةٍ وكَلِمَةٍ فِيها مُتَعَرِّفاً على مَعانِيها وأسرارِها متدبّراً حِكَمَ الله تعالى في تَشْريعِها؛ فإنَّ ذلِكَ مِنْ أعْظَمِ ما يُساعِدُ على الخُشوعِ فيها.

وهذا ما سَنُحاوِلُ بيانَه إن شاءَ اللهُ تعالى في الوَقَفَاتِ الآتيةِ، سائلينَ المولى سبحانَه أنْ يُعينَنا على ذلكَ وأن يَجعَلَنا من الخاشعينَ، وأنْ يعفُوَ عن تَقصيرِنا وتَفْريطِنا، إنه سميعٌ مجيبٌ.

الوقفةُ الثانية

الطّهارةُ قبلَ الصلاةِ

من المعلومِ ـ أحِبَّتي في الله ـ أن اللهَ تعالى أوجَبَ علينا الطَّهارةَ الحِسّيَّةَ من الحدَثِ والنَّجَسِ قبلَ الدخولِ عليه والوُقوفِ بينَ يديه في الصلاةِ.

من المعاني والحِكَمِ :

وفي ذلكَ إشارةٌ ـ واللهُ أعلمُ ـ إلى **وُجوبِ تَطْهيرِ القَلبِ قبلَ دُخولِه على الله** مما يكونُ قدْ عَلِقَ بِه من أدرانِ هذه الدنيا وأوساخِ الذنوبِ والمعاصي ، خاصةً وأنَّ القَلبَ هو مَحَطُّ نَظَرِ الربِّ سبحانَه وتعالى كما قالَ عليه الصلاةُ والسلامُ: «**إنَّ اللهَ لا ينظرُ إلى صُوَرِكم ولا إلى أمْوالِكُم ولكنْ ينظرُ إلى قلوبِكُم وأعمالِكُم**». وهو في صَحيحِ مُسلمٍ وغيرِه.

وتأمَّلْ كيفَ سُمّيَ **فاقدُ الطهارةِ مُحْدِثاً للتنبيهِ على حدثٍ قد صدَرَ منه أوجبَ فقدانَه لطهارتِه وبالتالي بعدَه عن ربِّه ﷻ**، فإذا أرادَ القربَ من الله والوقوفَ بينَ يَدَيْهِ فلا بدَّ له من الطّهارةِ التي تُطَهِّرُه مِن هذا الحدَثِ حتى يَصْلُحَ لهذا القُرْبِ والوقوفِ.

وتأمّلْ ـ أيضاً ـ أنَّ عَورةَ آدمَ عليهِ السلامُ في الجنةِ لم تكنْ ظاهرةً وإنما كانتْ مخفيّةً، **وليس في الجنةِ حَدَثٌ، فلما عَصى ربَّه جلّ وعلا أظهرَ له عورتَه وأهبطَه إلى الأرضِ وبدأ يُصِيبُه ما يُصيبُه من الحدَثِ**، لتَعْلَمَ ارتباطَ

الحدَثِ بالمعصيةِ، وأنَّ العبدَ ينبغي أن يتذكرَ بهـذا الحـدَثِ الحـدَثَ الأول الذي أوجَبَ له ذلك؛ وهو المعصيةُ، وأنه يجـبُ عليـهِ التّوبـةُ مِـنْ هَـذَيْن الحدَثَين ليَصْلُحَ له العودةُ إلى الله والقُرْبُ منه، ومن هنا شُرِعَ لَمـن قضـى حاجتَه إن يقولَ عندَ الفراغِ: «**غفرانَكَ**» كما ثبَتَ عن النبـيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنه عندَ قضاءِ حاجَتِه وحصولِ هذا الحدثِ منه تـذكَّرَ ذنوبَـه ومعاصِـيَه التي هي السّبَبُ الأولُ في هذ الحدثِ ، فاستغفَرَ ربَّه منها مطَهِّراً قلبَه مـن نجاساتِها وآثارِها ، كما تطهَّرَ بدَنُه بخروجِ النّجاسةِ منه ، وهي التي كانتْ تُثْقِلُ البدَنَ وتؤذيه ، ولو بقيَـتْ فيـه لأهلَكَتـه ، وهكـذا تفعـلُ الـذنوبُ بالقلبِ ؛ فإنها تثقِلُه وتؤذيه إذا بقيَتْ فيه حتى تُهلِكَه وتُميتَه ، فتـذَكَّرَ عنـدَ خروجِ هذا المؤذي من بدَنِه وخلاصِه وراحتِه منه ، مـا يحتاجُـه قلبُـه مـن الخلاصِ من نجاسةِ الذنوبِ وأذاهـا ، فسـألَ ربَّـه أن يخلِّصَـه مـن ذلِـكَ باستغفارِه وتوبَتِه ، حتى يرتاحَ القلبُ ويرجعَ إليه نشاطُه وقوّتُه . وقد نبَّه على هذا المعنى ابنُ القيّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ في إغاثَةِ اللهفان.

ولذلك أوجبَ الله عليه الطهارةَ الظاهرةَ التي تُذَكِّرُه بالطهارةِ الباطِنَةِ الواجِبَةِ عليه؛ وهي الطهـارةُ مـن كـلِّ مـا يـنجِّسُ القلـبَ مـن الشـركِ والبِدْعةِ والمعصيةِ، فإذا حقَّقَ ذلك صَلُحَ للوقوفِ بينِ يدي الله والدّخولِ عليه.

وشرعَ الله تعالى الطّهارةَ الظاهرةَ للبَـدَنِ بالمـاءِ والـتّرابِ ؛ لأنَّ أصـلَ الإنسانِ من الماءِ والتّرابِ، فباستِخدامِه للـماءِ والـترابِ يرجِـعُ إلى أصـلِه وطهارَتِه إلى خُلِقَ عليها، وكانَ الماءُ الأصلَ في الطّهارةِ لكونِه مادّةَ الحيـاةِ

كـما قـالَ تعـالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء : ٣٠]، فبالماءِ تعودُ الحياةُ إلى البَدَنِ، ويَطْهُرُ من النّجاسَـةِ الحادثَـةِ الطارئـةِ عليـه بسبَبَ الذنوبِ والمعاصي، وعنـدَ فقْـدانِ المـاءِ يُرجَـعُ إلى الأصـلِ الثـاني للإنسانِ وهو الترابُ، والله أعلمُ .

وتأمّلْ ما أخبرَ به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن تأثيرِ الـذّنوبِ والمعاصـي والبـدعِ وغيرِها في القلبِ، وأنها تُخرِجُه عن بَياضِه وطهارتِه إلى اسْوِدادِه ونجاسَتِه، وأنَّ ذلكَ لا يزولُ إلا بالتّوبةِ، يتبيَّنُ لكَ السـرُّ الذي أشـرتُ لك إليه.

قـالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحـديثِ الـذي رواه مُسـلمٌ في صـحيحِه عـن حذيفةَ بنِ اليمانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**تُعرَضُ الفِتنُ عـلى القلـوبِ كالحَصـيرِ عُـوداً عوداً، فأيُّ قَلْبٍ أُشـرِبَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سوداءُ، وأيُّ قَلبٍ أنْكَرَها، نُكِتَ فيه نُكتةٌ بيضاءُ، حتى تَصيرَ على قَلبَيْنِ؛ على أبيض مثلِ الصّفا، فلا تَضُـرُّه فِتنةٌ ما دامَتِ السّماواتِ والأرضَ، والآخرَ أسودَ مِرباداً كـالكُوزِ، مُجَخِّيـاً، لا يَعرِفُ مَعروفاً، ولا يُنكِرُ مُنكراً، إلا ما أُشـرِبَ مِن هواه**».

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديثِ الذي رواه أحمدُ والترمذيُّ وابنُ ماجَـهْ بإسْنادٍ صَحيحٍ عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إنَّ العبدَ إذا أخْطأَ خَطيئـةً نُكِتَـتْ في قَلبِه نُكتةٌ سَوداءُ، فإذا هو نَزَعَ واسْتَغْفَرَ وتَابَ صقُلَ قَلبُه، وإنْ عادَ زِيدَ فيها حتى تَعلُوَ قَلْبَه، وهـوَ الـرّانُ الـذي ذكـرَ اللهُ**: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين : ١٤].

وقدْ ذَكَرَ الله تَعالى الحكمةَ مِنَ التّطهُّرِ قبلَ الصلاةِ في آخرِ آيَةِ الطهـارةِ مِن سورةِ المائِدَةِ في قولِه سـبحانه: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ

وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

فقولُه (لِيُطَهِّرَكُم) **يَشْملُ طَهارةَ ظاهرِ البدنِ بالماءِ، وطهارةَ الباطنِ من الذنوبِ والخطايا والآثامِ**، وإتمامُ النِّعمةِ إنما يحصُلُ بمغفرةِ الذُّنوبِ والخطايا وتكفيرِها، كما قالَ تعالى لنبيِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ [الفتح : ٢] .

وقدِ اسْتنبَطَ هذا المعنى مِنَ الآيَتَينِ محمدُ بنُ كعبٍ القرظيُّ كما ذكرَ الحافظُ ابنُ رجبٍ في شرحِه على حَديثِ اختِصامِ الملأ الأعلى، وهو نَفيسٌ ينبغي قراءتُه.

فاللهُ طَيِّبٌ لا يَقبَلُ إلا الطَّيِّبَ من القُلوبِ والأجْسادِ والأقْوالِ والأعْمالِ والأموالِ.

والجنَّةُ دارُ الطَّيبينَ لا يدخُلُها مُجاوِراً لِربِّهِ فيها إلا الطَّيبونَ كما قالَ تعالى في سورةِ النّحلِ: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

وقال سبحانَه في آخرِ سورةِ الزّمرِ: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ .

فيجبُ علينا ـ أحبتي في الله ـ الاهتمامُ بتَطْييبِ أنفُسِنا ظاهراً وباطناً خاصةً عندَ الصَّلاةِ التي هي **مَوقِفٌ للعَبدِ بينَ يَدَي الله يُذَكِّرُهُ بالقُدومِ على الله والوُقوفِ بينَ يديهِ يومَ القيامةِ للسُّؤالِ والحِسابِ.**

ولا يمكنُ أن يحصُلَ الخشوعُ لِقَلْبٍ مَليءٍ بالنَّجَسِ والسَّوادِ، فكيفَ تَأتيهِ أنوارُ الله تعالى؟ وكيفَ يَمْتَلِئُ بعَظَمَةِ الله ومَحَبَّتِه؟ وكيفَ تُشرقُ فيه شمسُ المعرفةِ بالله وهُوَ مغَلَّفٌ بسوادِ الذُّنوبِ والآثامِ والشَّهواتِ والشُّبهاتِ؟

من فوائد الذكرِ بعدَ الوضوءِ:

لذلكَ ـ واللهُ أعلمُ ـ **شُرِعَ للعَبدِ إذا تَوَضَّأَ مُتَطَهِّراً أن يَتَذَكَّرَ طهارةَ قلبِهِ** فيدعُو ربَّه قائِلاً: «**أشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه، اللهُمَّ اجْعَلْني من التَّوابِينَ واجْعلني مِنَ المتطَهِّرينَ**». [وهو حديث صحيح رواه الترمذي وغيرُه، وأصلُه في صحيح مسلمٍ].

فالجمْلَةُ الأولى مِن هذا الدعاءِ فيها: طَهارةٌ للقَلبِ مِن كلِّ شِركٍ، ومِن كلِّ تَعَلُّقٍ بغيرِ الله؛ فليسَ فيهِ محبَّةٌ ولا تَعظيمٌ ولا خَوفٌ ولا رَجاءٌ ولا ثِقَةٌ ولا يَقينٌ ولا تَوَكُّلٌ ولا اعْتِزازٌ ولا اعْتِمادٌ ولا خُضوعٌ ... إلا لله ﷻ، **وهذا مَعنى كَلمةِ التوحيدِ** (أشهدُ أنْ لا إلـه إلا اللهُ)، ولذَلِكَ سُمِّيَتْ كَلمَةَ التوحيدِ؛ لما فِيها مِن تَوحيدٍ لله بجميعِ أنواعِ العُبودِيَّةِ الظاهِرَةِ والباطِنَةِ، التي مَنْ صَرفَ شَيئاً منها لغيرِ الله ففيهِ شِرْكٌ عَلى قَدْرِ ذلكَ.

وأما الجملةُ الثانيةُ مِنْ هذا الدُّعاءِ فَفِيها: الطَّهارةُ مِنْ كُلِّ بِدْعَةٍ ومُخالَفةٍ لما كانَ عليه رسولُ الله ﷺ، فيَجعَلُ قُدوَتَه وأُسْوَتَه وإمامَه وقائِدَه محمداً عليهِ الصلاةُ والسلامُ، فلا يَتَحَرَّكُ إلا عَلى وَفْقِ سُنَّتِهِ وهَدْيِه، ولا يُعَظِّمُ إلا شَرْعَهُ ومَنهَجَهُ، ولا يَتَّبعُ إلا صِراطَهُ وسَبيلَهُ، ولَوْ خَالفَهُ جَميعُ مَن على الأرضِ لأنَّ الخيرَ كلَّه في اتِّباعِه، وهذا مُقْتَضى ولازِمُ شَهادَةِ أن

محمداً رسولُ الله الذي لا يَنطِقُ عن الهوى، عليهِ الصلاةُ والسلامُ.

وأما الجملـةُ الثالِثَـةُ مـن هـذا الـدُّعاءِ فَفِيهـا: الطهـارةُ مِـنَ الـذُّنوبِ والمعاصِـي بالتَّوبَةِ إلى الله منها، فلا يَبقَى لها أثرٌ عـلى القلـبِ، بِشَـــرْطِ أن تكونَ التَّوْبَةُ صادقةً نَصوحاً؛ وهي التوبةُ النَّابِعَةُ مَـنَ العَبـدِ مُعتَرِفـاً فيهـا بذنْبِهِ، نادماً عليهِ، مُستَغْفِراً منه، عازماً على عَدَمِ العَودَةِ إليـهِ، خائفـاً مِـن تَبِعَتِهِ، باكياً من ذلكَ، لاجئاً إلى الله في دَفْعِ ذلكَ عنه، عالماً أنه لا حولَ لـه ولا قُوَّةَ إلا بِرَبِّهِ ومَولاهُ، مُسَلِّماً أمرَه مُسْتَسْلِماً لِرَبِّه سبحانَه وتَعالى.

فمَنْ حَقَّقَ هذه الطَّهارةَ في قَلْبِهِ قبلَ الصَّلاةِ، فهُوَ الذي تُفتَحُ له أبوابُ السَّماواتِ ويصْلُحُ أن يَقِفَ بَينَ يَدَيْ ربِّـه ومـولاهُ، مُتَلَقِّيـاً أنـواعَ الرَّحمـةِ والبَرَكاتِ وأنوارَ ربِّ الأرضِ والسّماواتِ، فيا لها مِنْ دَخْلَةٍ عَظيمـةٍ عـلى الله وَوَقْفَةٍ خَاشِعَةٍ بينَ يديهِ لا يُعادِلها إلا الدُّخولُ عليه تعالى في جَنَّتِـه دارِ كرامَتِه، والتَّمَتُّعُ بالنَّظرِ إلى وجهِهِ الكريمِ جزاءً منَ الله سُبحانَهُ وعطاءً منهُ عَلى ما كانَ مِنَ العبدِ مِنْ نَظَرٍ إليه بِقَلبِه في هذهِ الحياةِ، فَوالله إنها لَلَذَّةٌ ليسَ بَعدَها لَذةٌ، ونَعيمٌ مُقيمٌ لا مِثالَ له ولا نَفَادَ.

نسألُه سُبحانَه بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ أن يجْعَلَنا مِن أهلِ هـذا النَّعـيمِ، وأنْ يُـزَيِّنَ قُلوبَنا بمعرِفَتِه، وأن يُنَوِّرَهـا بكلامِـه وطاعَتِـه، وأن يُبعِـدَ عَنهـا أسـبابَ الظُّلُماتِ وأنواعَ الوَسَاوِسِ، إنه سميع مجيب.

وبعدَ كتابَةِ هذه الكَلِماتِ وقَفْتُ على كلامٍ لابنِ القيِّمِ رحمه اللهُ تعالى في هذا المعنى إذْ يقولُ في كتابِه الكبيرِ في السَّماعِ وحُكْمِهِ:

(فَبِالوُضوءِ يتطَهَّرُ مِن الأوساخِ ويقدُمُ على ربِّه متَطِّهراً، **والوُضوءُ له ظاهرٌ وباطِنٌ**؛ وظاهِرُه طَهارةُ البَدَنِ وأعضاءِ العِبادَةِ، وباطِنُه وسِرُّهُ طَهارةُ القَلبِ مِن أوسَاخِهِ وأدْرانِه بالتَّوبَةِ، ولهذا يقرُنُ سبحانَه بينَ التوبَةِ والطهارةِ في قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

وشَرَعَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمتطَهِّرِ بعدَ فَراغِه من الوُضوءِ أن يتَشَهَّدَ ثم يقولَ: «**اللهم اجْعَلْني من التوابينَ واجعَلني من المتطهِّرينَ**» فكمَّلَ له مراتِبَ العبودِيَّةِ والطَّهارَةِ باطِناً وظاهِراً.

فإنه بالشَّهادَةِ يتطَهَّرُ من الشِّركِ، وبالتوبةِ يتطهَّرُ من الذنوبِ، وبالماءِ يتطهَّرُ من الأوسَاخِ الظاهرةِ، فشَرَعَ أكملَ مَراتِبِ الطهارةِ قبلَ الدُّخولِ على الله والوُقوفِ بينَ يديْه، فلمّا طَهُرَ ظاهِراً وباطِناً، أَذِنَ له بالدُّخولِ عليه والقِيامِ بينَ يَديهِ إذ يخلُصُ من الإباقِ بمجِيئه إلى دارِه ومحلِّ عبودِيَّتِه).

قلتُ: وقد ثَبَتَ في غيرِ حَديثٍ أنَّ الوُضوءَ يكَفِّرُ عنِ العَبْدِ الذّنوبَ التي اقْتَرَفَتْها جوارِحُه؛ فتخرُجُ ذنوبُه مع الماءِ أو معَ آخِرِ قَطرِ الماءِ، رحمةً منَ الرحيمِ الرحمنِ سبحانه، وهذا يكونُ بشرْطِ اجتِنابِ الكبائرِ، كما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾، وكما في صحيح مسلمٍ من حديثِ أبي هريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**الصلواتُ الخمسُ، والجمعةُ إلى الجمُعَةِ، ورمضانَ إلى رمضانَ، مكفِّراتٌ ما بينَهنَّ إذا اجتَنَبَ الكبائرَ**».

وللحافظِ ابنِ رجبٍ الحنبليِّ رحمهُ اللهُ تعالى كلامٌ مناسِبٌ للمقامِ أذْكرُه

إتْماماً للفائِدَةِ مِن شَـرْحِه على حَديثِ اخْتِصامِ الملأ الأعلى، يقـولُ: (لـمَّا كانتِ الصلاةُ صِلَةً بينَ العَبدِ وربِّه، ومناجاةً تَظْهرُ فيها آثارُ تجلِّيهِ لقُلـوبِ العارفينَ وقُرْبِه، شُـرِعَ قبلَ الدخولِ فيها الطهارةُ، **فإنه لا يَصْلُحُ للوقوفِ بينَ يديْ الله ﷻ والخلـوةِ بمناجاتِـه إلا طـاهِرٌ، فأمـا المتلَـوِّثُ بالأوسـاخِ الظاهرةِ والباطنَـةِ فـلا يَصْـلُحُ للقُـرْبِ**، فشَــرَعَ اللهُ ﷻ للمصـلّي غَسْـلَ أعضائِه بالماءِ، ورتَّبَ عليها طَهارَةَ الذّنوبِ وتَكْفيرَها، حتـى يجتَمِـعَ لمـن يريدُ المناجاةَ طهارةُ ظاهرِهِ وباطِنِه، ثم شَـرَعَ المشــيَ إلى المسـاجِدِ، وفيـه أيضاً تكفيرُ الخطايا، حتى تَكمُلَ طهارةُ الذنوبِ إنْ بقيَ منها شــيءٌ بعـدَ الوضوءِ، حتى لا يَقِفَ العبدُ في مَقامِ المناجاةِ إلا بعدَ كَمالِ طَهارةِ ظـاهِرِه وباطِنِـه مـن دَرَنِ الأوسـاخِ والـذُّنوبِ، ولهـذا شُــرِعَ لـه تجديـدُ التوبـةِ والاستغفارُ عَقيبَ كلِّ وضـوءٍ حتـى تكمُـلَ طهـارةُ ذنوبِـه، كـما خـرَّجَ النَّسائيُّ مـن حـديثِ أبي سـعيدٍ مرفوعـاً وموقوفـاً: «**مَـنْ توضَّـأَ فأسـبَغَ الوضوءَ ثم قـالَ عنـدَ فراغِـهِ مـن وضـوئِهِ: سـبحانَكَ اللهـم وبحمْـدِكَ أستَغْفِرُكَ وأتوبُ إليكَ، خُتِمَ عليها بخاتَمٍ فوُضِـعتْ تحـتَ العـرشِ فلـمْ يُكسَـرْ إلى يوم القيامةِ**»).

وقالَ أيضاً: (فانظُرْ إلى كَمْ تُيَسَّـرُ لك أسـبابُ تكفـيرِ الخطايـا لعلَّـكَ تطهُرُ منها قبلَ الموتِ فتلقاهُ طاهراً فتصلحَ لمجاوَرَتِه في دارِ السلامِ، وأنتَ تَأْبى إلا أن تَموتَ على خَبَثِ الذنوبِ فتَحتاجَ إلى تَطهيرِها في كِيْرِ جهنَّمِ.

يا هذا ! أما علِمتَ أنه لا يَصْلُحُ لقربِنا إلا طـاهرٌ؟! فـإن أرَدْتَ قُرْبَنـا ومناجاتَنا اليومَ فطهِّرْ ظاهرَكَ وباطِنَكَ لتَصْلُحَ لـذلِكَ، وإنْ أردتَ قُربَنـا

ومناجاتَنا غداً فطهِّرْ قلبكَ مِن سوانا لتصلُحَ لمجاورَتِنـا: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

القَلبُ السليمُ الذي ليسَ فيه غيرُ محبَّةِ الله، ومحبَّةِ ما يحبُّه اللهُ.

إن اللهَ طيبٌ لا يقبَلُ إلا طيِّباً، فما كلُّ أَحَدٍ يصلُحُ لمجاورةِ الله تعالى غـداً، ولا كلُّ أحدٍ يَصلُحُ لمناجاةِ الله اليومَ، ولا على كلِّ الحالاتِ تحسُنُ المناجاةُ).

نسألُ الله تعالى أن يطهِّرَ قلوبَنا ويغفِرَ ذنوبَنا ويسترُ عيوبَنا، وأن يعينَنا على ذكرِه وشكرِه وحسنِ عبادتِه، وأن يتقبَّلَ منا صالحَ أعمالِنا، إنه سميعٌ مجيبٌ.

الوقفةُ الثَّالِثَةُ

سترُ العورةِ

إنَّ اللهَ تعالى قَدْ أوْجَبَ عَلى مَنْ أرادَ الوُقوفَ بَينَ يَدَيهِ أن يَسْتُرَ عَورتَه الظَّاهِرَةَ، وأنْ يأخُذَ مِن زَينَتِه مَا يَستَطِيعُ، فقَالَ تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١].

من المعاني والحِكَمِ في سترِ العورةِ:

وسَتْرُ العَورَةِ الظَّاهِرَةِ الحِسِّيَّةِ - أحبتي في الله - يَدُلُّ - واللهُ أعلمُ - على سَتْرِ العَورَةِ البَاطِنَةِ المعْنَوِيَّةِ، وهي: **الذُّنوبُ والمعاصي**.

والعورةُ إنّما سُمِّيَتْ عَورةً وسَوْأَةً؛ **لأنَّ الإنسانَ يَسوؤُهُ أن تَظهَرَ عَورَتُه لغَيرِه**، وذلكَ بِفِطْرَتِه التي فَطَرَهُ عليها ربُّه وخالِقُه سبحانَه، **فإذا كَشَفَها وأظهَرَهَا دَلَّ هذا على انْتِكاسِ فِطرَتِه، كما دَلَّ على أنه لا يَكرَهُ المعاصي ولا يتأذّى بظهورِها**، بلْ يَسعَى لِنَشْرها والدِّعايةِ لها ودَعوَةِ الناسِ إليها كحالِ أكثَرِ أهْلِ زَمانِنا، نَسألُ اللهَ لنا ولكُمُ العافيةَ، وهؤلاءِ هُم شر الناسِ مِن جُندِ إبليسَ، وقد قالَ الله سبحانَه فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ١٩﴾.

ولعلَّ هذا هُو السِّرُّ - واللهُ أعلمُ - في أنَّ آدمَ كانتْ عورَتُه في الجنةِ

مخفِيَّةً، فلمّا عَصى اللهَ بَدَتْ وظَهَرَتْ؛ **لأنَّه لما كَشَفَ السِّتْرَ بالمعْصِيَةِ وظَهَرَتْ عورَتُه الباطِنَةُ أظهَرَ اللهُ لَه عورتَهُ الظاهِرَةَ عُقوبَةً له وعبرةً**، فبادَرَ عليه السلامُ بفِطرَتِه إلى سَتْرِها بورَقِ الجنَّةِ حياءً مِنَ الله ﷻ واعْتِرافاً بالذَّنبِ وتَوبَةً مِنه.

وهكذا كُلُّ مَنْ دَفَعَه الشَّيطانُ إلى مَعصِيةٍ فإنّما يُريدُ أن يفْضَحَهُ ويكْشِفَ عَورتَه كما قال تعالى: ﴿ **يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ** ﴾ [الأعراف: ٢٧].

ومِنْ أجْلِ هذا نُهِيَ الإنسانُ أنْ يَكْشِفَ عورَتَهُ إلا في الحالاتِ الضَّروريَّةِ ومَا لا بُدَّ مِنه، حتىّ لَوْ كانَ خالياً وَحْدَه وَجَبَ عليه السَّتْرُ كما قال النبيُّ ﷺ: «**فاللهُ أحَقُّ أن يُسْتَحْيى منه**» كما في سننِ أبي داودَ والترمذيِّ وغيرِهما بإسنادٍ حسنٍ، لأنَّ ذلكَ دَليلٌ عَلى سَلامَةِ فِطْرَتِه وكَراهِيَتِه لِظُهورِ ذُنوبِه ومَعاصيه.

ومِنْ هنا كانَ **الواجِبُ على الإنسانِ إذا عَصى اللهَ أن يَسْتُرَ عَلى نَفْسِهِ** ويَتوبَ إلى الله، وأن لا يَجْهَرَ بالمعصِيَةِ ويُعلِنَ بها مُتَبَجِّحاً؛ قالَ عليه الصلاةُ والسلامُ: «**كلُّ أمَّتي مُعافى إلا المجاهِرونَ**» متفق عليه، فالمجاهِرُونَ بالمعاصِي لا تَنالُهم العافيةُ وإنما تأخُذُهُم الفَضيحَةُ والعُقوبَةُ.

وقد جَعَلَ اللهُ تعالى نُزولَ العُقوبَةِ والهلاكِ مُرتَبِطاً بانتِشارِ المعاصي وإعلانِها بدَلَ سَترِها والخوفِ مِن فَضيحَتِها فقال ﷺ: «**مَا حَلَّتْ الفَاحِشَةُ في قَومٍ قَطُّ حَتى يُعلِنوا بها؛ إلا أخَذَهُمُ اللهُ بالطّاعونِ والأوْجاعِ التي لم تَكُنْ في أسْلافِهِم**». وهو عند ابن ماجه بسندٍ حسنٍ.

فتأمَّلْ قولَه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حتى يُعْلِنوا بها**».

وقد حَذَّرَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العبدَ مِن أن يُذنِبَ ذَنْباً وَيستُرُه اللهُ، ثم يخرُجُ فيَفْضَحُ نفسَه يقولُ: فعلتُ كذا وكذا، لما في ذلِكَ مِنْ جُرأةٍ على الله واستِهانَةٍ بعَظَمَتِه وعُقوبَتِه وإظهارِ عَدَمِ المبالاةِ بالمعْصِيَةِ وقِلَّةِ الخوفِ منَ الله.

وكما أَمرَ اللهُ الإنسانَ بسَتْرِ عُيوبِ نَفسِهِ وعَورَتِه، أمَرَه كذلكَ بِستْرِ عوراتِ الآخَرينَ وعُيوبِهِم، ولذلِكَ حَرَّمَ النَّظَرَ إلى العوراتِ وانتهاكَ الأعراضِ وحَرَّمَ إعلانَ ذُنوبِ المسلمينَ ومَعاصِيهِم، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَه الله في الدُّنيا والآخِرَةِ**»، وهو في صحيح مسلمٍ.

وهَدَّدَ مَن سَعى في فَضيحَةِ المسلمينَ ونَشْرِ عُيوبِهِم ومَعاصِيهِم بأنَّ اللهَ يفْضَحُهُ، فقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا مَعشَرَ مِن آمَنَ بلِسانِه ولم يَدْخُلِ الإيمانُ قلبَهُ، لا تَغتابُوا المسلمينَ ولا تَتَّبِعُوا عوراتِهم، فإنَّه مَن تَتَبَّعَ عَورةَ أخيهِ تَتَبَّعَ اللهُ عورَتَهُ، ومَنْ تتبعَ اللهُ عورَتَه يَفْضَحْهُ ولَوْ في جَوفِ بَيْتِه**»، وهو في مسنَدِ أحمدَ وسُنَنِ أبي داودَ والترمذيِّ بإسنادٍ صحيحٍ.

فجَعَلَ سَتْرَ عُيوبِ المسلِمِ سَبَباً لِسَتْرِ الله عُيوبَ العَبدِ ـ وما أكثَرَها ـ في الدنيا والآخرةِ، وجَعَلَ تَتَبَّعَ عوراتِه ومعاصِيه سَبباً لِلفَضِيحَةِ ولَوْ في بَيتِه بينَ أهلِه وعِيالِه، **والجزاءُ مِن جِنْسِ العَمَلِ**.

وكذا يوم القِيامَةِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى يحاسِبُ المؤمِنَ سِراً بينَه وبينَه، ويَضَعُ عليه كَنَفَهُ ـ أي: سِترَهُ ـ كما جاءَ في الحديثِ الصحيحِ عند البخاريِّ

وغيرِه، وأمّا الكافِرُ والمنافِقُ فيَفْضَحُهُ اللهُ على رُؤوسِ الخلائِقِ ويحاسِبُه عَلَناً وجَهْرَةً، نَسألُ الله العَفْوَ والعافِيَةَ.

فلْنَتَأَمَّلْ ـ أحِبّتي في الله ـ هذه المعاني عِندَ قِيامِنا بِسَتْرِ عَوراتِنا للصَّلاةِ وغَيرِها، واعْلَمُوا أنَّ الإنسانَ **كُلَّما بَالَغَ في أخْذِ زِينَتِه للصَّلاةِ وسَتْرِ عَوْرَتِه** بما يُحِبُّه اللهُ وأباحَهُ من أنواعِ الثَّيابِ كُلَّما **كانَ أقرَبَ إلى الفِطرَةِ وأبعَدَ عَنِ المعصِيَةِ وأحَبَّ إلى الله** ﷻ، ولهذا أمَرَ النَّبِيُّ ﷺ الرجُلَ العامِلَ أن يَتَّخِذَ ثَوْباً لِصَلاتِه غَيرَ ثَوبِ عَمَلِه لما فيهِ مِنْ تَكْمِيلِ الزّينةِ والنَّظافَةِ، ولما فِيه مِنْ بُعدٍ عَن أذِيَّةِ المسلِمِينَ وهُو في الصلاةِ.

نسألُ الله تَعالى أن يَسْتُرَ عَوراتِنا، ويُؤَمِّنَ رَوعاتِنا، ويَغفِرَ ذُنوبَنا، ويُكَفِّرَ عَنا سَيّئاتِنا، إنه سميعٌ مجيبٌ، والحمدُ لله ربِّ العالمينَ.

الوقفةُ الرَّابِعَةُ

استِقبالُ القِبْلَةِ

أوجبَ اللهُ تعالى على المصَلّي أن يَستَقبِلَ بوجْهِهِ وبَدَنِه جِهَةَ المسجِدِ الحرام؛ لما في ذلكَ مِنْ توحيدِ التَّوَجُّهِ إلى جِهَةٍ واحِدةٍ هِيَ بيتُ الله ﷻ المعَظَّمُ.

۞ من المعاني والحِكَمِ في استِقْبالِ القِبلَة:

وهذا يَدُلُّنا على أمْرٍ مُهِمٍّ جِداً يجبُ أنْ نستَحْضِرَه عِندَ اسْتِقبالِ القِبلَةِ، وهو:

أنهُ يجبُ على القُلوبِ أن **تَتَوَجَّهَ إلى ربٍّ واحِدٍ**، هُو ربُّ الكَعْبَةِ البَيتِ الحرامِ، الذي تَتَوَجَّهُ إليه الوُجوهُ والأجْسادُ.

ولما كانَ خُضوعُ القلبِ لله وتَوَجُّهُهُ إليه تعظِيماً ورَغبَةً ورَهبَةً أَمْراً خَفِياً، كانَ لا بُدَّ مِنْ تَشْريع شيءٍ لضَبْطِهِ في الصّلاةِ، فَضُبِطَ باستِقبالِ القِبلَةِ، وكَذلكَ بقَولِ (اللهُ أكبرُ) كَما سيأتي إنْ شاءَ اللهُ، وذلكَ أنَّ اللِّسانَ والجوارِحَ تُعَبِّرُ عمّا اسْتَقَرَّ في القَلْبِ، فكانَ فِعلُ ذلكَ ضَابطاً لما في القَلبِ، مُعَبِّراً عنه، واللهُ أعلم.

مَعْ مَا في اسْتقبالِ الكَعبَةِ مِنْ تَعظِيمٍ لبيتِ الله الذي هُو فَرعٌ عَنْ

تَعظِيمِهِ سُبحانَه وتعالى كما هُو معلومٌ واضِحٌ ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج: ٣٢].

وهذا الاسْتِقْبالُ مِن أشْهَرِ عَلامَاتِ المِلَّةِ الحَنيفِيَّةِ، قالَ عليهِ الصّلاةُ والسلامُ: «**مَن صَلّى صَلاتَنا، واسْتقبَلَ قِبلَتَنا، وأَكَلَ ذَبيحَتَنا، فَذلِكَ المُسْلِمُ**». [رواه البخاريُّ وغيرُه].

مَعَ التَّنبيهِ أنَّ **القِيامَ لا يَكونُ تَعظيماً إلا إذا كانَ مَعَ اسْتقبالٍ**، واللهُ أعلَمُ.

فليْسَ التَّوَجُّهُ إلى الكعبةِ مَقصُوداً لِذاتِه، بِدَلِيلِ أنه يجوزُ تَرْكُهُ أحياناً؛ كما في حَالةِ صَلاةِ النَّافِلَةِ على الدابَّةِ.

وقد قالَ تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فالبِرُّ لا يكونُ بِمُجَرَّدِ التَّوَجُّهِ الظّاهِرِ فَقَط، **وإنما يَكونُ بِتَوَجُّهِ القَلبِ إلى الله الذي تَتَحَقَّقُ بِه مَراتِبُ الإيمانِ** المذكورةُ في الآيةِ، المُثمِرَةُ لِجَميعِ الأعمالِ الصَّالحَةِ.

فيجبُ على العبدِ المصلّي أن يحْرِصَ على قَلْبِهِ، وأنْ يُبعِدَهُ ويَصْرفَهُ عندَ الصلاةِ عَنْ كُلِّ شيءٍ إلا الله ﷻ، مُتأمِّلاً في الصّلاةِ عَظَمَتَهُ وجَلالَهُ وكَمالَهُ سبحانَه وتعالى، فيخْضَعُ له عندَها خَاشِعاً مُتَذِللاً.

قال ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أُمِرَ أن يستَقبلَ القِبلةَ بيتَه الحرامَ بوجْهِهِ، ويستَقبِلَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ بقَلْبِه، **لينسَلِخَ مما كان فيهِ من التوَلّي والإعراضِ**، ثم قامَ بينَ يديهِ مَقامَ الذَّليلِ الخاضِعِ المسكينِ المستَعطِفِ لسيِّدِهِ، وألقى بيَدَيْهِ مسلِّماً مُستَسْلِماً، ناكِسَ الرأسِ، خاشِعَ القلبِ، مطرِقَ الأطرافِ لا يلتَفِتُ قلبُه عنه ولا طَرْفُهُ يَمْنَةً ولا يَسْرَةً، بل قد توجَّهَ بقَلبِه كلِّه إليه وأقبَلَ بكُلِّيَّتِهِ عليهِ).

وهذا التوَجُّهُ ـ أحبّتي في الله ـ لا يَتِمُّ إلا بإبْعادِ القَلْبِ عنْ جَميعِ ما تعلَّقَ به، وتفريغِهِ مِن جميعِ الشَّواغِلِ قَبلَ المجيءِ إلى الصلاةِ، بحيثُ يأتي إليها مُتفرِّغاً لها مُهْتَماً بإتْمامِها، ولا يكونُ مَشغُولاً بِغيرِها يُريدُ أن يخرجَ منها بأسرعِ ما يمكنُ.

وهذا هُو أحَدُ الأسرارِ والحِكَمِ في مَشروعِيَّةِ صَلاةِ السُّنَّةِ قَبلَ الفَريضَةِ؛ حتى يتَهَيَّأَ العبدُ فيها ويستَعِدَّ للدُّخولِ في الفريضَةِ على أكْمَلِ حَالةٍ، أما صلاةُ السُّنَّةِ بَعدَ الفَريضَةِ فَلِجَبْرِها وتَعويضِ النَّقْصِ الواقِعِ فيها.

ومِنَ الأسبابِ المهِمَّةِ المعِينةِ على تَفريغِ القلبِ وخُشوعِه بينَ يَدَيْ رَبِّهِ، **أن يَجْتَنِبَ العبدُ اللَّغْوَ والباطِلَ** خِلالَ سَاعاتِ يَومِهِ ولَيلِهِ كَما أشارَ إليه قَولُ رَبِّنا جَلَّ وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣﴾ [المؤمنونَ : ٣] بعدَ قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢﴾ [المؤمنون : ٢]. إذْ إنّه مِنْ أصْعَبِ الأمُورِ، بَلْ مِنْ غَيرِ الممكنِ إذا كانَ قلبُ العبدِ مُكثِراً مِنَ اللَّغْوِ والبَاطِلِ خلالَ ساعاتِه أن يتَمَكَّنَ مِنَ التَّفَرُّغِ مِن ذلكَ والخشوعِ بَينَ يَدَيْ رَبِّهِ

وحُضورِ القَلبِ في صَلاتِه في هذه الدَّقائِقِ القَليلَةِ.

أمّا مَن كانَ مُكْثراً مِنْ ذِكرِ الله دائِماً، مَشْغُولاً بما يُرْضِيهِ في غالبِ أوقاتِه، مُتَدَبِّراً أسماءَ الله وصفاتِه وجلالَه، وحِكمَتَه ورَحمتَه سبحانه في كلِّ شيءٍ يراهُ ويَسمَعُه، وفي كلِّ ما يحدُثُ معَه، فإنَّ مِنَ السَّهْلِ عليه جِداً أنْ يخشَعَ عِندَما يَقِفُ بينَ يَدَي الله؛ لأنَّ القَلبَ يكونُ قَدْ تَعَوَّدَ على هذا واستَعَدَّ له.

فَلْيَحرِصْ كُلٌّ مِنا ـ إخوتي ـ على هذا، ولْيَحذَرْ كُلَّ الحَذَرِ مِن أن يُكَذِّبَ قلبُه لِسانَه وجَوارِحَه وهو واقِفٌ بينَ يَدَي الله مُوَجِّهاً وجهَهُ للقِبلَةِ قَائلاً: «**وجَّهْتُ وَجْهِيَ للَّذي فَطَرَ السَّماواتِ والأرضَ حَنيفاً ...**»، ويكونُ قلبُهُ مُتَوَجِّهاً لغيرِ الله سبحانَه مِنْ مَلَذّاتِ هذه الدنيا وشَهَواتِها ومُلْهِياتِها.

الوقفةُ الخامِسَةُ

التّكبيرُ ورفعُ اليَدَيْنِ ووَضْعُهما على الصَّدْرِ

بعدَ أن يستَعِدَّ العبدُ للصَّلاةِ والوقوفِ بينَ يَـدَيْ ربِّـهِ تعـالى بـالتَّطَهُّرِ وسَترِ العورَةِ والتَّوجُّهِ إلى جِهةِ الكعبةِ زادَها اللهُ شَـرَفاً، وما يُحَقِّقُه ذلكَ له من طهارَةٍ للقَلبِ، وسَترٍ للـذُّنوبِ والمعاصـي ، وتوجُّـهٍ للقلـبِ إلى الله وحدَه، شُـرِعَ للعبدِ أن يبدأَ صلاتَه بركْنِ التَّكبيرِ قائِلاً: (اللهُ أكبرُ) رافِعـاً يدَيْه باسِطاً كَفَّيه حِذْوَ أذنيه أو حذوَ مَنكِبَيْهِ مُوَجّهاً باطنَ كَفَّيه إلى القِبلـةِ، فإذا انتهى من التكبيرِ وَضَعَ يمينَهُ على شِمالِه على صدرِه خلالَ قِيامِه.

من المعاني والحِكَم :

فهَا هُنا أربعةُ أمورٍ تَحتاجُ للنَّظر والتَّدبُّر وهيَ:

القيامُ، ورفعُ اليَدينِ، وقولُ: اللهُ أكبرُ، ووضعُ اليمينِ على اليسـارِ عـلى الصَّدرِ.

وهذه الأمورُ لها أسْـرارٌ وحِكَمٌ كثيرةٌ، منها:

- أن المصَلّي لما كانَ قَدْ تَخَلّى عن الشَّواغِلِ وقَطَعَ جميعَ العَلائِقِ وتَطَهَّـرَ وأخَذَ زينَتَه وتَهَيَّأَ للدُّخولِ على الله ومُناجَاتِه، شُـرِعَ لـه أن يـدخُلَ **عليـهِ**

دخولَ العَبيدِ على الملوكِ دُخولاً مَقْروناً بالتَّعظيمِ والإجْلالِ، فشُرِعَ له أبلغُ ما يحقِّقُ ذلك ويدُلُّ عليه من الكلامِ والحركاتِ.

من معاني القيامِ ورفعِ اليدين:

- **أما القِيامُ** فإنه يُذَكِّرُ العبدَ بعبودِيَّتِه لله تعالى، فهو يَقِفُ بينَ يديهِ وُقوفَ العَبدِ الذَّليلِ الخاضِعِ المذنِبِ الفَقيرِ بينَ يَدَيْ سَيِّدِهِ ومولاهُ، مُعَظِّماً له مُتواضِعاً لِعَظَمَتِهِ مُعترِفاً بتَقْصِيرِه مُنتَظِراً لأوامِره مُستَعِداً لِتنفِيذِها.

وقَد شُرِعَ له هنا **أن يَخفِضَ بَصَره** أمامَه، ونُهِيَ عن رَفْعِ بَصَرِهِ إلى السَّماءِ وهُدِّدَ على ذلِكَ بأن يذهَبَ بصرُه، كما في صحيحِ البخاريِّ من حديثِ أنسٍ أنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**ما بالُ أقْوامٍ يرْفَعونَ أبصارَهم إلى السّماءِ في صلاتِهم**» فاشتدَّ قولُه في ذلِكَ حتى قالَ: «**لَيَنْتَهُنَّ عن ذلِكَ أو لتُخْطَفَنَّ أبصارُهم**»؛ لأنَّ المصلِّيَ الذي أُمِرَ بالخشُوعِ لا يُناسِبُ حالَه أن ينظُرَ إلى ناحِيَةِ مَنْ يعبده ويعظمه ويدعُوهُ ويسألُه، بل يناسِبُه الإِطْراقُ وخَفضُ بَصَرِهِ أمامَه، **فخَفْضُ البَصَرِ مِنْ تَمامِ الخشوعِ**، وهو كَحالِ العَبيدِ بَينَ يَدَيِ الملوكِ، كما أنه حالُ المحبِّ عنْدَ نظَرِ محبوبِه إليه؛ وذلكَ من مهابَتِهِ له وحيائه منه وعظَمَتِه في صدرِه.

قال ابنُ القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في روضَةِ المحبّينَ: (ولهذا يستهجِنُ الملوكُ مَن يُخاطِبُهم وهو يُحِدُّ النّظَرَ إليهم، بل يكونُ خافضَ الطّرْفِ إلى الأرضِ، قال الله تعالى مخبِراً عن كمالِ أدبِ رسولِه في ليلَةِ الإسراءِ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم: ١٧]، وهذا غايَةُ الأدبِ؛ فإنَّ البصرَ لم يزِغْ يميناً ولا شمالاً،

ولا طمحَ متجاوِزاً إلى ما هو رائيه ومقبِلٌ عليه كالمتشارفِ إلى ما وراءَ ذلكَ، ولهذا اشتدَّ نهيُ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ للمصلِّي أن يزيغَ بصرُه إلى السَّماءِ، وتوعَّدَهم على ذلِكَ بخطْفِ أبصارِهم؛ إذْ هذا من كمالِ الأدبِ مع مَنِ المصلِّي واقِفٌ بينَ يديْهِ، بل ينبغي له أنْ يقِفَ ناكسَ الرأسِ مُطرِقاً إلى الأرضِ).

ولذلِكَ يَرفَعُ يَديه على تِلكَ الهيئةِ ليدُلَّ على **اسْتِسْلامِه لله** وأنه سَلَّمَ ظاهِرَه وباطِنَه له؛ مُتبَرّءاً من الحَوْلِ والقُوَّةِ مُعتَمِداً عليه في جَميعِ شُؤونِه، فرَفْعُ اليَدَيْنِ فيه إشارةٌ إلى هذا الاسْتِسْلامِ، **وفيه إيذانٌ بأنه أعرَضَ عمّا سِوى الله ودَخَلَ في مُناجاتِه سبحانه،** كما أنه تَعظيمٌ لأمرِ الله، وزينةٌ للصلاةِ، وعبودِيَّةٌ خاصةٌ لليَدَيْنِ كعبودِيَّةِ بقيَّةِ الجوارِحِ، واتِّباعٌ لسنَّةِ رسولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فهو حِليَةُ الصلاةِ وزِينَتُها وتَعظيمٌ لشعائِرِها كما يقولُ ابنُ القيمِ رَحِمَهُٱللَّهُ.

فتَذَكَّرْ ـ أخي ـ وأنتَ في هذا القيامِ قِيامَكَ الأكبَرَ بينَ يَدَي الله تعالى يومَ القِيامَةِ، في يومٍ تَشْخَصُ فيه الأبصارُ، وتتقَلَّبُ فيه القُلوبُ، ويَجْثُو فيه العبادُ على الرُّكَبِ، وتَشتَدُّ فيه الأهوالُ، ويَطولُ فيه المقامُ بما يُقارِبُ الخَمسينَ ألفَ عامٍ، ويأتي فيه الربُّ جلَّ وعلا للحسابِ والسؤالِ. فهلْ يجرؤ عبدٌ أن يلتَفِتَ عن ربِّهِ ويتَلَهّى عنه آنَذاك؟

كذاكَ احرِصْ ـ وفَّقَني اللهُ وإياكَ ـ أنْ لا تلتَفِتَ بِوجْهِكَ ولا بِقَلبِكَ عَنْ رَبِّكَ وأنتَ واقِفٌ بينَ يَديْهِ، **وتَذَكَّرْ أنَّ اللهَ لا يزالُ مقبِلاً على العَبْدِ بِوجْهِه ما لم يَلتَفِتْ، فإذا الْتَفَتَ أعرَضَ عنه ربُّه،** نعوذُ باللهِ من ذلكَ.

واعْلَمْ أنه على قَدْرِ صِحَّةِ هذا الوقوفِ وتَعَلُّقِ القلبِ بالله وعدَمِ الالتِفاتِ إلى غَيرِه على قَدْرِ ما يَصِحُّ للعبدِ وُقوفُه بينَ يَدَي الله يومَ القِيامَةِ ويَسْهُلُ عليه حتى كأنه في صَلاةِ فرضٍ صَلاها في هذه الدنيا.

من معاني التكبير:

-وأما قَولُ المصلي (**اللهُ أكبرُ**) والدُّخولُ في الصلاةِ بها: **فإنَّ هذا اللفظَ أبلغُ ما يَدُلُّ على تَعظيمِ الله وانْقِيادِ القَلبِ لهذا التَّعظيمِ**؛ لما فيه مِنْ تخصيصِ العَظَمَةِ لله، وأنه أعظمُ مِن كلِّ شيءٍ، ولذلكَ **حَذَفَ الجارَ والمجرورَ** فلمْ يَقُلْ أكبرُ مِن كذا وكذا، **لِيَدُلَّ على هذا الإطْلاقِ.**

والعَبدُ إذا اسْتَشْعَرَ بقَلبِهِ أنَّ اللهَ أكبرُ مِنْ كُلِّ ما يخطُرُ بالبالِ، **أخرجَه هذا التكبيرُ من التكبُّرِ المنافي للعبوديَّةِ، ومنَعَه من التفاتِ قلبِه إلى غيرِ الله الكبيرِ، واسْتَحْيَى منه أن يُشْغِلَ قَلبَه في الصلاةِ بِغيرِه**؛ فلا يكونُ مُوفِياً لمعنى (**اللهُ أكبرُ**)، ولا مُؤَدِّياً لحقِّ هذا اللفظِ، ولا أتى البيتَ من بابِهِ، بل البابُ عنه مسدودٌ، فلو قَضى حقَّ (**اللهُ أكبرُ**) وأتى البيتَ مِنْ بابِهِ لَدَخَلَ وانْصَرفَ بأنواعِ التُّحَفِ والخَيراتِ، **فإنَّ الله تعالى لا يقبَلُ الدُّخولَ عليه إلا مِن بابِ التعظيمِ، ولذلكَ جَعَلَه التَّحريمَ بالصلاةِ.**

والمقصودُ أن افتتاحَ الصَّلاةِ بهذا اللفظِ، وتَكَرُّرَهُ بعدَ ذلكَ في غالبِ الحركاتِ؛ يرادُ منه استحضارُ هذا المعنى وتصورُه.

مع ما في ذلكَ مِن إظهارِ **المفارَقَةِ بينَ الصلاةِ وعَدَمِها**، حيثَ إنه لا بُدَّ لكُلِّ حالةٍ تختلفُ عن سائِرِ الحالاتِ في الأحكامِ مِنْ وُجودِ عَلامَةٍ تُمَيِّزُها في ابتدائِها وانتهائِها.

وجُعِلَ هذا اللفظُ شِعارَ الصَّلاةِ والانتقالِ من رُكنٍ إلى آخَرَ؛ لأنَّ الصلاةَ إنما شُرِعَتْ لِتَعْظيمِ الله تعالى والخضوعِ له والتَّذُللِ لعَظَمَتِه سبحانه وتعالى.

ومتى تَصَوَّرَ المصلي الواقفُ بينَ يَدَي الله أنه لا شيءَ أكبرُ منه سبحانه، وأُشْرِبَ ذلك في سِرِّهِ، اسْتَحْيى من الله، ومَنَعَهُ وقارُه وكبرياؤه جَلَّ وعلا أن يُشْغِلَ قلبَه بغيرِه، وما لم يستَحضِرْ هذا المعنى بقلبِه فهو واقِفٌ بينَ يديه بِجِسْمِهِ، وقلبُه يَهيمُ في أوديةِ الوساوِسِ والخَطَراتِ. **فلو كانَ اللهُ أكبرَ مِن كلِّ شيءٍ في قلبِ هذا لما اشْتَغَلَ عنه وصرَفه إلى التَّفْكيرِ بغيره**، كما هو حالُ مَن يَقِفُ بين يدي الملكِ المخلوقِ، وبالله المستعانُ.

فاحرِصْ ـ وفَّقَني اللهُ وإياكَ ـ وأنتَ تقولُ (**اللهُ أكبرُ**) أن لا يكونَ في قَلبِكَ ما هو أعظمُ مِنَ الله، بل أخرِجْ من قَلبِكَ كُلَّ تَعَلُّقٍ وتَعظيمٍ لغيرِ الله، وإياكَ إياكَ أن يكونَ قلبُكَ مُعَظِّماً لنَفْسِكَ أو هواكَ أو أهلِكَ أو مالِكَ أو عملِكَ أو شيخِكَ، أو أيِّ شيءٍ آخَرَ أكثرَ مِنَ الله، مُقَدِّماً إياهُ على طاعةِ الله، مُطيعاً له في مَعصيةِ الله، **فيكونَ القلبُ مُكَذِّباً لِلِّسانِ والجوارِحِ وهُوَ واقِفٌ بينَ يَدَي الله.**

واعْلَمْ أنَّ التَّعظيمَ رُكنٌ من أركانِ العبوديةِ، لا يَصْلُحُ أن يُصرَفَ شيءٌ منه لغيرِ الله، **ومَنْ صَرفَ شيئاً منه لغيرِ الله فقدْ أشرَكَ**، كما قال تعالى في الحديثِ القدسي: «**العَظَمَةُ إزاري والكبرياءُ ردائي، من نازعني**

فيهما عذَّبْتُه». وهو عندَ مسلمٍ وغيرِه بمعناه.

تنبيهاتٌ على أخطاء:

وأُنَبِّهُ هنا على أخطاءٍ يقَعُ فيها البعضُ في لَفْظةِ التكبيرِ، فمنهم من يُدخِلُ همزةَ الاستفهامِ على لَفْظِ الجلالَةِ أو على لَفْظِ أكبرُ، فيقولُ (آللهُ أكبرُ) أو (الله آكبر)، وهذا من الكُفْرِ اللَّفظِيِّ، والعياذُ بالله.

ومِنهم من يُدخِلُ أَلِفاً بعدَ الباءِ وقَبلَ الراءِ، فيقولُ (أكبار) فيكونُ جَمْعَ (كَبَر) وهو الطَّبْلُ، وهذا أيضاً من الكُفْرِ اللَّفْظِيِّ، والعياذُ بالله.

وكلُّ هذا بسبَبِ الجَهْلِ والتَّعَوُّدِ على طَريقَةٍ معيَّنَةٍ مِنَ الكلامِ، ومحاولةِ التَّطْريبِ بالذِّكرِ وما شابَهَ. **والصَّحيحُ الذي عليه الأئِمَّةُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: أنه يُستَحَبُّ أن يَأتِيَ بتكبيرةِ الإحرامِ بِسُرعَةٍ، ولا يَمُدُّها.**

ومنهم من يَحْذِفُ الهاءَ من لَفْظِ الجلالَةِ و يُبدِلُ همزَةَ (أكبر) بواوٍ، فيقولُ (اللاوأكبر)، وهو مِنَ الخطأ الواضِحِ أيضاً.

من معاني وضع اليدين على الصدر:

وأما وَضْعُ اليَدينِ على الصَّدْرِ فقَدْ سُئِلَ عنه الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ اللَّهُ فقال كلمةً مختصرَةً تَدُلُّ على مَدى فَهمِهِ وفِقْهِهِ لمعاني الصلاةِ، قال: (**ذُلٌّ بَينَ يَدَيْ عَزيزٍ**).

ففَهِمَ رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذا الوقوفَ بهذه الهيئةِ يَدُلُّ على التَّذَلُّلِ لله، لأنها هيئةُ **العَبدِ الذَّليلِ المتَواضِعِ الخاشِعِ الخاضِعِ لرَبِّهِ**، بخلافِ مَنْ وَقَفَ شامِخاً

بأَنْفِهِ رافِعاً رأسَه مُسْدِلاً يدَيْهِ فإنها وَقفَةُ التَّكَبُّرِ والخُيَلاءِ.

ونقلَ ابنُ رجبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن عليِّ بنِ محمّدٍ المصريّ الواعظِ قالَ : ما سمِعْتُ في العلمِ بأحسنَ من هذا .

وعنْ أبي هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قالَ : يُحشَرُ الناسُ يومَ القيامةِ على قَدْرِ صنيعِهم في الصلاةِ، وفسَّرَه بعضُ رواتِه فقَبَضَ شمالَه بيمينِه وانْحَنى هكذا .

قال ابنُ رجبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومُلاحَظَةُ هذا المعنى في الصّلاةِ يوجِبُ للمصَلّي أن يتذَكَّرَ وقوفَه بينَ يدَي الله عَزَّ وَجَلَّ للحسابِ).

قالَ ابنُ حجرٍ في الفتْحِ: (والحِكْمَةُ في هذه الهيْئةِ: أنّه صفَةُ السّائلِ الذّليلِ، وهو أمْنَعُ من العَبَثِ، وأقربُ إلى الخُشوعِ، ومن اللّطائفِ قولُ بعضِهم: القلبُ موضِعُ النّيّةِ، والعادَةُ أنَّ مَنِ احترَزَ على حفْظِ شيءٍ جعلَ يدَيْه عليه).

قلتُ: فتَوافَقَ القولُ والفِعلُ على تَعظيمِ الله تعالى وإظهارِ المذَلَّةِ بينَ يَدَيْهِ، **وبَقِيَ الأهَمُّ**؛ وهُوَ **أنْ يَقومَ القَلْبُ بواجِبِ هذا التعظيمِ**، وأن يُعلِنَ اسْتِسْلامَه وخُضوعَهُ وتَذَلُّلَه بينَ يَدَي الله، وأن يقومَ بواجِبِ هذا التعظيمِ في جميعِ حالاتِه، لِينالَ بذلِكَ عِزَّ الدُّنيا وفلاحَ الآخِرَةِ.

الوقفةُ السَّادِسَةُ

أدْعِيَةُ الاستِفْتاحِ

(١)

ما زِلنا ـ أحِبَّتي في الله ـ مَعَ الصلاةِ: قُـرَّةِ عُيـونِ المـؤمِنِينَ الصَّـادِقِينَ، وراحَةِ نُفوسِ المَوَحِّدِينَ المخْلصينَ، وطُمَأنِينَةِ قُلوبِ الخاشِعِينَ المخْبِتِـينَ، كما كانَتْ لِرَسُولِنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القائِلِ: «**جُعِلَتْ قُـرَّةُ عَينـي في الصَّـلاةِ**»، وكما كانَتْ لِسَلَفِنا عليهم رِضوانُ الله حتى كانَ قائِلُهم يقولُ: «**أَرِحْنـا يـا بِلالُ بالصَّلاةِ**»، أما نَحْنُ فَلِسانُ حَالِنا اليومَ يقولُ: أريحونـا مـن الصـلاةِ، حتى إنَّ واحِدَنا يتمَنى أن يخرجَ مَنَ الصلاةِ بأسْـرَعِ ما يمكنُ وكأنَّهُ يحمِلُ الجبالَ على ظَهْرِهِ، وما ذاكَ إلا بِسَبَبِ **الذُّنوبِ التي أَظْلَمَتْ عـلى القُلـوبِ فَمَنَعَـتْ عنهـا صـفاءَها ونورَهـا وطهارتَهـا** ومـا يوصِـلُ إلى خُشـوعِها وخضوعِها وتلذُّذِها بمناجاةِ ربها سبحانَه، هـذا التَّلـذُّذُ الـذي هـو جنَّـةُ القلوبِ المؤمنةِ في الدنيا، المبشِّـر لهم بجناتِ عَدْنٍ يومَ الدينِ.

ولهذا كانتْ حركاتُ الصلاةِ وكلماتُها مُوصِلَةً لهذه الطهارَةِ ولا بُدَّ، لِمَنْ تَدَبَّرَ معانيَها وتفكَّرَ فيها وفي أسـرارِها، مُستَحْضِـراً ذلك حالَ أدائِها.

تنوُّعُ الاستفتاحِ وفائدتُه:

ومِنْ ذلكَ ما كان ﷺ يقولُه في اسْتِفْتاحِ صلاتِه قَبْلَ القِراءَةِ وبَعدَ التكبيرِ، فقَدْ أُثِرَ عنه أنواعٌ من الذِّكرِ في هذا الموضِعِ كان يُنَوِّعُ بينَها فيذكُرُ هذا تارةَ وذاكَ أخرى، **وهكذا هِيَ السُّنَّةُ**؛ أن يُنَوِّعَ المصلي بينَها ولا يقتَصِرَ على واحِدٍ منها فَقَطْ، **وهذا أدْعَى لاستحضارِ معانِيها وأبلغُ في تدَبُّرِها مما لو تَعَوَّدَ اللِّسانُ على ذِكرٍ واحِدٍ يُرَدِّدُه دُونَ تَفَكُّرٍ ولا تَدَبُّرٍ**.

مَعْ ما في ذلِكَ مِنْ تَحقِيقِ اتِّباعِ الرَّسُولِ ﷺ، وإحياءِ السُّنَّةِ وحِفْظِها بجميعِ وُجوهِها فلا يموتُ شيءٌ منها بتَرْكِ العَمَلِ به، بالإضافَةِ إلى التَّيْسيرِ على المصلي وعَدَمِ إملالِهِ وإسآمِه.

من المعاني والحِكَمِ في الاستفتاحِ:

ومن حِكَمِ هذا الاسْتِفْتاحِ أنه تَمْهيدٌ لحضُورِ القَلبِ ودَفْعِهِ إلى مُناجَاةِ الله تعالى، وخروجٌ عن الغفلةِ التي هي حجابٌ بينَ العبدِ وبينَ ربِّه سبحانه، وتحِيَّةٌ وثناءٌ للملكِ عندَ إرادةِ الدخولِ عليه، وتعظيمٌ له وتمجيدٌ، ومقدِّمةٌ بينَ يدي حاجتِه، وتحقيقٌ لآدابِ العبوديةِ التي تستجلبُ إقبالَ الله عليه ورضاهُ عنه وإسعافَه بحوائِجِه.

ومِنْ هذه الأدْعِيَةِ ما رواهُ البُخاريُّ عَن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: كان النبيُّ ﷺ يسْكُتُ سَكتَةً بينَ التكبيرِ والقراءةِ، فقلتُ: بأبي وأمي يا رسولَ الله، إسْكاتُكَ بينَ التكبيرِ والقراءةِ ما تقولُ؟ قال: «**أقولُ: اللهُمَّ باعِدْ بَيني وبينَ خطايايَ كما باعَدْتَ بينَ المشرِقِ والمغرِبِ، اللهمَّ نَقِّني مِن**

خَطاياي كما يُنقّى الثوبُ الأبيضُ من الدَّنَسِ، اللهُمَّ اغْسِلْ خَطاياي بالماءِ والثَّلجِ والبَرَدِ».

وهاكَ معنى هذا الدعاءِ وبعضُ فوائدِه:

ـ **اللهُمَّ**: بمعنى: يا اللهُ. قال الحسنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اللهم مَجْمَعُ الدُّعاءِ. وقال أبو رجاءٍ العطارديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الميمَ في (**اللهم**) فيها تِسعةٌ وتِسعونَ اسماً من أسماءِ الله تعالى. وقال النَّضرُ بنُ شُمَيْلٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من قالَ (**اللهم**) فقدْ دعا اللهَ بجميعِ أسمائِهِ.

فهذه **اللَّفْظَةُ تَتَضَمَّنُ دُعاءَ الله بجميعِ أَسْمائِه، وذلِكَ أَنَّ حَرفَ الميمِ يَدُلُّ على الجمعِ** فدَخَلَ على اللفظةِ بَدَلَ قَولِنا: يا الله، فالداعي بهذا اللفظِ كأنه يقول: يا اللهُ يا رحمنُ يا رحيمُ يا مَلكُ يا قُدوسُ يا سميعُ يا حي يا قيوم.. إلى بقيةِ أسماءِ الله تعالى، كما نبَّه على ذلكَ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابِه (جلاءُ الأفْهامِ).

ولا شكَّ أن الدعاءَ بأسماءِ الله تعالى أدْعَى للإجابةِ، وقد أمَرَ الله تعالى بذلكَ فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

والدعاءُ بهذا اللفْظِ **يَتَضَمَّنُ أَدَبَيْنِ مِنْ آدابِ الدُّعاءِ** المهمةِ المُوصِلَةِ إلى إجابتِه، وهما:

١ـ **الثناءُ على الله تَعالى بما هو أهلُه**، وذلكَ مِن خلال أسْمائِه الحسنى وصفاتِه العلى.

٢ـ **التذَلُّلُ والافتقارُ** أمامَ الله تعالى، وإظهارُ العبوديةِ والحاجةِ

والاضطرارِ إليه سبحانه، وكلَّما كَثُرَ هذا التذَلُّلُ وعَظُمَ كلَّما كان أدْعى للإجابَةِ.

وقد أرشَدَنا الله سبحانه إلى هذينِ الأَدَبَينِ في سورةِ الفاتحةِ؛ فقالَ في الثناءِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، ثمّ قالَ في إظْهارِ الذِّلَّةِ والحاجَةِ والافْتِقارِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ثم جاءَ الدُّعاءُ بعدَ ذلكَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

وقد ثَبَتَ أنَّ الله تعالى يقولُ للعبدِ إذا قرأ الفاتحةَ: «**ولِعَبْدِي ما سَأَلَ**» كما سيأتي إن شاءَ اللهُ.

ـ باعِدْ بيني وبينَ خَطايايَ كما باعَدْتَ بينَ المشرِقِ والمغرِبِ:

سألَ اللهَ تعالى أنْ يُبعِدَ عنه الخطايا بُعْداً لا لِقاءَ مَعَهُ أبَداً، كما أنَّ المشرِقَ والمغربَ لا يلتَقِيانِ، **وهذا التَّعبيرُ من أبْلَغِ ما يكونُ في ذِكرِ المباعَدَةِ وعَدَمِ اللقاءِ**. وهذا الدّعاءُ يتَضَمّنُ طَلَبَ العِصمَةِ مِنْ فِعلِ الذُّنوبِ والخطايا والمنعِ مِن أدائِها، كما يتضَمَّنُ مَغفِرَةَ ما وَقَعَ منها والمباعَدَةَ بينَ العبدِ وعُقوباتِها.

ـ اللهُمَّ نَقِّني مِنْ خَطايايَ كما يُنَقّى الثوبُ الأبيضُ من الدَّنَسِ:

أيْ: طَهِّرْني ونَظِّفْني، **فهذا طَلَبُ نَوعِيَّةِ التَّنْقِيَةِ المطلوبَةِ**، وهِيَ تنقيةٌ عَظيمةٌ مُعتَنىً بها مُبالَغٌ فيها، بحيثُ لا تَدَعُ للذَّنبِ أيَّ أثَرٍ على العبدِ،كما يُبالِغُ الإنسانُ في تنقيةِ الثَّوبِ الأبيَضِ عِندَ غَسْلِهِ.

وذَكَرَ الثَّوبَ الأبيَضَ دُونَ غَيرِه لأنه يَحتاجُ إلى تَنظيفٍ أكثَرَ وعِنايَةٍ

أكبر، فالمطلوبُ تَنقِيَةُ القَلبِ وتَطهيرُه حتى لا يبقى عليه أيُّ أثرٍ مِن آثارِ الذُّنوبِ مهما كان قليلاً.

ـ اللهم اغْسِلْ خَطاياي بالماءِ والثَّلجِ والبَرَدِ:

هذه الجملةُ الثالثةُ من الدعاءِ، وفيها بيانُ الوَسيلةِ التي يُغسَلُ بها، أي: **اغْسِلْ خَطاياي غَسْلاً عَظيماً شَديداً يُعيدُ للقَلْبِ قُوَّتَهَ وصِحَّتَه وطَهارَتَه، ويُطفِئُ منه نارَ الذنوبِ والمعاصي.**

وذلك أن الخطايا تُوجِبُ للقَلبِ حَرارَةً ونَجاسَةً وضَعْفاً، وتُضرِمُ فيه نارَ الشَّهوَةِ وتُنَجِّسُه، وهي بمنزلَةِ الحَطَبِ الذي يَمُدُّ النارَ.

والماءُ يَغسِلُ الخَبَثَ ويُطفِئُ النارَ، وكلَّما كان بارِداً أكثرَ كُلما أَوْرَثَ الجِسمَ صَلابةً وقُوةً، فإنْ كان معه ثلجٌ وبَرَدٌ كان أقوى في التطهيرِ وصَلابَةِ الجِسمِ وقُوَّتِه، فكذلك القلبُ دائِماً يحتاجُ إلى ما يُطَهِّرُه ويُبْرِدُ حرارةَ شهوتِهِ ومَعصِيَتِه ويُقَوّيه حتى يصلُحَ للدُّخولِ على الله تعالى وتدخُلَ فيه أنوارُ الربِّ سبحانه؛ فتَعُمَّهُ الرحمةُ وتغشاهُ السَّكينةُ؛ فيخشَعَ لِرَبِّه ويَخِرَّ له مُتَذَلِّلاً خاضِعاً مُنيباً محباً خائفاً راجياً مُعظِّماً؛ فينالَ بذلك خيرَ الدنيا والآخرةِ، فكان هذا الدعاءُ الذي يُوصِلُ العبدَ إلى هذه الطهارةِ إن صَدَقَ فيه واستَحْضَرَ مَعانيَه.

قال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وفي هذا الحديثِ مِنَ الفِقهِ: أنَّ الداءَ يُداوَى بِضِدِّهِ، فإنَّ في الخطايا مِنَ الحرارَةِ والحريقِ ما يُضادُّهُ الثَّلجُ والبَرَدُ والماءُ البارِدُ، ولا يُقالُ: إنَّ الماءَ الحارَّ أبلغُ في إزالَةِ الوَسَخِ؛ لأنَّ في الماءِ البارِدِ مِنْ

تَصليبِ الجِسمِ وتَقْوِيَتِه مَا ليسَ في الحارِّ. والخطايا تُوجِبُ أثَرَيْنِ: التَّدْنيسَ والإرْخاءَ، فالمطلوبُ مُداواتُها بما يُنَظِّفُ القَلبَ ويُصَلِّبُه، فذَكَرَ الماءَ البارِدَ والثلجَ والبَرَدَ إشارةً إلى هَذينِ الأمْرَينِ).

الوقفةُ السَّابِعَةُ

أدْعِيَةُ الاستِفْتاحِ

(٢)

عَنْ عائِشَةَ وأبي سَعيدٍ وغيرِهما رضي الله عنهم أجمعينَ أن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا اسْتَفْتَحَ الصَّلاةَ قَالَ: «**سُبحانَكَ اللهُمَّ وبِحَمْدِكَ، وتَبارَكَ اسمُكَ، وتَعالى جَدُّكَ، ولا إلَهَ غَيرُكَ**». رواه أصحابُ السُّنَنِ بإسنادٍ صَحيحٍ، وقَد رواه مُسلمٌ عن عُمَرَ مَوقُوفاً عليه .

ـ وقَدْ اسْتَحَبَّ أكثَرُ أهلِ العِلْمِ الاستفتاحَ بهذا الذِّكْرِ، وذَلِكَ لما تَضَمَّنَه مِنَ الثَّناءِ على الله عَجَّلَ.

فائدةٌ في أنواعِ الذكرِ:

فإنَّ الذِّكرَ ـ أحبّتي في الله ـ على ثَلاثَةِ أنواعٍ:

١ـ ما كانَ **ثناءً على الله عَجَّلَ**، وهُوَ **أفضَلُ الأنْواعِ** لِتعَلُّقِهِ بأشْرفِ الموجُوداتِ.

٢ـ ما كانَ فيه **اعْتِرافٌ مِنَ العَبدِ بِعبودِيَّتِهِ** وفَقْرِهِ وحَاجَتِه إلى الله تعالى وما يَجِبُ عليه تجاهَ ربِّه، وهو المرتبةُ الثانيةُ.

٣ـ مَا كانَ طَلباً وسُؤالاً.

فالأوَّلُ مِثلُ الدُّعاءِ الذي مَعَنا، **والثاني** مِثْلُ ما سَيأتي في الوَقفةِ التاليةِ إنْ شاءَ اللهُ، **والثالِثُ** مثلُ الدُّعاءِ الذي سَبَقَ في الوَقفَةِ السَّابِقَةِ.

وقَدْ كانتْ أدْعِيَةُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **في الاسْتِفْتاحِ مُتَضَمِّنَةً للأنْواعِ الثلاثَةِ لِيَتَقَلَّبَ العَبْدُ في جَميعِ أنواعِ الخيراتِ.**

وقد سَبَقَ التَّنبيهُ على أنَّ الأفْضَلَ في هذه الأذكارِ التَّنويعُ بينَها والدعاءُ بهذا تارةً وهذا تارةً؛ لأنه **أدْعَى إلى اسْتِحْضارِ المعاني، وأجمعُ لحصولِ الخيراتِ.**

ـ واعلَموا عبادَ الله أن الثناءَ على الله تعالى بما هُوَ أهلُه **يَتَضَمَّنُ الطلبَ والدُّعاءَ**، وقدْ صَحَّ عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه قالَ: «**أفضَلُ الدُّعاءِ الحمدُ لله**»، وهو في سننِ الترمذيِّ وابنِ ماجَهْ بإسنادٍ حسنٍ، **فجَعَلَ الحَمْدَ أفْضَلَ الدعاءِ مَعْ أنَّه ثَناءٌ؛ لما يَتَضَمَّنُه الثناءُ مِنَ الطَّلَبِ**، فإنَّ العَبدَ إذا أثنى على ربِّهِ وحَمِدَهُ بأنه غَفورٌ رحيمٌ مَثلاً؛ فهذا يَتَضَمَّنُ طَلَبَ المغفرَةِ وسؤالَ الرحمةِ منه، وإذا أثْنى عليهِ بأنّه الرّزّاقُ؛ فهذا يتَضَمَّنُ سؤالَ الرِّزْقِ مِنه، وهكذا..

ومِنْ هُنا كان دعاءُ يُونُسَ عليهِ السلامُ وهُو في بَطْنِ الحُوتِ ثَناءً منه على الله تعالى، واعْتِرافاً بظُلمِه لِنَفْسِه؛ حيثُ قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فقالَ تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾.

والذّكرُ الذي بأيْدينا ـ أحِبّتي في الله ـ تَضَمَّنَ أكمَلَ الثَّناءِ على الله واسْتَوْعَبَ الباقياتِ الصَّالحاتِ التي هي أفْضَلُ الكلامِ بَعْدَ القرآنِ، كما في

صَحيحِ مسلمٍ: «**أحب الكَلام إلى الله أربعٌ: سُبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إله إلا اللهُ، واللهُ أكبرُ، لا يَضُرُّكَ بأيِّهنَّ بَدأتَ**»، وهِيَ المذكورةُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦﴾ [الكهف: ٤٦].

وهذهِ الأربَعُ كَلِماتٍ كانَتْ خَيرَ الكلامِ بَعدَ القُرآنِ، لأنها تَضَمَّنَتِ الثَّناءَ على الله سُبحانَه بجميعِ أسمائِه الحسْنى التي قالَ فيها النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ لله تِسعةً وتِسعينَ اسْماً مَنْ أحصاها دَخَلَ الجنةَ**» وهو في الصّحيحَينِ وغيرِهما، أيْ: مَن عَلِمَها، وفَهِمَ مَعناها، وأثنى على الله تعالى بها، وتَعَبَّدَ لله بمقتضاها، **وهذا يَجْمَعُ الإيمانَ والدِّينَ كُلَّهُ**، ولِذلِكَ قال: «**مَنْ أحصاها دَخَلَ الجنَّةَ**».

فَمَثَلاً: مَعرِفَةُ العَبدِ أنَّ **رَبَّهُ سميعٌ بصيرٌ**، يُوجِبُ عليهِ أنْ يَعلَمَ بأنَّ الله تعالى قدِ اتَّصَفَ بصِفَةِ السَّمعِ والبَصَر؛ فهو يَسمَعُ ويرى كُلَّ شيءٍ مَهما دَقَّ وخَفَا فَضلاً عمّا ظَهَرَ وبَدا، فهو الذي يَسمَعُ دَبيبَ النَّمْلَةِ السَّوداءِ على الصَّخْرَةِ الصَّمّاءِ في الليلةِ الظَّلْماءِ، بَلْ دُونَ ذَلِكَ يراهُ ويسْمَعُهُ.

فإذا عَلِمَ العَبدُ هذا وتَيَقَّنَ منه عَبَدَ اللهَ بمقتَضَى هَذينِ الاسْمَيْنِ؛ وذَلكَ **بأنْ يخافَهُ في السِّرِّ والعَلَنِ، ويُراقِبَ اللهَ في كُلِّ لحظةٍ**؛ فَيسْتَحْيِي ويخافُ مِنَ الله أن يَراهُ على مَعْصِيَةٍ، أو يَسْمَعَ مِنه ما يُغضِبُه، فيعامِلُ الله بالطَّاعَةِ دائِماً.

وهكذا في جَميعِ الأسْماءِ والصفاتِ، إذا تحقَّقَ العبْدُ بها جميعِها، فلا

رَيْبَ أنه أتى بكَمالِ العُبودِيَّةِ لِرَبِّه سبحانه وتعالى.

ارتباطُ التَّسبيحِ والتَّحميدِ والتَّكْبيرِ بأسماءِ الله تعالى:

وتَأَمَّلْ مَعي ـ أخي ـ ارْتباطَ هذه الكلِماتِ بجميعِ أَسْمائِه وصِفاتِه مِنْ خِلالِ ما أمَرَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ به من الذِّكرِ بعدَ كُلِّ صَلاةٍ عِندَما شَرَعَ لنا أن نُسَبِّحَ اللهَ ثلاثاً وثلاثينَ ونحمَدَهُ ثَلاثاً وثلاثينَ ونُكَبِّرَهُ ثلاثاً وثلاثينَ، فهذهِ تِسعٌ وتِسعُونَ على عَدَدِ أسماءِ الله الحسنى المذْكُورَةِ في الحديثِ.

والسِّرُّ في هذا ـ والله أعلمُ ـ أن أسماءَ الله تَعالى تَنقَسِمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

القِسْمُ الأَوَّلُ: ما يُحْدِثُ في القَلْبِ عِندَ سَماعِهِ لها وتَدَبُّرِهِ لمعانِيها ومَعْرِفَتِه بها **محبَّةً لله تعالى** تَدْفَعُ العبدَ لأن يقولَ: الحمدُ لله، مثلُ أسماءِ (الرحمنِ الرحيمِ الغفورِ التوابِ الحليمِ الودودِ).. فهذه الأسماءُ وما هُوَ مِنْ جِنسِها تُحدِثُ للمتأَمِّلِ فيها محبةً لله تزدادُ وتَضعُفُ على حَسبِ مَعرِفَةِ القَلبِ بها واستحضارِه لمعانِيها ويَقينِه بما دَلَّتْ عليه.

وهذه الأسماءُ عَدَدُها ثلاثةٌ وثلاثونَ لمنْ تَأَمَّلَ، فيكونُ العبدُ عِندَ قَوله: الحمدُ لله، مُتَأَمِّلاً لهذه الأسماءِ مُثنياً على الله بها.

القسمُ الثاني: ما يُحدِثُ في القلبِ عندَ سماعِه لها وتدَبُّرِه لمعانِيها ومَعرِفَتِه بها **خوفاً** من الله تعالى، يَدفَعُهُ لأن يقولَ: اللهُ أكبَرُ.

وهذه هي صِفاتُ العَظَمَةِ والكبرياءِ والقَهْرِ والغَلَبَةِ، مِثلُ (العظيمِ القَويِّ الجبّارِ المنتقِمِ المتكبر)..

وهذه الأسماءُ عَدَدُها أيضاً ثلاثَةٌ وثلاثونَ اسْماً، فيكونُ العبدُ حَالَ قَولِه: الله أكبرُ قَدْ أثنى على الله تعالى بها جميعِها.

وهنا مُلاحَظَةٌ مُهِمَّةٌ:

ـ أنَّ **القِسمَ الأوَّلَ** مِنَ الأسماءِ وهُوَ ما يُورِثُ المحبةَ في القلبِ، وهي الأسماءُ الدائرةُ على اسمِ الله (**الرحمن**): مِنْ تَمامِ التَّعَبُّدِ بها **أن يَتَخَلَّقَ العبدُ بها ويجتهدَ في الاتِّصافِ بها**، فيكونَ رَحِيماً حَليماً صَبوراً عَفُواً غَفوراً.. إلى غيرِ ذلك؛ لأنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ مِنه ذلِكَ.

وتأمَّل هذا في مِثلِ قَولِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الراحِمونَ يَرْحَمُهُمُ الرحمنُ، ارْحَمُوا مَنْ في الأرضِ يرحَمْكُمْ مَن في السماء**» وهو عندَ أبي داودَ وغيرِه بسندٍ صحيحٍ، وكذا في قولِه لأَشَجِّ عَبْدِ القَيْسِ كما عندَ مسلمٍ وغيرِه: «**إنَّ فيكَ خَصلَتَيْنِ يُحِبُّهما اللهُ: الحِلْمُ والأناةُ**»، وغيرِ ذلكَ من نُصوصِ الكتابِ والسنَّةِ؛ يَتَّضِحُ لكَ هذا المعنى.

ـ أما **القسمُ الثاني** من هذه الأسماءِ؛ وهُوَ ما يُحدِثُ في القلبِ **الخوفَ والرهبةَ**، وهي صفاتُ العَظَمَةِ الراجِعةُ إلى اسْمِ الله (**الربِّ**)، فتَمامُ التَّعَبُّدِ بها يكونُ بإفرادِه تعالى بها وتوحيدِهِ بأوصافِها، **فلا يجوزُ الاتِّصافُ بشيءٍ منها أبداً**؛ لأنها صِفاتُ الربِّ العَظيمِ التي لا تَليقُ بالمخْلوقِ الضَّعيفِ الفَقيرِ.

وإذا تأمَّلتَ ـ أخي ـ قولَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديثِ القدسيِّ الصحيحِ عَنْ ربِّه جلَّ وعلا أنه قال: «**العَظَمَةُ إزاري والكِبرياءُ رِدائي،**

من نازَعَني فيهما أدخَلْتُهُ النارَ»، تبيَّنَ لكَ أنَّ اللهَ تعالى سَتَرَ جمالَه بالكِبرياءِ والعَظَمَةِ، ولما كانَتِ الكِبرياءُ أعظَمَ وأوْسَعَ كانتْ أحَقَّ باسْمِ الرِّداءِ، فإنه سُبحانَه الكبيرُ المتَعال، وهو سبحانه العَلِيُّ العظيمُ. وكذلكَ لو تَأَمَّلْتَ قَولَه عليه الصلاةُ والسلامُ: «**لا يَدْخُلُ الجنةَ مَنْ كان في قَلبِهِ مثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ**» وهو عندَ مسلمٍ وغيرِه، وغَيرَ ذلكَ من النَّصوصِ القرآنِيَّةِ والنَّبويَّةِ في ذمِّ الاتّصافِ بصِفاتِ التَّكَبُّرِ والعَظَمَةِ اتَّضَحَ لكَ الفَرْقُ بينَ نوعَيْ الصِّفاتِ كما ذكَرْنا، وبالله التوفيقُ.

ـ **القِسمُ الثالِثُ** من الأسماءِ: وهي الأسماءُ التي تذكرُ كمالَ الله تعالى وجلالَه وتفرّدَه بالخلقِ والرِّزقِ والتّدبيرِ، وأنَّه لا يكونُ شيءٌ إلا بأمرِه ومشيئتِه، ووفقَ علمِه وحكمَتِه ورحمَتِه وعدلِه ؛ وذلكَ مثلُ أسماء (الخالق، الرازق، المصوِّرُ، المعطي، المانعُ، النّافعُ، الضارُّ ...) . فهذه الأسماءُ تدفَعُ مَن تدبَّرَها إلى أن يقولَ : سبحانَ الله ؛ وذلِكَ أنَّ التسبيحَ هو تنزيهُ الله تعالى عمّا لا يليقُ به من صفاتِ العيبِ والنقصِ، مع إثباتِ كلِّ صفاتِ الكمالِ والجلالِ له سبحانه وتعالى .

۞ أركانُ التّسبيحِ وبعضُ فَوائِدِه :

والتسبيحُ له ركنانِ هما: الحمدُ والتكبيرُ، كما دلَّ عليهِ قولُه تعالى في آخرِ سورةِ الإسراءِ في بيانِ التّسبيحِ المفَصَّلِ للتَّسبيحِ المطلَقِ المذكورِ في أوَّلِها، فقال سبحانه: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾ [الإسراء : ١١١] .

ومُنتَهى هذا التَسبيحِ وغايَتُه ونهايَتُه (**لا إله إلا اللهُ**)، وهُوَ التَّعبِيرُ عَـن وحدانِيَّةِ الله تعالى في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه وأفْعالِه.

والتَّسْبيحُ يَكونُ طَوْعاً كَما يَكونُ كَرْهاً، فالمؤمِنُ يُسَبِّحُ طَوْعـاً ومَعْرِفَـةً بالله تعالى، وأما الكَافِرُ فَهُوَ يُسبِّحُ كُرهاً؛ لأنَّـه **مُنفِّـذٌ لإرادَةِ الله تَعـالى فيـه الدّالَّةِ على كَمالِ الله تَعالى وعَدْلِه ورَحمَتِهِ**، كما قَالَ سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد: ١٥]. وقالَ سبحانَه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

فأخْبرَ سبحانَه أنَّ كُلَّ شيءٍ يُسَبِّحُ لَه ويَسجُدُ له طَوعاً أو كَرهاً، فـلا خُروجَ لأحَدٍ عَنْ ذلِكَ، ولَكِنْ لا يَنْتَفِعُ بهذا إلا مَنْ فَعَلَه طَوْعـاً ورِضـى كما هو مَعلومٌ، والله أعلمُ.

وتَأَمَّلْ كَيفَ خَتَمَ اللهُ ﷻ آيَةَ الإسـراءِ باسْمَي (**الحليمِ والغَفورِ**) لِيُنَبِّهَ عَلى أنَّه **لَولا حلمُه ومَغفرَتُهُ لانْتَقَمَ مِنْ عِبادِه ولما تَـرَكَ عَـلى ظَهْـرِ الأرضِ مِنْ دابَّـةٍ**، وذلِـكَ بِسَبَبِ تَقصِيرِهِم في هـذا التَّسبيحِ الـذي هـو الغايَـةُ والمطلوبُ مِنْ خَلْقِنا ووُجُودِنا، والله المستعان.

ولهذا كانَتْ حياةُ أهلِ الجنَّةِ بالتَّسبيحِ كالنَّفَسِ لهم في الدنيا، وهـذا مـا يَنبَغِي أن نَصِلَ إليه، وهُوَ ما يَكونُ مِنَ المؤمِنينَ في آخِرِ الزَّمَانِ لِقُربِـهِ مِـنَ الآخِرَةِ في زَمَنِ الـدَّجّالِ، **فَيَشْـبَعُ بهـا المـؤمِنُ ويُعَـوَّضُ بهـا عَـنْ الطَّعـامِ والشّـرابِ الذي بِيَدِ الدَّجّالِ**، وذَلِكَ لِعَظِيمِ إيمانِ هؤلاءِ في ذَلـكَ الوَقْـتِ

مما جَعَلَهُم كأنهم في الجنَّةِ، وهذِهِ حَالُ الأنبياءِ في الدُّنيا كما قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إني أَبيتُ عِندَ رَبي يُطعِمُني ويَسقِيني**» وهو في الصّحيحَيْنِ، وهذا لِعَظِيمِ إيمانِه وكَثْرَةِ تَسْبيحِهِ فاسْتَغْنى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما يُغَذِّيه بِهِ الله مِنَ المعارِفِ، وما يُفيضُه عَلى قَلْبِه مِنْ لَذَّةِ مُناجَاتِه وقُرَّةِ عَينِه بِقُرْبِهِ، وتَنَعُّمِهِ بُحِبِّهِ، والشَّوقِ إليه، وتَوابعِ ذَلِكَ مِنَ الأحوالِ التي هِيَ **غِذاءُ القُلوبِ ونَعيمُ الأرواحِ وقُرَّةُ العُيونِ وبَهْجَةُ النُّفوسِ والرُّوحِ والقَلْبِ** بما هو أَعْظَمُ غِذاءً وأجوَدُه وأنفَعُهُ، **وهَذا الغِذاءُ قَد يَقْوَى حَتى يُغْنيَ عَن غِذاءِ الأَجْسامِ مُدَّةً مِنَ الزمانِ**، وأما في الجنةِ فإنه يَقوى حتى يُغنيَ عَنْ غذاءِ الأَجْسادِ تماماً، ومَنْ لَه أَدْنى تَجربةٍ وشَوقٍ يَعلَمُ اسْتِغْناءَ الجِسمِ بِغذاءِ القَلبِ والروحِ عَنْ كثيرٍ مِنَ الغِذاءِ الحيوانِيِّ كما قال ابْنُ القَيِّم عليه رحمةُ الله. قُلتُ: **وهذِهِ مَرتَبَةٌ عَالِيَةٌ يَصِلُ إليها الأنبياءُ في الدُّنيا وتَكونُ عَامَّةً لِجَميعِ المؤمنينَ زَمَنَ الدَّجّالِ**، والله أعلم.

ومن فَهِمَ هذا فَهِمَ لماذا كانَ المؤمِنُ يَأكُلُ في مِعىً واحِدٍ والكافِرُ يأكُلُ في سَبْعَةِ أَمْعاءٍ،كما جاء في الصحيحينِ، والله أعلَمُ وأَحْكَمُ، وهُو المعِينُ على فَهْمِ آياتِه وحِكَمِهِ.

ولما كانَ التَّسْبيحُ مُوصِلاً إلى السِّباحَةِ في الجنةِ كالملائكَةِ أَخَذَ هذا الاسْمَ، وعلى قَدْرِهِ تكونُ سِباحَةُ العَبْدِ وخِفَّتُه وسُرعَةُ حَرَكَتِهِ في الدُّنيا لا كَحالِ أَهْلِ الدُّنيا وما يَلْقَوْنَهُ مِن الشِّدَّةِ والتَّعَبِ والنَّصَبِ والشَّقاءِ في أمُورِ حياتهم. ولَعَلَّ هَذا هُو السِّرُّ في **تخصيصِ الطيرِ بالسِّباحَةِ في الدُّنيا لا يَعتَرِضُه شيءٌ ولا يَتَعَذَّبُ في السَّيرِ**، بَلْ يَسيرُ حَيثُ شَاءَ بِكُلِّ سُهولَةٍ،

فلَعَلَّه لِكَثْرَةِ تَسْبيحِهِ لله مِنْ بَينِ المخلوقاتِ كما أشارَ إليه قولُ ربِّنا سُبحانَه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور: ٤١].

فخَصَّ الطيرَ بالتَّسبيحِ بَعدَ العُمومِ لِلدِّلالَةِ على أنه أكثرُ ما يُسَبِّحُ، كما هو مَعلومٌ مِنْ ذِكرِ الخاصِّ بَعدَ العَامِّ.

والأصلُ فينا أن نَطيرَ كما نكونُ في الجنةِ، ونحنُ إنّما نَمْشي على أرجُلِنا ونَتْعَبُ بسببَ ذُنوبِنا ومَعاصِينا، واللهُ المسْتَعانُ.

والتَّسْبيحُ لَه جَناحانِ حتى يَكونَ تَسْبيحاً صَحِيحاً كامِلاً يجعَلُ العَبدَ يَسبَحُ كالملائِكَةِ وهما:

جناحُ الحمدِ وجناحُ التعظيم، وهُما التَّسبيحُ بِحَمْدِ الله والتَّسبيحُ بعَظَمَتِه الذي مَدارُ القُرآنِ والسُّنَّةِ والدِّينِ والشَّريعَةِ والخَلْقِ والأمْرِ راجِعٌ إليهما، كما قَالَ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾.

ومِنْ هُنا تَعلَمُ السِّرَّ في قَوْلِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصَّحيحَيْنِ وغيرِهما: «**كَلِمَتانِ خَفيفَتانِ عَلى اللِّسانِ، حَبيبتانِ إلى الرَّحمنِ، ثَقيلَتانِ في الميزانِ: سُبحانَ الله وبحمْدِهِ، سُبحانَ الله العظيم**»، وكَذلِكَ السِّرَّ في التَّسبيحِ بهما في الرُّكوعِ والسُّجودِ وغَيرِ ذلكَ مِنَ المواضِعِ الكَثيرَةِ المذكُورَةِ في الكتابِ والسنَّةِ، خاصَّةً **قَبلَ طُلوعِ الشَّمسِ وقَبْلَ الغُروبِ، وآخِرَ اللَّيْلِ، وبَعدَ الصَّلواتِ، وفي السُّجودِ**، وذلِكَ لأنَّ مَدارَ العِلمِ والإيمانِ

ومَعرِفَةِ الرَّبِّ الرحيمِ الرَّحمنِ يَدورُ عليهما.

ولقد فَصَّلتُ القـولَ في التّسْـبيحِ وفَضْـلِهِ وأهمّيتِـه وثَمَرَتِـه وحَقيقَتِـه وأركانِه في الكـلامِ عـلى سـورةِ الإسـراءِ ضـمنَ الوقفـاتِ والتـأملاتِ الخاصةِ بالخمسِ العتاقِ من سُوَرِ القرآنِ، أسألُ الله تعالى أن يَمُنَّ بإنْهائِها.

وهذه الأسماءُ ـ أيضاً ـ عددُها ثلاثٌ وثلاثونَ، مِثْلُ (الملِـكِ القُـدّوسِ الرزاقِ المعْطي المانِعِ النافِعِ الضارِّ المحيي المميتِ الحيِّ القَيّومِ).. إلى غـيرِ ذلِكَ مما هوَ مِن جِنْسِهِ.

فيكونُ العَبدُ عِندَ قَولِـه: سُـبْحانَ الله، والحمـدُ لله، واللهُ أكـبرُ (ثلاثـاً وثلاثين) كأنه اسْتَحْضَـرَ التِّسعةَ والتِّسـعينَ اسْـماً مِـنْ أسـماءِ الله تعـالى؛ وأثْنى على الله بها؛ وتعرَّفَ إليهِ مِن خِلالها، فيقـولُ عِنـدَها: **لا إلـه إلا اللهُ وحدَه لا شـريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ وهُوَ على كلِّ شـيءٍ قَديرٌ**، وهِـيَ شَهادَةُ **التَّوحيدِ** المُعَبِّرَةُ عَن مَعرِفَةِ العَبْدِ بِربِّهِ مَعرِفَةً صَـحيحَةً مِـن خِـلالِ أسمائِهِ وصفاتِه وأفعالِهِ وآياتِهِ.

فهذهِ الشهادَةُ ستخْرُجُ بَعدَ التسبيحِ والحَمْدِ والتّكبيرِ بِصِـدْقٍ عَجيـبٍ مِنَ القَلبِ لا مِنْ مُجَرَّدِ اللِّسانِ، طاردَةً كُـلَّ تَعَلُّـقٍ بِغـيرِ الله، وكُـلَّ تَعظـيمٍ لِغَيرِهِ، وكُلَّ محبةٍ لِغَيرِه، وتَجْعَلُ القَلـبَ مُنطَرِحـاً بَـينَ يَـدَيْ رَبِّـهِ ومَـولاهُ مُتَوَكِّلاً تَائِباً مُنِيباً مُستَغْفِراً خَاشِعاً خاضِعاً مُخْبِتاً مُحِباً مُعَظِّماً لِرَبِّهِ، وذَلِكَ أنَّ هذا القلبَ قَدْ امْتَلأ بمعرِفَةِ الله تعالى فَصَدَقَ بالتَّوحيدِ لَهُ.

ومِنْ هنا نَعلَمُ السِّـرَّ في قَولِـه تعـالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ

﴿لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ [محمد : ١٩].

فأمَرَ **بالعِلْمِ** بأنّه لا إله إلا هُوَ؛ **لأنَّ الشَّهادةَ** له بذلكَ **بدونِ العِلمِ** بأسمائِهِ وصِفاتِه، والمعرفَةِ الصَّحيحَةِ بما يَليقُ به وما لا يَليقُ، **تكونُ شهادةً باللسانِ فقط ليسَ للقَلبِ منها نَصيبٌ**، وهذا ما وَصلَ إليه حالُنا في هذا الزمانِ بِسَبَبِ جَهلِنا بربِّنا وعَدَمِ معرِفَتِنا الصَّحيحةِ بأسمائِه وصفاتِه وقِلَّةِ تَدبُّرِنا لذلكَ.

فاعلَمْ أخي أنَّ هذه المعرفةَ هِيَ أوجَبُ ما يَجِبُ عليكَ، وأنه لا تَصِحُّ شَهادَتُكَ ولا يكمُلُ إسلامُكَ إلا بها، وعلى قَدْرِ ما تكونُ هذه المعرفةُ في القَلبِ على قَدرِ ما يَصدُقُ الإنسانُ بشهادَةِ التَّوحيدِ ويُخلِصُ بها، والله المستعانُ.

معاني دُعاءِ الاستِفْتاحِ وبَعضُ فوائدِه :

ولْنَرْجِعْ إلى دُعاءِ الاسْتِفتاحِ الذي مَعنا لِنَنْظُرَ كَيفَ جَمَعَ هذه المعرفَةَ والثَّناءَ على الله مِنْ جَميعِ الوُجوهِ، وكيفَ تَحَقَّقَ فيه الذِّكْرُ بالكَلِماتِ الأَرْبَعِ التي هي الباقِياتُ الصَّالحاتُ، مُستَفتِحينَ بكلماتٍ لابنِ القيِّمِ رحمَهُ اللهُ تعالى تكلَّمَ فيها على هذا الدُّعاءِ إذ يقولُ: (فإذا قالَ: سبحانَكَ اللهم وبحَمدِكَ وأثنى على الله بما هو أهلُه، **فقَدْ خَرَجَ عنِ الغفلَةِ التي هِيَ حِجابٌ بينَه وبينَ الله، وأتى بالتَّحيَّةِ والثَّناءِ الذي يخاطَبُ به الملِكُ عندَ الدُّخولِ عليه، تَعظيماً له وتمجيداً، ومقدِّمةً بينَ يدَيْ حاجَتِه**، فكانَ في هذا الثناءِ من أدَبِ العبوديةِ ما يستَجلِبُ به إقبالَه عليه، ورضاه عنه، وإسعافَه بحوائِجِه).

ـ سبحانَكَ اللهم وبحمْدِكَ:

التَّسبيحُ هو: تَنْزيهُ الله تعالى عَمّا لا يليقُ به مِن صِفاتِ العَيْبِ والنقصِ ومماثَلَةِ المخلوقَاتِ.

والحمدُ هو: الثناءُ عليهِ بما له مِن صِفاتِ الكمالِ والجَمالِ والجلالِ والعَظَمَةِ مَعَ الحبِّ والتَّعظيمِ.

والتَّسبيحُ بحمدِ الله هو: تَسبيحٌ بما حَمِدَ اللهُ به نفسَه، فهو بمعنى: سُبحانَ الله والحمدُ لله، إلا أنه قَدْ زادَ معنىً مُهماً جداً وهو: **أن تَسبيحَ الله تعالى لا يكونُ إلا بما حَمِدَ به نفسَهُ وأَثبَتَهُ لِنَفْسِهِ مِنْ صِفاتِ الكَمالِ**، فَمَنْ عَطَّلَ شيئاً من هذه الصِّفاتِ، أو نفاها عَنِ الله، أو جعَلَ لله فيها شريكاً أو شبيهاً، فهو ليسَ مُسَبِّحاً لله ولا حامِداً له وإنْ زَعَمَ أنه يُسبِّحُ اللهَ؛ كما يَفعَلُه أهلُ البِدَعِ والضَّلالِ مِنْ نَفْيِ صِفاتِ الله الثابِتَةِ بالكتابِ والسنةِ بحجَّةِ أنها تُوهِمُ التَّشْبيهَ فيجِبُ تَنزيهُ الله عنها، فنَزَّهوا الله عَنْ صِفاتِ كَمالِه، وهذا هو التَّعطيلُ لا التّنزيهُ، أعاذَنا الله منه.

وكما يفعلُهُ من زعَمَ أنَّ لغيرِ الله تصرفاً في شيءٍ من هذهِ الأكوانِ وأنَّه يملِكُ شيئاً من النفعِ وكشفِ الضرِّ كما يزعمُه غلاةُ التصوِّفِ.

إلى غيرِ ذلكَ مما عندَ أهلِ البدَعِ الذينَ حُرِموا حقيقةَ التّسبيحِ لله وإنْ سبَّحوا اللهَ بألسِنَتِهم، نسألُ اللهَ الهدى والثباتَ.

فالواجِبُ إثباتُ ما أثْبَتَهُ اللهُ لِنَفْسِهِ وما أثبَتَه له رسولُه عليه الصلاةُ والسلامُ، على الوَجْهِ الذي يَليقُ بالله، فلا نُعَطِّلُ شيئاً مِنها كما لا نُشَبِّهُها

بشـــيءٍ، بـل كـما قَـال تعـالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

كما نُوَحِّدُهُ سبحانَه في جميعِ صِفاتِ كَمالِه ونُعوتِ جَلالِـه فـلا نجعَـلُ شيئاً منها لغيرِهِ سبحانه.

ـ وتبارَكَ اسْمُكَ:

البرَكَةُ هِيَ: زيادةُ الخيرِ وكثرَتُه وثُبوتُهُ واستِقْرارُه وعُلُوُّهُ وظُهورُه، كما يَدُلُّ عليه فِعْلُ (**بَرَكَ**).

والمرادُ باسمِكَ: جميعُ أسمائِكَ، لأنه **مُفرَدٌ مضافٌ فيدُلُّ على العُمومِ**.

والمعنى: **تَبارَكَتْ جَميعُ أسمائِكَ وكَثُرَ خيرُها وعَظُمَ بِرُّهـا وانتَشَـرَتْ بَركاتُها**، فما يكونُ اسمُكَ في شـيءٍ إلا بارَكَهُ، فما كانَ في قَليـلٍ إلا كَثَّـرَهُ، ولا ضَعيفٍ إلا قَوّاهُ، ولا ذَليلٍ إلا أعَزَّهُ، ولا فَقيرٍ إلا أغناهُ.

ولذلِكَ شُـرِعَ لنا أن نَبدأَ جَميعَ أقوالِنا وأفعالِنا ببسمِ الله، ليُجعَـلَ فيهـا البركَةُ والنَّجاحُ بِبَرَكَةِ أسماءِ الله تعالى، ونُبعِـدَ عنهـا كُـلَّ خَلَـلٍ ونَقـصٍ، فالشَّـيطانُ لا يُمكِنُـهُ أن يشـارِكَ العَبـدَ في طعامِـهِ ولا في شـرابِه ولا في مَسكَنِه ولا في أولادِه ولا في غيرِ ذلِكَ إذا ذَكَرَ اسْمَ الله على ذلكَ كلِّه، بـل تكونُ محفوظَةً مُبارَكَةً ببرَكَةِ الله تعالى وأسمائِهِ الحسنى.

ـ وتعالى جَدُّكَ:

الجدُّ هو: العَظَمَةُ والنَّصيبُ والجاهُ، أي: تَعالَـتْ وارْتَفَعَـتْ عَظَمَتُـكَ فَوقَ كُلِّ عَظَمَةٍ غايَةَ العُلُوِّ والرِّفْعَةِ، فـلا نِسـبَةَ بـينَ عَظَمَتِـكَ وبـينَ مَـنْ

يَتعاظَمُ مِنْ خَلقِكَ، ولهذا قالتِ الجِنُّ لما سَمِعوا القرآنَ وأسلَموا: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [الجن: ٣]. وذلِكَ أنَّ العَظيمَ سُبحانَه لا يُمكنُ أن يكونَ له صاحَبَةٌ ولا ولدٌ، لكَمالِ غِناهُ وعُلُوِّ عَظَمَتِه.

ـ ولا إله غيرُكَ:

خَتَمَ بالشَّهادَةِ التي هيَ ثمرَةٌ ونتيجةٌ للعِلمِ بمعنى ما سَبَقَ، وما يَليقُ بالله جلَّ وعلا وما لا يَليقُ بِهِ، كما يُخْتَمُ بذلك التَّسبيحُ والحمدُ والتكبيرُ؛ لأنَّ هذه الكلمةَ ـ كلمةَ التَّوحيدِ ـ هِيَ الكلمةُ المعَبِّرَةُ عن التَّسبيحِ والحمدِ والتَّكبيرِ النابِعيْنِ مِنَ المعرفةِ الصَّحيحَةِ بالله كما تقدَّمَ.

أهميةُ هذا الذِّكرِ في استِفْتاحِ الصّلاةِ:

فهذا الذكْرُ ـ كما تَبيَّنَ ـ مِنْ أهَمِّ الأذكارِ التي تملأُ القَلْبَ محبّةً وتَعظيماً لله، وتُطَهِّرُهُ مِن كُلِّ تَعَلُّقٍ بغيرِه، وتُوجِبُ له الانْقِيادَ الكامِلَ له سبحانه، مما يُثْمِرُ الخشوعَ له جلَّ وعلا معَ خُضوعِ الجوارِحِ والأركانِ والاسْتِسْلامِ له ظاهراً وباطِناً، **ولهذا ناسَبَ أن يُجعَلَ في مُقَدِّمَةِ وُقوفِ العَبدِ بَينَ يَدَي الله ربِّهِ ومولاه لِيَفْتَحَ به أبوابَ الرَّحمةِ والخيرِ، ويُطَهِّرَ به القلبَ مما يكونُ عَلِقَ به من الرَّيْنِ والسَّوادِ**، فَيستَقْبِلَ أنوارَ الربِّ سبحانه وتعالى وما يُفيضُه عليه في صَلاتِه من أنواعِ الرَّحمةِ والسَّكينةِ والأنسِ والتَّلَذُّذِ بالوقوفِ بينَ يَدَيْهِ.

وقد سَبَقَ التَّنبيهُ أنَّ كثيراً من أهْلِ العِلْمِ اسْتَحَبّوا الاستِفْتاحَ بهذا الدعاءِ، وصحَّ عنْ عُمَرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّه كان يستَفْتِحُ به في مَقامِ

النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويجهَرُ به ويُعَلِّمُهُ للنّاسِ، وقالَ الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أمّا أنا فأذهَبُ إلى ما رُوِيَ عن عُمَرَ، ولو أنَّ رجلاً اسْتَفْتَحَ بِبَعْضِ ما رُويَ عن النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منَ الاستِفْتاحِ كانَ حَسَناً).

قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الزّادِ: (وإنّما اخْتارَ الإمامُ أحمدُ هذا لِعَشَرَةِ أوجُهٍ قد ذَكَرْتُها في مواضِعَ أخَرَ، منها: جَهْرُ عُمرَ به يُعلِّمُهُ الصحابةَ.

ومنها: اشْتِمالُهُ على أفْضَلِ الكلامِ بعدَ القرآنِ، فإنَّ أفْضَلَ الكلامِ بعدَ القرآنِ: سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إله إلا اللهُ، والله أكبرُ، وقد تَضَمَّنَها هذا الاستِفْتاحُ مَعَ تَكبيرَةِ الإحرامِ.

ومنها: أنه استِفْتاحٌ أُخلِصَ لِلثَّناءِ على الله، وغيرُه مُتَضَمِّنٌ للدُّعاءِ، والثَّناءُ أفْضَلُ مِنَ الدُّعاءِ، ولهذا كانتْ سورةُ الإخلاصِ تعْدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ، لأنّها أُخْلِصَتْ لِوَصْفِ الرَّحمنِ تبارَكَ وتعالى، والثّناءِ عليه، وكانت (سُبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إله إلا الله، واللهُ أكبرُ) أفضلَ الكلامِ بعدَ القرآنِ، فيَلْزَمُ أنَّ ما تَضَمَّنَها مِنَ الاستِفْتاحاتِ أفضلُ مِنْ غيرِه من الاستفتاحاتِ.

ومنها: أنَّ غَيرَه مِنَ الاستِفْتاحاتِ عامَّتُها إنّما هيَ في قِيامِ اللَّيلِ في النَّافِلَةِ، وهذا كانَ عُمَرُ يُعَلِّمُه بفِعْلِهِ، ويُعَلِّمُهُ الناسَ في الفَرضِ.

ومنها: أنَّ هذا الاستِفْتاحَ إنْشاءٌ للثَّناءِ على الربِّ تَعالى، مُتَضَمِّنٌ للإخبارِ عَنْ صفاتِ كَمالِهِ، ونُعوتِ جَلالِهِ، والاستفتاحُ بـ (وجَّهْتُ وجْهي) إخبارٌ عَن عبودِيَّةِ العَبدِ، وبَينَهما مِنَ الفَرْقِ ما بينَهُما.

ومنها: أنَّ مَنِ اخْتارَ الاستِفْتاحَ بـ (وجَّهْتُ وجْهِي) لا يُكَمِّلُهُ، وإنما يأْخُذُ بِقِطْعَةٍ مِنَ الحديثِ، ويَذَرُ باقِيَه، بخلافِ الاستِفْتاحِ بـ (سبحانَكَ اللَّهُمَّ وبِحَمْدِكَ) فإنَّ مَنْ ذَهَبَ إليهِ يَقولُه كلَّه إلى آخِرِه). انتهى كلامُه.

وقدْ طالَتْ هَذه الوقفةُ كَثيراً ـ أحِبَّتي في الله ـ فَمَعْذِرَةً، ولكِنَّهُ التَّيْسيرُ مِنَ الله تَعالى الموفِّقِ لجَميعِ الخيراتِ، وعَسَى أن يكونَ في ذلكَ فائدةٌ وتَذْكِرَةٌ ومَوْعِظَةٌ لقلوبِنا الغَافِلَةِ عَنِ الله؛ المظلِمَةِ بِسَوادِ الجَهْلِ والذُّنوبِ والآثامِ، واللهُ المستعانُ.

الوقفةُ الثَّامِنَةُ

أدْعِيَةُ الاستِفْتاحِ

(٣)

وَقْفَتُنا هذه ـ أحبَّتي في الله ـ مَعَ **النَّوعِ الثَّالِثِ** مِنْ أنواعِ أدْعِيَةِ الاستِفْتَاحِ التي كان يَفْتَتِحُ بها النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ صلاتَهُ، بَعدَ بَيانِ **النَّوْعِ الأوَّلِ**؛ والذي مَدارُهُ على الطَّلَبِ وسُؤالِ الرَّبِّ سبحانَهُ الرحمةَ والبُعْدَ عن الذَّنبِ والعِصيانِ، **والنوعِ الثَّاني**؛ الذي مَدارُهُ على الثَّناءِ على الله ﷻ بِما يَليقُ به سبحانَهُ مِنْ صِفاتِ الجَمالِ والكَمالِ والعَظَمَةِ والجَلالِ.

وأما النَّوعُ الثَّالِثُ الذي بينَ أيدِينا: فمَدارُهُ على اعْتِرافِ العَبْدِ بما يجبُ عليهِ، وبَيانِ فَقْرِهِ وعُبُودِيَّتِهِ لله، وعَدَمِ الاستغناءِ عنه طَرْفَةَ عَيْنٍ، وأنَّ حَاجَتَهُ إلى ربِّهِ ومولاهُ أعظَمُ مِنْ حَاجَتِهِ لأيِّ شيءٍ سواهُ.

روى مسلمٌ في صَحيحِه عَنْ عَليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **قالَ**: كانَ رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إذا قامَ إلى الصَّلاةِ قالَ: «**وجَّهْتُ وَجْهِيَ للَّذي فَطَرَ السَّماواتِ والأرضَ حَنيفاً ومَا أنا مِنَ المشرِكِينَ، إنَّ صلاتي ونُسُكِي ومَحْيَايَ ومَمَاتي لله ربِّ العالمينَ، لا شريكَ له وبِذلِكَ أُمِرْتُ وأنا أولُّ المسلمينَ. اللهُمَّ أنتَ الملِكُ لا إله إلا أنتَ، أنتَ ربِّي وأنا عبدُكَ ظَلَمْتُ نَفْسِي واعْتَرَفْتُ بذَنْبي، فاغْفِرْ لي ذُنوبي جَميعاً، إنه لا يَغْفِرُ الذُّنوبَ إلا**

أنتَ، واهْدِني لأَحْسَنِ الأخْلاقِ، لا يَهدِي لأَحْسَنِها إلا أنتَ، واصْرِفْ عَنّي سَيِّئَها، لا يَصْرِفُ عَنّي سَيِّئَها إلا أنتَ، لبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ، والخيرُ كُلُّهُ في يَدَيْكَ، والشّر ليسَ إليكَ، وأنا بِكَ وَإليكَ، تَبارَكْتَ وتَعالَيتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وأتوبُ إليكَ».

مِنَ المعاني والحِكَمِ في هذا الدُّعاءِ:

ـ وجَّهْتُ وَجْهِيَ:

أي: **تَوَجَّهْتُ** إليكَ رَبي بالعِبادَةِ؛ فَصَرفْتُ وَجْهِي وعَمَلِي ونِيَّتي إليكَ، وأخْلَصْتُ قَصْدِي ووِجْهَتِي لكَ وحدَكَ يا الله.

وقدْ سَبَقَ التَّنبيهُ أنَّ العَبْدَ إذا تَوَجَّهَ بوَجْهِهِ إلى بَيتِ الله الحرامِ؛ فَلْيَحْرِصْ على تَوجِيهِ قَلْبِهِ لله تعالى، فهو الغايَةُ والمقصَدُ، وهُوَ **الأَوَّلُ والآخِرُ**، فكَما أنَّ أَوَّلَ كُلِّ شَيءٍ مِنَ الله، فاحْرِصْ على جَعْلِ كُلِّ شيءٍ لله.

ـ فَطَرَ السَّماواتِ والأرضَ:

أيْ: **خَلَقَهُما** مِنْ غَيرِ مِثالٍ سَبَقَ.

وأتى بهذِهِ الصِّفَةِ لِيَدُلَّ على سَبَبِ هذا التَّوَجُّهِ وأَنَّهُ لا يَليقُ أنْ يكونَ إلا لِلخَالِقِ البَارِئِ المصَوِّرِ الرَّبِّ الواحِدِ الأَحَدِ الأَوَّلِ الآخِرِ، سبحانَهُ وتَعالى.

ـ حَنِيفاً:

أيْ: **مَائِلاً** عَنْ كُلِّ دِينٍ بَاطِلٍ وَمِلَّةٍ كَافِرَةٍ إلى دِينٍ واحِدٍ وهوَ الإسْلامُ ومِلَّةٍ واحِدَةٍ هِيَ مِلَّةُ إبراهِيمَ عَلَيهِ السَّلامُ، حَنيفاً مُسْلِماً وما كانَ مِنَ المشرِكينَ، ولهذا قالَ:

ـ مُسْلِماً:

أي: **مُسْتَسْلِماً** مُنْقَاداً مُطِيعاً لله ظَاهِراً وبَاطِناً، وهذهِ هِيَ حَقيقَةُ الإسْلامِ

ـ ومَا أنا مِن المشـرِكِينَ:

فِيها **تَأكِيدٌ** لمعنى مَا سَبَقَ، وتَعْرِيضٌ بمنْ خَالَفَ ذلكَ فَلَـمْ يَتَوَجَّـهْ لله ولم يُسَلِّمْ نَفْسَهُ لَـهُ، بَـلْ تَوَجَّـهَ لِغَـيرِهِ وخَـالَفَ أمْـرَهُ وعَصَـاهُ؛ بأنَّـه مِـنَ المشـرِكِينَ المخَالِفِينَ لِمِلَّةِ خَيرِ النَّبِيِّينَ على قَدْرِ إعراضِهِ وعِصْيانِهِ.

ـ إنَّ صَلاتي ونُسُكِي...:

الصلاةُ معروفَةٌ ويَدْخُلُ فيها جَميـعُ أنْـواعِ العِبـاداتِ والثَّنـاءِ عـلى الله سبحانَهُ وتَعالى، **والنُسُكُ** هُوَ الدِّينُ والعِبادَةُ والتَقَرُّبُ، ويُخَصُّ بأنْواعٍ مِنَ العِبادَةِ كالحَجِّ والنَّحْرِ..

وهذه الجملةُ خَطِيرَةٌ جِداً، فَفِيها إقْرارُ العَبْدِ على نَفْسِهِ وهُوَ بَـينَ يَـدَيْ ربِّهِ سبحانَه أنَّ كُلَّ حَياتِه وجَميعَ أعْمالِهِ وعِبادَتَهِ بَلْ ومَوتَه، كُلُّ ذَلِكَ يَجْعَلُهُ لله وفي سَبيلِ الله.

فإيّاكَ أخِي ـ وفَّقَني اللهُ وإيَّاكَ ـ أنْ يُكَذِّبَ قَلبُـكَ لِسَـانَكَ، وأن يَعَلَـمَ اللهُ مِنكَ هذا الكَذِبَ، واحْرِصْ على أنْ تَكونَ حَياتُكَ هكذا حَقِيقَـةً، وأنْ لا تَجْعَلَ شَيْئاً مِنْ حَياتِكَ إلا لله، ولا تَبْتَغِي شَيئاً دونَ الله سبحانَه.

وهذا ـ للأَسَفِ ـ خِلافُ مَا نَحنُ عَليهِ، فَهَلْ أصْبَحَتْ حياتُنا وأعْمالُنـا وأمْوالُنا وأنفُسُنا.. لله سبحانَه لا لِسِواهُ؟؟ واللهُ المستعانُ.

ـ لا شـريكَ لَهُ:

أيْ: لا أجْعَلُ لهُ شـريكاً أبتَغِي رضاهُ فأجْعَـلُ عَمَـلِي لَـهُ، بَـلْ أجْعَـلُ عَمَلِي كُلَّهُ لَهُ سُبحانَهُ لا شـريكَ لَهُ.

ـ وبِذلِكَ أُمِرْتُ:

أيْ: **بالتَّوْحِيدِ الكَامِلِ الشَّامِلِ للإِخْلاصِ قَوْلاً وعَمَلاً واعْتِقَاداً.**

ـ وأنا أوَّلُ المسلِمينَ:

أيْ: أوَّلُ المسْتَسْلِمِينَ لله ظَاهِراً وبَاطِناً، الطَّائِعِينَ لأوامِرِه. ففِيهـا بيـانُ سُـرعَةِ المبادَرَةِ والامْتِثَالِ.

ـ اللهم أنتَ الملِكُ:

أيْ: أنتَ **وحْدَكَ** الملِكُ المالِكُ الحقيقِيُّ لجميعِ المخلوقاتِ، **مُلْكـاً تَامـاً** يَتَضَمَّنُ كَـمالَ قُـدرَتِكَ وتَصَـرُّفِكَ ومَشـيئَتِكَ في مُلكِـكَ، فأنـتَ مَالِـكُ السماواتِ والأرضِ وما بيـنَهما، وأنـتَ المالِـكُ لنفْســي، وبِـكَ هِـدايَتي وتَوفيقي ونَفعِي وضُـرّي وحَياتي ومَوتي..

ـ لا إلَهَ إلا أنتَ:

أُسَلِّمُ له نَفْسـي وأسأَلُه إصْلاحَ شَأني وأَخضَعُ له مُتَبَرِّءاً مِنْ حَولي وقُوَّتي.

ـ أنتَ رَبِّي:

الذي خَلقْتَني ورَبَّيْتَني، **فالرَّبُّ هُو الذي يُـرَبِّي العِبـادَ بـما يُصْـلِحُهُم،** ويُهَيِّئُ لهم معايِشَهُم وهِدايَتَهُم وأسبابَ سَعادَتهم وفَلاحِهِم.

ـ وأنا عَبدُكَ:

مُعترِفٌ بِتَذَلُّلي وفَقْري وضَعفي وحاجَتي إليكَ، وأَنَّكَ مَالِكي ومُـدَبِّرُ أمورِي، وأنَّ حُكمَكَ نافِذٌ فيَّ، وأنني سَأعْبُدُكَ وأخضَعُ لكَ طوال عُمْري وقَدْرَ استطاعَتي.

ـ ظَلمتُ نفسـي واعْتَرَفْتُ بذنبي:

فأنا مُعتَرِفٌ بتَقْصيري وتَفْريطي وعَدَمِ أداءِ ما يَجِبُ مِن حُقوقِكَ عَلَيَّ، ظَلَمْتُ نَفسـي بالذُّنوبِ والمعاصِـي بِسبَبِ جَهْلي وغَفْلَتي، وأنـا مُعـتَرِفٌ بذلِكَ مُقِرٌّ به على نفسي.

وقدَّمَ هذا الاعتِرافَ بَيْنَ يَدَي السُّؤالِ أدَباً مَعَ الله واعْتِرافـاً بالتَّقصـيرِ؛ ليكونَ أدْعَى إلى الإجابَةِ، كما قالَ آدمُ وزوجُه: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣].

وكما عَلَّمَنا النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دُعـاءِ سَـيِّدِ الاسـتِغْفارِ: «**أَبـوءُ لـكَ بِنِعْمَتِكَ عليَّ، وأبوءُ بذنبي، فاغفِرْ لي..**» وهو في البخاريِّ وغيرِه.

ـ فاغْفِرْ لي ذُنوبي جميعاً إنه لا يَغفِرُ الذنوبَ إلا أنتَ:

هذا **غَايَةُ ما يُريدُهُ المسلمُ**؛ أنْ يَغفِرَ له ربُّه وأنْ يُصْلِحَهُ للـدُّخولِ عليـه في جَنَّتِهِ.

ـ واهْدِني لأحْسَنِ الأخلاقِ لا يَهدِي لأحْسَنِها إلا أنتَ:

أي: **أرْشِدْني** لأحْسَنِ الأخْلاقِ والأقْوالِ والأعمالِ، **ووَفِّقْني** للتَّخَلُّـقِ بها ظاهراً وباطناً، وهذا أعظمُ ما ينالُه العبدُ؛ لأنَّه **يَتَضَمَّنُ صَلاحَ الأقْوالِ**

والأعمالِ.

وقد مَدَحَ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ فقالَ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم: ٤]، وقالتْ عائِشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما سُئِلَتْ عن خُلقِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كانَ خُلُقُهُ القرآنَ**» كما في صَحِيحِ مُسْلمٍ، وقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنّما بُعِثْتُ لأتَمِّمَ صالِحَ الأخْلاقِ**»، وهوَ عندَ أحمدَ بسَنَدٍ صَحيحٍ.

فصَلاحُ الأخلاقِ والهدايةُ لأحْسَنِها يتضَمَّنُ فِعلَ جَميعِ الخيراتِ وتَرْكَ جَميعِ المنكَراتِ.

ـ واصْرفْ عَنّي سَيِّئَها إنّه لا يَصرِفُ سَيِّئَها إلا أنتَ:

هذا مُتَمِّمٌ لما قَبْلَه.

ـ لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ:

معنى لَبَّيْكَ: أنا مُقيمٌ على طاعَتِكَ إقامةً بعدَ إقامةٍ، مُستَمِرٌّ على ذلكَ. والعَرَبُ تقولُ: لَبَّ بالمكانِ وأَلَبَّ به، إذا أقامَ.

ومعنى سَعْدَيْكَ: متابعةً لدينِكَ متابَعةً بعدَ متابَعةٍ، أيْ: أنا مُتابعٌ لِدينِكَ وأمرِكَ لا أُخالِفُه، مُسْتَمِرٌّ على ذلكَ دائِماً، ومنهُ السَّعادَةُ: وهِيَ حُصولُ العَبْدِ على ما يُوافِقُه ويُتابعُ مَصلحَتَه وهَواهُ.

ـ والخيرُ كلُّه في يَدَيْكَ:

أي: جَميعُ الخيراتِ في الدُّنيا والآخِرَةِ في يَدَيْكَ وحدَكَ، وتَأتي منكَ وحدَكَ، سُبحانَكَ لا شريكَ لكَ في شَيءٍ مِن ذلكَ.

ـ والشّـر ليسَ إليكَ:

أيْ: لا يُنسَبُ الشَّـر إليكَ، ولا يَكونُ مِنكَ؛ لأنَّ مَـنْ كانـتْ أسماؤُه كلُّها حُسنى، وأوصافُه كلُّها كمالاً، وأفعالُه كلُّها حِكَماً ومصلَحةً، وأقوالُه كلُّها صِدْقاً، يَستَحيلُ دُخولُ الشَّـر في أسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه وأقوالِه، **وإنما يَدخُلُ الشـرُّ في مخلوقاتِه.**

وهذا الشـرُّ الموجـودُ في مخلوقاتِـه جَعَلَـه الله فيهـا لمـا فِيـهِ مِـنَ الخـيرِ المطلوبِ، فَلَمْ **يَخْلُقِ اللهُ شـراً محضاً أبداً**، بل هُوَ شَـرٌّ مِنْ وجْهٍ وخـيرٌ مِـن وجهٍ آخرَ، فخَلَقَهُ الله لما يُريدُ مِنَ الخيرِ الذي فيه، ولهذا قالَ تعالى في سُورَةِ الاستعاذَةِ: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أي: مِنْ شَـرِّ مَخْلوقاتِه.

ومِن تَمامِ العِلمِ باللهِ والأدبِ معه: أنْ لا يُنْسَبَ إليهِ الشّـرُّ أبداً، كما قالَ إبـراهيمُ الخليـلُ عليـهِ وعـلى نبيِّنـا الصّـلاةُ والسّـلامُ: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٠]، **فَنَسَبَ المـرضَ إلى نفسِـهِ والشـفاءَ لله مـعَ أنَّ الكُلَّ من عندِ الله وبتقديرِهِ، وذلكَ لِتَمامِ أدَبِهِ مَعَ الله وكَمالِ عِلمِه بالله.**

وقدْ أخبرَ اللهُ تعالى عـن الجـنِّ أنهـم قـالوا: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الجن: ١٠]، **فـأظْهَرُوا فاعِـلَ الخـيرِ** وأنَّـه اللهُ تعالى، **وأضْمَروا فاعِلَ الشَّـر** فلَمْ ينسِبُوه إليه سبْحانَه تَأَدُّباً.

وهذا ما أدَّبَنا به تعالى في سورَةِ الفَاتحةِ أُمِّ القـرآنِ عنـدَما قـال: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾، فتَأَمَّلْهُ..

ـ وأنا بِكَ وإليْكَ:

بمعنـى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، أيْ: أنـا لا أتحَـرَّكُ إلا بـكَ، ولا

تَوفِيقَ لي إلا بِـكَ، ولا إعانَـةَ لي إلا مِنـكَ، ولا انْتِسـابَ ولا انْـتِماءَ لي إلا إليكَ، ولا أجعَلُ عملي إلا لكَ..

ـ تبارَكْتَ وتَعالَيْتَ:

أي: **عَظُمَ خَيرُكَ وتَكاثَرَ وثَبَتَ واسْتَقَرَّ**، وتَعالَيتَ عن كلِّ سوءٍ وعَيْبٍ ونقصٍ.

والبَرَكَةُ هي: اجْتِماعُ الخيْراتِ وكَثْرَتُها وثُبوتُها واسْتِقْرارُها ورِفْعَتُها كما سَبَقَ بيانُه.

ـ أستغفرُكَ وأتوبُ إليكَ:

خَتَمَ بالاستِغْفارِ كما بدأ به، وبالتوبَةِ؛ **لأنَّ التّوبـةَ والاسـتِغْفارَ هـو مـا يجبُ أن يكونَ عليه العبدُ دائماً إلى المماتِ لا يُفارِقُه ذلـك ولا في لحظـةٍ مـن لَحَظاتِه**، فبِذلِكَ يَنالُ الخـيرَ والنّجـاةَ والفَـلاحَ في الـدُّنيا ويـومَ لقـاءِ ربِّ الأرضِ والسماءِ العزيزِ الغفّارِ.

وبهذا يكونُ هذا الدعاءُ قدْ تَضَمَّنَ حاجَةَ العَبدِ وفَقْرَهُ إلى ربِّه ومالِكِـهِ ومَوْلاه، وما يجِبُ عليهِ تجاهَ ربِّه مِنَ التّوبَةِ والاستِغْفارِ والعِبادةِ والطّاعـةِ، التي مَن حقَّقَهـا طَهَّـرَ اللهُ قلبَـه وأَصْـلَحَ نَفْسَـهُ وأَخْلَـصَ نِيَّتَـهُ، فصَـلَحَ للدُّخولِ على الله والوقوفِ بينَ يَديْهِ، ونالَ خُشوعَ القلبِ لربِّـه ومَعبـودِهِ ومَولاه.

واللهُ أعلَمُ وصلَّى اللهُ على نبيِّنا محمّدٍ وعلى آلِه وصَحْبِه.

الوقفةُ التَّاسِعَةُ

أدْعِيَةُ الاستِفْتاحِ

(٤)

مِنَ الأدْعِيَةِ التي وَرَدَتْ في الاستِفْتاحِ أيضاً غير ما سَبَقَ:

ـ ما رواه مسلمٌ في صَحيحِهِ مِن حديثِ أنسٍ عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولُه: «**الحمدُ لله حَمداً كثيراً طيباً مُبارَكاً فيه**».

ـ ما رواه مُسْلمٌ أيضاً من حديثِ ابنِ عمرَ مرفوعاً: «**اللهُ أكبرُ كبيراً، والحمدُ لله كثيراً، وسبحانَ الله بكرةً وأصيلاً**».

ـ ما رواه أبو داودَ من حديثِ عَوْفِ بنِ مالكٍ مرفوعاً: «**اللهُ أكبَرُ الله أكبر الله أكبر، ذو الملكوتِ والجبروتِ والكبرياءِ والعَظَمَةِ**».

ـ ما رواه مسلمٌ من حديثِ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنَّ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يفتَتِحُ صلاتَه من اللّيلِ بقولِه: «**اللهم ربَّ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، فاطرَ السماواتِ والأرضِ، عالمَ الغيبِ والشهادةِ، أنتَ تحكمُ بينَ عبادِكَ فيما كانوا فيه يختلفونَ، اهْدِني لما اخْتُلِفَ فيه من الحقِّ بإذْنِكَ، إنّكَ تَهْدِي مَن تَشاءُ إلى صِراطٍ مُستقيمٍ**».

فنَقِفُ مع هذهِ الأدْعِيَةِ وقْفَةً يَسيرةً إن شاءَ الله نُبيِّنُ فيها ما زادَ عن المعاني في الأدعيةِ السابقةِ، فنقول وبالله التوفيقُ:

۞ الدعاءُ الأوَّلُ:

سبقَ معنى الحمدِ بفَضْلِ الله تعالى، ومعنى (**طَيِّباً**) أيْ: خالِصاً مِن الرِّياءِ والسُّمْعَةِ وكلِّ ما يَشُوبُهُ من النَّقْصِ، ولهذا كانتِ الجنّةُ طيّبةً دارَ الطّيّبينَ، وكانَ المالُ الحلالُ هوَ المالَ الطيبَ، وكانَ المؤمِنُ طيّباً، إلى غَيْرِ ذلكَ..

و (**مُبارَكاً فيه**) أي: كثيرَ الخيرِ، كما سبقَ في مَعْنى البَرَكَةِ.

۞ الدُّعاءُ الثاني:

سبقَ معنى التّكبيرِ وأنَّ الله تعالى أكبرُ مِن كلِّ شيءٍ في ذاتِه وصِفاتِه وأسْمائِهِ، و (**كبيراً**) أيْ: أكْبَرُ كَبيراً أو تكْبيراً كبيراً، فهو تأكيدٌ بالمصْدَرِ للتّكبيرِ المذْكورِ.

و (**الحمدُ لله كثيراً**) سبقَ مَعنى الحمدِ وما ينبغي لله تعالى منه.

وسُبْحانَ الله وبحَمْدِه بُكْرَةً وأَصِيلاً:

أيْ: أوّلَ النّهارِ وآخِرَه، قَبْلَ طُلوعِ الشّمسِ وقَبْلَ الغُروبِ، كما قالَ تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]، **وخصَّ اللهُ تعالى هَذَينِ الوَقْتَينِ بالتَّسبيحِ مِن بينِ الأوقاتِ**؛ لأنّهما وَقْتانِ لرَفْعِ الأعْمالِ كما ثبَتَ عن رَسولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهما فاصِلانِ بَينَ اللّيلِ والنَّهارِ تحْمِلُ الملائِكَةُ فيهما الأعْمالَ إلى الله تعالى، فمِنَ المناسِبِ أنْ لا يُصَلَّى فيهما بلْ يكونُ فيهما التَّسبيحُ حتى تَنتَهِيَ هذه المرحلةُ وتبدأَ مرحلةٌ أخرى من العَمَلِ.

مع ما في تَخْصيصِ هذَيْنِ الوقْتَين **باجْتِماعِ مَلائِكَةِ اللّيلِ والنّهارِ**، ولِتَنْزِيهِ الله تعالى عن التغيُّرِ في أوقاتِ تغيرِ الكَونِ، والله أعلم.

الدُّعاءُ الثالثُ:

ـ **ذو الملَكوتِ**: فَعَلوتٌ مِنَ المُلْكِ، وهُو صاحبُ المُلْكِ الواسِعِ الكامِلِ الشّاملِ.

ـ **الجَبَروتُ**: مِنَ الجَبْرِ، وهوَ القَهْرُ والغَلَبةُ والكبرياءُ.

ـ **الكِبرياءُ**: هُوَ العَظَمةُ والمُلْكُ والتّكَبّرُ، وعَطْفُ (**العَظَمَةِ**) عليهِ عَطْفُ تَفْسيرٍ كما قالَ البَعْضُ، أو هما عِبارَةٌ عنْ كَمالِ الذاتِ وكمالِ الوُجودِ، والله أعلم.

الدعاءُ الرابعُ:

خصَّ هؤلاءِ الثلاثةِ من الملائكةِ بالذِّكرِ لإظهارِ كرامتِهم وشَرَفِهم عندَ الله سبحانه وتعالى، فهم الموكَّلونَ بأمورِ العِبادِ مِن بينِ الملائكَةِ وبهم تَنْتَظمُ هذه الأمورُ.

فجبريلُ عليهِ السّلامُ هوَ الموكَلُ بالوَحْيِ وإنزالِ الكتبِ السَّماويةِ على الأنبياءِ، وهذا يتضَمّنُ أعظَمَ الخيرِ والرِّزقِ المعنويِّ الذي بهِ تَحْيا القُلوبُ.

وميكائيلُ عليهِ السّلامُ هو الموكلُ بالقَطْرِ والنَّباتِ وأرزاقِ بني آدمَ المادّيّةِ.

وإسْرافيلُ عليهِ السّلامُ هوَ الموكَلُ باللَّوحِ المحْفوظِ وبالنَّفْخِ في الصُّورِ يومَ القيامَةِ، معَ كوْنِهِ مِن حملَةِ عَرْشِ الربِّ جلَّ وعلا.

ـ عالِمَ الغَيْبِ والشّهادةِ:

أي: ما غابَ عنِ العِبادِ وما شاهَدُوه وظَهَرَ لهم.

ـ أنتَ تحْكُمُ بينَ عِبادِكَ..:

في جميعِ أمورِ الدِّينِ والدُّنيا، فتَهْدي مَنْ تَشاءُ وتُضِلُّ مَن تشاءُ، وتُعذِّبُ من تشاءُ وتتوبُ على مَن تَشاءُ، وتُعِينُ مَن تشاءُ وتَخْذُلُ مَن تشاءُ، وكلُّ ذلكَ بعِلْمٍ وحِكمَةٍ منكَ عَظيمَيْنِ، ولهذا قَدَّمَ قولَه (**عالِمَ الغَيْبِ والشّهادَةِ**) **ليُبيِّنَ أنَّ ما يَفْعَلُه اللهُ تعالى بخَلْقِه ليسَ إلا مُقتَضى الحكْمَةِ والعِلْمِ مِنه سُبْحانَه.**

ـ اهْدِني لما اختُلِفَ فيه منَ الحقِّ بإذْنِكَ..:

سألَ الهدايةَ إلى الحقِّ والتّوفيقَ لمعرفَتِهِ واتّباعِه، فالأمرُ كلُّه يَرْجِع إليه سبحانه، ولا هِدايةَ إلا بإذْنِه، لا بِحَوْلِ العَبْدِ وقُوّتِه.

وهذا الدُّعاءُ مِن أنفَعِ الأدْعِيَةِ التي تُخْرِجُ العبدَ من الحَيْرَةِ والضَّياعِ عندَ وُجودِ الاخْتِلافِ وعَدَمِ وُضوحِ الحقِّ مِنَ الباطِلِ لشِدَّةِ الفِتْنَةِ وكَثْرَةِ التَّلبيسِ، فيحتاجُ إليهِ العَبْدُ أعظَمَ احْتِياجٍ ليَهتَدِيَ إلى الحقِّ ويُوَفَّقَ إليهِ، واللهُ المسْتَعانُ.

الوقفةُ العاشِرةُ

الاستعاذَةُ

ما زِلنا ـ أحبَّتي في الله ـ مع الصَّلاةِ، قُـرَّةِ عُيـونِ المـؤمنينَ الصّـادِقينَ، وراحةِ نُفوسِهِم مِنْ هُموم هذه الدُّنيا وغُمومِها وآلامِها وأحْزانِهـا، حيـثُ يَقِفُونَ بينَ يَدَيْ ربِّهم خاشِعينَ ذَليلِينَ ذاكِرينَ مُتَذَكِّرينَ لِوقُوفِهِم بينَ يَديْهِ يومَ الدِّينِ، متَلَذِّذينَ بخِدْمَتِه وذِكْرِه طارِحينَ مَشـاكِلَهم ومَشَـاغِلَهم بـلْ ودنياهُم وراءَ ظهورِهم.

فيجبُ علَينا ـ إنْ أردْنا ذلك ـ أنْ نحرِصَ على أدائِها كما أرادَ الله، وكما بينَ رسولُه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ظاهِراً وباطِناً، **فإنَّ حَظَّ العَبْـدِ يـومَ القِيامَـةِ عـلى قَدْرِ حظِّهِ من الصّلاةِ في الدُّنيا** كما قالَ الإمامُ أحمدُ رحمه الله تعالى، بمعنى: أنهم على قَدْرِ راحَتِهِم فيها وطمأنِينَةِ القَلْبِ حالَ أدائِها على قَدْرِ ما تكونُ راحَتُهم وفرْحَتُهم وسُـرورُهم بلِقاءِ ربِّهم.

وكنّا ذكَرْنا في الوَقَفاتِ السّابِقَةِ: كيفَ يستَعِدُّ العبـدُ للصـلاةِ مُتطَهـراً من جميعِ الذنوبِ والآثامِ، ساتِراً لعورَتِه وذُنوبِهِ ومَعاصِيه، مُوَجِّهاً وَجْهَه وقَلْبَهُ جِهَةَ بيتِ الله وربِّ البيتِ سبحانَه وتعالى، مُسْتَكيناً بينَ يَديْهِ واقِفـاً وقوفَ العبدِ الذّليلِ بينَ يَدَيْ سَيِّدِه ومولاه، مُتذكِّراً وقوفَهُ بينَ يدَيْـهِ يـومَ الدّينِ، رافِعاً يَدَيْهِ مُسْتَسْلِماً لربِّه ظاهراً وباطِناً، مُكَبِّراً ربَّه مُعَظِّماً له تَعظـيماً

طارِداً مِنْ قَلْبِهِ كلَّ كَبيرٍ وعَظيمٍ دونَ الله، مُعْتَرِفاً بعظَمَتِهِ وحدَهُ وعُبودِيَّتِهِ له وحدَه.

ثمّ يستَفْتِحُ صلاتَه بالثّناءِ على الله تعالى بما يَليقُ به مِن صِفاتِ الجلالِ والكَمالِ والعَظَمَةِ مُعترِفاً بعبودِيَّتِهِ وفَقْرِهِ وحاجَتِه إلى ربِّه وعَدَمِ استِغْنائِهِ عنه طَرْفَةَ عَيْنٍ، وأنَّ كلَّ خيرٍ فيه فهوَ منه سبحانَه، وكلَّ شَرٍّ فيه فمِنْ نفسِه والشّيطانِ، مُتَضَرِّعاً إليهِ ألا يَكِلَهُ إلى نفسِهِ طَرْفَةَ عينٍ أبداً، مُقِراً بما يجِبُ عليهِ مِنَ العُبوديّةِ والاستِجابَةِ له والإقامَةِ على دينِهِ والموافَقَةِ لشرعِهِ، سائِلاً إيّاه أنْ يَعْفُوَ عَنْ تقْصِيرِه وزَلَّتِهِ، وأنْ يُبْعِدَ عنه الذّنوبَ وآثارَها كما باعَدَ بينَ المشْرقِ والمغْرِبِ، وأنْ يُطَهِّرَ قَلْبَه مِن جميعِ الأدْرَانِ، وأنْ يُهَيِّئَهُ لعِبادَتِه وتوحِيدِه.

فإذا انْتَهى العَبْدُ مِن جَميعِ ذلكَ، شُرِعَ له قراءةُ الفاتحةِ **مُفْتَتِحاً قِراءَتَه بالاستِعاذَةِ** بالله منَ الشّيطانِ الرّجيمِ، مُستجيباً لأمْرِ ربِّه القائِلِ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل: ٩٨]، مُقْتَدِياً برَسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلِكَ.

وقد كانَ عليهِ الصلاةُ والسّلامُ يَستَعِيذُ بقولِه: «**أعوذُ بالله مِنَ الشّيطانِ الرَّجيمِ**» وربما قالَ: «**أعوذُ بالله منَ الشّيطانِ الرَّجيمِ منْ نَفْخِهِ ونَفْثِهِ وهَمْزِهِ**».

عَداوَةُ الشّيطانِ للإنسانِ وكيفِيّةُ مُواجَهَتِها:

والاستِعاذَةُ بالله مِنَ الشّيطانِ الرَّجيمِ لها أهميةٌ كَبيرةٌ خاصّةً عندَ قراءةِ القرآنِ، وذلكَ أنَّ **الشّيطانَ هو عَدُوُّنا الحقيقيُّ** الذي لا أعْدَى علينا مِنْه ولا أَخطرَ علَيْنا منه، وهو الذي نَذَرَ نفْسَهُ لهذه العَداوةِ، فلا يهنأُ له عيشٌ

حتى يُغوِيَ بني آدمَ ويخْرِجَهُم عنِ الصّـراطِ المستقيمِ.

وقد أظْهَرَ اللَّعينُ هذه العَداوةَ ولمْ يُخْفِها، وأعْلَنَ بها بكُلِّ جُرأةٍ ووقاحةٍ أمامَ ربِّه جلَّ وعلا قائِلاً: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

فتأمَّلْ كيفَ **أَكَّدَ هذهِ العَداوةَ وإرادَةَ الإغْواءِ بالقَسَمِ.**

وقالَ أيضاً: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠) ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠].

وذكرَ سبْحانَه عنْهُ أنّه قالَ: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ (١٧) ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

وكمْ حَذَّرَنا اللهُ ربُّنا ـ عِبادَ الله ـ مِنِ اتّباعِ هذا الشّيطانِ وطاعَتِه وسُلوكِ سَبيلِهِ وطَريقِهِ، ناصِحاً لنا مُبيِّناً عَداوَتَه لنا، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ (٥) إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ (٦) ﴾ [فاطر: ٥، ٦].

وقالَ سبحانَه وتعالى: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠]. وقالَ ﷻ: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [النور: ٢١]. وقالَ سُبْحانَه: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

إذا تبيَّنَ هذا، فالعاقِلُ ـ إخوتي ـ لا يَقْبَلُ أبداً أنْ يُوالِيَ عدُوَّهُ ويُحِبَّه ويُطيعَه، وهوَ يعلَمُ أنه عَدوُّه الذي يسْعى لإهْلاكِهِ والذي لا يَعمَلُ إلا لضَررِه، ومعَ هذا فإنّنا نجِدُ أنَّ أكثَرَ بني آدمَ قدْ ترَكُوا ولايَةَ الله وطاعَتَهُم له سبحانَه، وهو الذي أَمْرُهُمْ بِيَدِه وخَيْرُهُمْ ونَجاتُهُمْ باتّباعِ أمْرِه، وسارَعوا إلى طاعَةِ عدوِّهِم وسُلوكِ سبيلِه واتّباعِه في كلِّ ما يُزَيِّنُهُ لهم من الباطِلِ والكفْرِ والشِّركِ والمعاصي، نسألُ الله العافيةَ.

وهذه الطاعَةُ له والاتّباعُ لسَبيلِهِ لنْ تَزيدَ العَبْدَ مِنْ ربِّهِ إلا بُعْداً، **ويومَ القيامَةِ يتبرأ الشيطانُ منه ومِن عِبادَتِه**، ويَتْرُكُه لمصيرِه الأليمِ كما قالَ تعالى في سورةِ إبراهيمَ: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

فأخْبرَ ﷻ أنّهم يومَ القيامَةِ يجْعَلونَ اللَّومَ عليه، كلٌّ يقولُ: يا ربِّ، الذنبُ ذنبُه، هو الذي دَفَعنا لكذا وكذا، وهو الذي زيَّنَ لنا وَوَسْوَسَ، فيقولُ لهم الشيطانُ: إنَّ اللهَ وَعَدَكُم **وَعْدَ الحقِّ وهو الجنةَ**، وهوَ وعَدَكُم فأخْلَفَكُم، **ووَعْدُه لَكُم كانَ بالأماني والغُرورِ**، وما كانَ له عليكُم مِنْ سُلْطانٍ إلا أنْ دَعاكُم فاستَجَبْتُم لدَعْوَتِه، فهوَ لمْ يُكْرِهْكُم على شيءٍ ولا أجْبَرَكم على طاعَتِه واتّباعِه، وإنّما ناداكُم ودَعاكم فسارَعْتُم لإجابَتِه وأطَعْتُموه، فلا تلومُوه ولومُوا أنفُسَكُم فأنتُمُ الملومُونَ في الحقيقَةِ، ما هو بِمُصْرِخِكُم، أي: بقادِرٍ على إنقاذِكُم، ولا أنتُم تَقْدِرونَ على ذلِكَ، وقدْ

كَفرَ بشِـرْكِكُم وكُفْرِكُم وطاعَتِكم واتِّباعِكُم له مِنْ دونِ الله.

فكيفَ يرضـى عاقِلٌ أن يُسَلِّمَ نفسَه لعَدُوٍ هذه حالُهُ ونِهايَتُه، **وهَلْ هذا إلا نهايةُ الحُمْقِ والجهْلِ**، فوالله لو عَلِمنا أنَّ رَجُلاً استَأْجَرَ عامِلاً على عملٍ ثم مَنَعَه أُجْرَتَه لما رَضينا بمعامَلتِه فكيفَ نعامِلُ الشّيطانَ ونَثِقُ به ونُطيعُـهُ ونَتَّبِعُ أمرَهُ وهوَ كما مَرَّ مَعنا.

وقدْ أخْبرَنا اللهُ تعالى أنّه قَدْ أعدَّ النارَ لِكُلِّ مَنْ سَلَكَ سَبيلَ الشَّيطانِ وأنـه قالَ للشّـيطانِ: ﴿ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا﴾ [الإسـراء: ٦٣] وقالَ له أيْضاً: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٥﴾ [ص: ٨٥].

ولكنَّ السؤالَ المهمَّ: **كيفَ نُحارِبُ هذا العـدُوَّ؟** وكيـف نَغلِبُـه وهُـو يرانا من حيثُ لا نراه، ويجري من واحِدِنا مجرى الدمِ، وهو جـالِسٌ عـلى صُدورِنا يُلقي الوساوسَ في قلوبِنـا، ويُـزيِّنُ لنـا الباطـلَ بصـورةِ الحـقِّ، ويُلبِّسُ علينا الأمورَ، فكيف سنحارِبُ من هذه حالُه؟

والجوابُ: أنَّ العبدَ يجِبُ أنْ يَعْلَمَ أنّه أضْـعَفُ مِـن أنْ يسـتَطيعَ غَلَبَـةَ شيطانِه بحولِه وقوتِهِ وأنه **لا قُدْرةَ له على قَهرِهِ وغَلَبَتِهِ إلا بإعانَـةِ ربِّـهِ لـه**، فهو خالقُه وخالقُ الشيطانِ، وهو الذي يقدرُ على كلِّ ذلكَ.

ولذلك فالعَبْدُ يجِبُ أنْ يُسَلِّمَ أمرَه لله ويسْتَسْلِمَ له بالعبوديةِ والطاعـةِ ويلوذَ بربِّه وإلِهِهِ ومولاهُ، ويحتميَ بخالقِه القادرِ على كلِّ شـيءٍ، ويعتصمَ بمَنْ جميعُ الخلقِ بينَ يديهِ وتحتَ تصـرُّفِهِ، ليحمِيَهُ من الشيطانِ الرجيمِ.

فإنْ قامَ العَبْدُ بواجِبِ العبودِيَّةِ لله، وسلَّمَ أمرَهُ لربِّهِ ومـولاهُ، عَصَـمَهُ

من شيطانِهِ، وأبْعَدَ عنه سلطانَه، وبَصَّـرَه بالهدى والحقِّ والنورِ، وقد قـال تعـالى للشـيطانِ: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحجر : ٤٢]، فلا يُمكِنُكَ أن تتسلَطَ وتتغَلَّبَ على من عَبَدَني وخضعَ لي، وإنما سلطانُك وغَلَبَتُكَ على من اتَّبَعَكَ من الغاوين.

وقالَ له أيضاً: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الإسـراء : ٦٥].

لأجْلِ كلِّ ذلِكَ أمرَنا اللهُ ربُّنا بالاستعاذَةِ منه في أولِّ كلِّ أمرٍ وشأنٍ بأنْ يقولَ الواحِدُ: أعوذُ بالله من الشيطانِ الرجيمِ.

من معاني وحِكَمِ الاستعاذةِ:

ـ أعوذُ:

أي: أَلُـوذُ وأحْتَمـي وأعْتَصِـمُ وألتَجـئُ بـربي ربِّ العـالمينَ وإلهـي ومعبودي الذي أقرَرْتُ له بالعبودِيَّةِ، وخَضَعْتُ لـه بالطاعَـةِ، مـن شـر عَدُوِّي وعدوِّه الشيطانِ الرجيمِ، ليبعِدَ ربي عني تسـلُّطَه وشَـرَهُ، ويمنَـعَ عني وسوسَتَه وضـررَه.

وحقيقَتُها: الالتِجاءُ بسببِ الخوفِ، قالَ ابنُ القيّمِ: الهروبُ من شـيءٍ تخافُه إلى مَن يعصِمُكَ منه.

واعلمْ ـ أخي ـ أنَّ كلِمَـةَ الشّـيطانِ لا تختَصُّ بـالجنِّ فقـط، بـل **تَعُـمُّ شياطينَ الجنِّ والإنسِ**، وذلك أنَّ أصْلَ هذهِ الكلِمَةِ مِن **شَـطَنَ** إذا ابْتَعَـدَ، فهي تُطلَقُ على كلِّ عاتٍ متمَرِّدٍ مبتَعِدٍ عن طاعةِ ربِّـه ومـولاهُ مـن الجـنِّ

والإنسِ، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، بل أحياناً يكونُ ضررُ الشيطانِ الإنسيِّ أعظمَ بكثيرٍ مِن ضَررِ الجنّيِّ، ويصُدُّ المؤمنَ عن الخيرِ ويدفَعُه إلى الشرِّ أكثرَ من الجنيِّ، لذلِكَ أُمِرْنا بالاستِعاذةِ بهذه اللّفْظَةِ، لا بلفظَةِ **إبليسَ** لتَعُمَّ، واللهُ أعلَمُ.

ـ الرّجيمِ:

فَعيلٌ بمعنى: راجِمٌ ومرجومٌ؛ **فهوَ راجِمٌ يَرجُمُ غيرَه بالإغواءِ ويَؤُزُّهُم إلى المعاصي أزاً**، كما قالَ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم: ٨٣].

وهوَ مَرْجومٌ، أي: مَطْرودٌ مِن رحمَةِ الله ﷻ الخاصَّةِ، كما قالَ ربُّه له: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: ٣٤، وص: ٧٧]، وكذلِكَ كلُّ مَنْ تَبِعَهُ فسَيُرْجَمُ مَعَه ويُطرَدُ.

وأمّا **هَمْزُه ونفْخُه ونفْثُه:**

فهمزُه: المُوتةُ؛ وهو نَوْعٌ مِنَ الجنونِ **والصَّرَعِ**، **ونفْخُه**: الكِبْرُ، **ونفْثُه**: الشِّعرُ المذمومُ.

فتضمَّنَتْ هذه الاستعاذةُ أخطَرَ أساليبِ الشيطانِ في عداوتِه لبني آدمَ وصدِّه عن الخيرِ؛ فبنفْثِه يشوّشُ على القارئِ ويفسِدُ قراءَتَه، وبنفْخِه يقذفُ في قلبِه الكبرَ والعجْبَ فيفسدُ له بذلِكَ عملَه، وبهمزِه يغلبُه على عقْلِه فلا ينتفِعُ بقولٍ أو عملٍ، والعياذُ بالله منه.

والشّيطانُ تزْدادُ وساوِسُه وصَدُّه عنِ الهدى إذا رأى العبدَ قدْ قامَ إلى أداءِ عبادةٍ يعبُدُ فيها ربَّه، **خاصةً الصلاة،** فيغتاظُ أشدَّ الغيظِ ويجتَهِدُ أعظمَ الاجْتِهادِ في رَدِّه، ولذلكَ يَحتاجُ العبدُ للاستِعاذةِ هنا أكثرَ، **ولـمَّا كانتْ قراءةُ القرآنِ مِن أعظمِ العباداتِ وبها يُحصِّلُ العبدُ الخيرَ والبركاتِ والهدى والموعِظةَ** إلى غيرِ ذلكَ، كانت وسوَسةُ الشّيطانِ فيها أعظمَ ليصْرفَ العبدَ عن كلِّ ذلكَ الخيرِ العظيمِ، فأمَرَنا اللهُ تعالى أن نَستعيذَ به مِن شرِّ الشيطانِ عندَ قراءةِ القرآنِ لنُبعِدَ وساوِسَهُ عن قلوبِنا حالَ صلاتِنا وقراءتِنا ليحصُلَ تدبُّرُ القرآنِ وفهمُه والانتفاعُ به؛ فالاستعاذةُ عندَ قراءةِ القرآنِ شرطٌ لا بدَّ منه للانتِفاعِ بالقرآنِ وقطفِ ثمراتِ تلاوتِه، كما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾؛ فهذا أمرٌ بيَّنَ الله حكمَتَه بقولِه: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾، فحِكْمَةُ الأمرِ بالاستعاذةِ: أنَّ الشيطانَ ليسَ له سلطانٌ على الذينِ آمنوا وعلى ربِّهم يتوكّلونَ، ومقتضى الإيمانِ بالله والتّوكّلِ عليه طاعتُه في كلِّ ما أمرَ، ومن ذلِكَ الاستعاذةُ من الشيطانِ الرجيمِ عندَ قراءةِ القرآنِ، فمنْ استعاذَ بالله عندَ قراءتِه لا يكونُ للشيطانِ عليه سلطانٌ، ومن لم يفعَلْ تسلَّطَ عليه الشيطانُ فلا ينتفِعُ بقراءتِه ولا بصلاتِه.

مع ما في الاستعاذةِ من طهارَةٍ للفَمِّ، واستِعانةٍ بالله، واعترافٍ له بالقُدْرَةِ، معَ اعْترافِ العَبدِ بفَقْرِهِ وضَعفِهِ وحاجَتِهِ إليه سبحانه في مقاومَةِ هذا العدوِّ المبينِ الباطنيِّ الذي لا يقدرُ على منْعِه ودفْعِه إلا الله الذي

خلقَه، ولا يقبَلُ مُصانَعَةً، ولا يُدارى بالإحسانِ، بخلافِ العدوِّ من نوعِ الإنسانِ، ولما كانَ الشيطانُ يرى الإنسانَ من حيثُ لا يراه، استعاذَ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطانُ، والله أعلم.

ـ قالَ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإذا شَرَعَ في القِراءةِ قدَّمَ أمامَها الاستعاذَةَ بالله منَ الشيطانِ؛ فإنّه أحْرَصُ ما يكونُ على العبدِ في هذا المقامِ، الذي هو أشرَفُ مَقاماتِه، وأنفَعُها له في دنياهُ وآخرتِه، فهو أحْرَصُ شيءٍ على صرفِه عنه واقتِطاعِه دونَه بالقَلبِ والبَدَنِ، فإنْ عَجَزَ عن اقتطاعِهِ وتَعْطِيلِه عنه بالبَدَنِ اقتَطَعَ قلبَه وعطَّلَه وألقى فيه الوَساوِسَ لشُغلِهِ بذلِكَ عن القيامِ بحقِّ العبوديةِ بينَ يَدَيْ الربِّ تعالى، فأُمِرَ العبدُ بالاستِعاذَةِ بالله منه، ليَسلَمَ له مقامُه بينَ يديْ ربِّه، ولِيَحيا قلبُه ويستَنيرَ بما يتدَبَّرُه ويتفَهَّمُه من كلامِ سيِّدِه الذي هو سَبَبُ حياتِهِ ونَعيمِه وفلاحِهِ، فالشيطانُ أحرَصُ على اقتِطاعِ قلبِه عن مقصودِ التلاوَةِ.

ولما عَلِمَ سبحانَه جِدَّ العَدُوِّ وتفرُّغَه للعَبدِ، وعَجْزَ العَبدِ عنه، أمرَهُ بأنْ يستَعيذَ به سبحانه ويلتَجِئَ إليه في صَرْفِهِ عنه، فيُكْفى بالاستعاذَةِ مؤنَةَ محارَبَتِه ومقاوَمَتِه، فكأنه قيلَ له: لا طاقَةَ لكَ بهذا العدوِّ فاستَعِذْ بي واستَجِرْ بي أكفِكَهُ وأمنَعُكَ منه.

وقال لي شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمِيَّةَ قدسَ اللهُ روحَه يوماً: إذا هاشَ عليكَ كلبُ الغَنَمِ فلا تشتَغِلْ بمحارَبَتِه ومُدافَعَتِه، وعليكَ بالراعي فاستَغِثْ به فهو يصرِفُ عنكَ الكلبَ، **فإذا استَعاذَ الإنسانُ بالله من الشيطانِ بَعُدَ منه، فأفْضى القلبُ إلى مَعاني القرآنِ**، ووَقَعَ في رياضِهِ المونِقَةِ، وشاهَدَ

عَجائِبَه التي تبهَرُ القلوبَ، واستَخرَجَ من كُنوزِهِ وذخائِره ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمِعَتْ، وكأنَّ الحائِلَ بينَه وبينَ ذلكَ النفسُ والشّيطانُ، والنفسُ مُنفَعِلَةٌ للشّيطانِ سامِعَةٌ منه، فإذا بَعُدَ عنها وطُرِدَ ألَمَّ بها الملَكُ وثبَّتَها وذَكَّرها بما فيه سعادَتُها ونجاتها).

وقد اختَلَفَ العُلماءُ: **هل يُستَعَاذُ في أوَّلِ كلِّ رَكعَةٍ، أو يُكْتَفى بقراءتها في أولِ ركعةٍ من الصلاةِ؟** وكلٌّ حَسَنٌ، والأفْضَلُ أنْ يُستَعاذَ في كلِّ ركعةٍ، خاصَّةً إذا لم يَسْتَحْضِر المصلّي معنى هذه الاستعاذَةِ أوّلاً، لِيجْتَهِدَ في إبعادِ الشّيطانِ عنه وعَنْ قَلبِهِ، فَتَصلُحَ له صلاتُه ويخشعَ فيها قلبُه.

مع التّنبيهِ على أنَّ الاستعاذةَ من أعظَمِ الأسبابِ التي تُعينُ على فهمِ القرآنِ وتدبُّرِه، وتوصِلُ العبدَ إلى الانتفاعِ بمعانيه، ومشاهدَةِ عجائبِه، واستخراجِ كنوزِه، كما ذكرَ ذلِكَ ابنُ القيّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كلامِه السابقِ، وهذا بشرْطِ الصدقِ فيها، واستحضارِ القائلِ لمعناها، وشعوره بحاجَتِه إليها أعظَمَ من حاجَته للطّعامِ والشرابِ؛ فإنه علِمَ شدّةَ عداوةِ عدوِّه له، وشّدةَ مكرِه وكيدِه له، وأنه لا عملَ له إلا بإغوائه وإبعادِه عن كلِّ خيرٍ، وعلِمَ في المقابِلَ شدّةَ ضعفِه أمامَه، وأنّه لا حولَ ولا قوّةَ له بدفعِه عنه، وأنّه إنْ لم يعصِمْه الله منه فهو الهالِكُ لا محالَةَ، فاستعاذَ بربِّه لجوءَ العبْدِ الفقيرِ الضعيفِ المحتاجِ إلى حمايَتِه ورعايَتِه وتوفيقِه وإعانتِه.

فالاستعاذةُ الكاملةُ النافِعةُ للعبدِ هي التي تكونُ بالقلبِ واللسانِ والجوارحِ ، والتي يستعيذُ بها العبدُ من الشيطانِ وكلِّ ما كانَ من الشيطانِ

وله علاقةٌ به ويُحبُّه ، وأخصُّ ذلِكَ النّجاساتُ الحسّيّةُ والمعنويّةُ ، وإذا لم تكنْ كذلكَ فإنها تكونَ كلاماً غيرَ نافعٍ ولا معنىً له ؛ كمنْ يستعيذُ بالله من الشيطانِ بلسانِه وهو عاكفٌ على ما يريدُ الشيطانُ منه ملازِمٌ له فرِحٌ به .

فانظُرِ مثلاً إلى ما انتشَرَ في عقولِ الناسِ اليومِ من نجاساتِ الأفكارِ والآراءِ والأهواءِ والبِدَعِ والعلومِ المنحرفَةِ الصّادّةِ عن سبيلِ الله ، والتأثّرِ بكلِّ ما ينشرُه الشيطانُ من ذلِكَ ، حتى وصلَ الحالُ إلى تعظيمِ أهلِها والاجتِهادِ وموالاتِهم ومحبّتِهم والدّفاعِ عنهم ، تعلَمُ سبَباً مهماً من أسبابِ حرمانِ الناسِ من فهمِ كلامِ الله تعالى والتأثّرِ به .

وانظُرْ أيضاً إلى الضّجَرِ والمَلَلِ من القرآنِ عندَ أكثَرِ الناسِ ، والفَرَحِ بالمُلْهياتِ والملَذاتِ ، لتعلَمَ كم تسلَّطَ الشيطانُ على قلوبِنا اليومَ ، وتعلَمَ كم هي ضعيفَةٌ الاستعاذةُ بالله منه ، مع أنّنا نقولُها كلَّ يومٍ مراتٍ ومرات ، فلو كانتِ الاستعاذةُ بالله من الشيطانِ صادقةً كما ينبَغي لطَهُرَ القلبُ بها ، وتفرَّغَ للقرآنِ ، ولم يُزاحِمْه شيءٌ من الملذّاتِ والملْهياتِ التي تُبعِدُه عن كلامِ الله من الأفكارِ والشّعرِ وغيرِ ذلِكَ .

وانظرْ كذلكَ إلى ما انتشرَ في الأمّةِ اليومِ من الشّعرِ والمديحِ والغناءِ الذي هو من نفْثِ الشيطانِ كما تقدّمَ ، وكيفَ عمّتْ به البَلوى في هذه الأيامِ حتى قُدِّمَ على القرآنِ، وتعلَّقَتْ به القلوبُ أكثرَ من تعلّقِها بكلامِ ربِّها سبحانَه ، حتى لبَّسَ الشيطانُ على كثيرٍ منهم أنَّ هذا من الطاعاتِ والقرُباتِ ، ومن وسائلِ الدّعوةِ إلى الله تعالى ، والله المستعانُ .

فكلُّ منِ اغترَّ بذلِكَ فإنّما اغترَّ بسَبَبِ نفْخِ الشيطانِ له ، وما أدخَلَه في

قلبِه بنفْخِه من العجبِ والاغترارِ بما يفعلُ ، وزيَّنَ لهم أعمالَهم ، حتى يصلَ بعدَ ذلِكَ إلى مرحلةِ خنقِهم وصرعِهم ، نسألُ الله لنا ولكم السلامةَ والعافيةَ من تسلّطِ هذا الشيطانِ، ونعوذُ بالله السّميعِ العليمِ من جميعِ كيدِه ونزغاتِه .

واللهُ أعلمُ، وهو المستعانُ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العلي العظيم.

الوقفةُ الحاديةَ عشرةَ

البَسْمَلَةُ

بعدَ أنْ يَستعيذَ المصلي قبلَ قراءتِهِ من الشّيطانِ الرَّجيمِ، مُحْتَمِياً برَبِّه تعـالى من عَدُوِّهِ وشيطانِه، مُلتَجِئاً إليه سبحانه أن يُبعِـدَ عنـه وَساوِسَـه وسُـلْطانَه، شُـرِعَ له أن يقرأ فاتحةَ الكتابِ مُفتَتِحاً بالبسمَلَةِ، وهي قولُ العبدِ: (بسـمِ الله الرحمنِ الرحيم)، **سِـراً لا جَهْراً في الصلاةِ السِّـرِّيَّةِ والجهرِيَّةِ.**

ولعلَّ السِّـرَّ في ذلكَ ـ واللهُ أعلمُ ـ أنَّ البَسمَلَةَ لَيستْ آيـةً مِـنَ الفاتحـةِ وإنما هِي آيةٌ مُسْتَقِلَّةٌ جُعِلَتْ في أوَّلِ كُلِّ سورةٍ مـا عـدا (بـراءة) ليبتَـدِئَ العبدُ بها قراءتَه،كما يبتدئُ بها في كلِّ قَولٍ وعَمَلٍ، كما أنّهـا الإشـارةُ إلى أن السُّورةَ قَدِ انْتَهَتْ وابتدأتْ سورةٌ أخرى.

وقد اختلفَ أهلُ العلمِ من القراءِ والفقهاءِ في هذه المسألَةِ على أقوالٍ؛ فمنهم من يرى أنَّ البسملَةَ آيةٌ مـن الفاتِحَـةِ ومـن كـلِّ سـورةٍ إلا بـراءة، ومنهم من يرى بأنّها آيةٌ من الفاتحةِ فقط، ومنهم من يرى أنّها آيةٌ مسـتقلّةٌ للفصلِ بينَ السوَرِ وليسَتْ آيةً من الفاتحةِ ولا من غيرِها ...

إلى أقوالٍ أخرى هذه أشهرُها، وكلُّ هذه الأقوالِ صحيحةٌ لهـا وجـهٌ مـنّ النّظَرِ والدّليلِ والمعنى الذي يكمُلُ بها معنى الوجْه الآخرِ، والخـلافُ في هـذا من بابِ خلافِ التّنوّعِ لا التّضادّ، وليسَ هذا موضعُ بسطِ ذلكَ، والله أعلمُ.

من المعاني والحِكَمِ في البسملة:

ـ ومعنى البسملةِ:

أَبدأُ بِجَميعِ أسماءِ الله تعالى قراءتي وجميع عَمَلي، مُتَبَرِّكـاً بهـا، مُسْـتَعيناً بربي جلَّ وعلا على أداءِ هذه العبادَةِ وإتمامِها على أكْمَلِ وُجوهِها.

وذلكَ أن كَلمةَ (**بسمِ الله**) مُتعَلِّقَةٌ بفِعلٍ محذوفٍ يُقَدَّرُ عندَ كلِّ عَمَـلٍ بما يُناسِبُه، فيُقَدَّرُ عندَ قِراءةِ القرآنِ (**أبدأُ قـراءتي**) أو (**أقـرأ باسـمِ الله**)، وعندَ الطعامِ يقدَّرُ (**آكل بسم الله**).. وهكذا..، كما قـال تعـالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، وقالَ سبحانَه عن نوحٍ عليهِ السّـلامُ أنـه قـالَ لقومِـه يـومَ الطوفانِ: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود : ٤١].

والمفَرَدُ المضافُ (**بسمِ الله**)**يدُلُّ على العمومِ**، فيدخُلُ فيه جَميـعُ أسـماءِ الله تعالى التي تَسمّى بها والتي فيها البركةُ والخيراتُ كلُّها، كما سَبَقَ بيانُـه في الوَقفَةِ السّابعةِ عندَ بيانِ معنى (وتبارَكَ اسمُكَ)، فما مِن شَـيءٍ في هذا الوجودِ إلا وبَرَكَتُه مِنَ الله تعالى، بـل ويَصـدُرُ في الحقيقـةِ عـن مُقتضـى أسماءِ الله ﷻ، يشهَدُ له بالوحدانِيَّةِ جلَّ وعلا، كما قالَ بعضُهم:

فيـا عَجَبـاً كيـفَ يُعْصَـى الإلـهُ ... أم كيـــفَ يجحَـــدُهُ الجاحِـــدُ
وفـــي كـلِّ شيءٍ لَـــــهُ آيـــــةٌ ... تَـــدُلُّ عـــلى أنـــه واحـــــدُ

والباءُ في (بسمِ الله) للمصاحَبَةِ، فهي تدلُّ على أنَّ البسملةَ ينبغـي أن تكونَ مصاحِبَةً لكَ في كلِّ عملٍ له شأنٌ، حتى يُبارِكَ الله لكَ فيه، وتنتَفِـعَ به، ولا يكونَ أبتَراً مقطوعاً من الخيرِ.

و(**الرحمنِ والرحيمِ**) اسمانِ لله تعالى يتضَمَّنانِ وصفَه سبحانه **بصِفَةِ الرحمةِ**، والفَرقُ بينَهما: أنَّ (**الرحمنَ**) **صِفَةُ ذاتٍ لله تعالى**؛ تدُلُّ على أنَّ اللهَ سبحانَه قَدِ اتَّصَفَ بالرَّحمةِ الواسِعَةِ التي وَسِعَتِ السَّماواتِ والأرضَ وما بينَهما ولا أوسَعَ منها، ولهذا جاءَ بها على وَزْنِ (فعلان) الذي هو **أوسَعُ أوزانِ المبالَغَةِ**، كما تقولُ العَرَبُ شَبْعانَ لمنِ امْتَلأ شِبَعاً وعطشانَ لمنِ امتلأ عطشاً.. وهكذا، **ليدُلَّ على سَعَةِ هذه الرحمةِ منه سبحانه**.

وهذا **الاسْمُ منه سبحانَه خاصٌّ به جلَّ وعلا** لا يُشارِكُه فيه أحدٌ ولا يجوزُ التَّسَمّي به لغيرِه، بخلافِ الرّحيمِ، فقد قال تعالى في صفةِ نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة : ١٢٨] ، وذلك لِما دَلَّ عيه اسْمُ (**الرحمن**) من سَعَةِ الرَّحمةِ الخاصَّةِ بالله تعالى، ولهذا قالَ سبحانَه: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء : ١١٠] ، فجَعَلَه خاصاً له مِن بَينِ الأسماءِ كلَفْظِ الجلالَةِ. ولما تَسمّى مُسَيْلِمَةُ لَعَنَهُ اللهُ متَعَدِّياً (رحمنَ اليمامَةِ) أَخَذَ إلى يومِ القِيامَةِ لَقَبَ (**الكذاب**) فلا يُذكَرُ إلا به جزاءً وِفاقاً على تَعَدِّيهِ على الله تعالى وأسمائِه وصِفاتِه.

وأما (**الرحيم**) **فهي صِفَةُ فِعلٍ لله تعالى** تدُلُّ على أنه سبحانَه يرحَمُ خَلقَهُ ويعامِلُهم بهذه الرَّحمةِ الواسِعةِ، وهذا مُقتضى اسمه (**الرحمن**).

وقد ثبتَ في صَحيحِ البخاريِّ وغيرِه أن رحمةَ الله تعالى مائةُ جُزءٍ، جَعَلَ الله تعالى منها جزءاً واحِداً في الدنيا يتراحَمُ به الخلائِقُ جَميعاً، وترَكَ

سبحانَه تِسعةً وتِسعينَ جزءاً يرحَمُ بها المؤمنينَ يومَ القِيامةِ، جعَلَنا الله منهم بِمَنِّهِ وكرَمِهِ إنه أرحَمُ الراحمينَ.

ومما ينْبغي أنْ يُعلَمَ أنَّ **رحمةَ الله الواسعةَ لا تكونُ يومَ القِيامَةِ لغَيرِ المؤمنينَ الذينَ حقَّقُوا مقتَضى الإيمانِ بالعَمَلِ الصالِحِ**،كما قال سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فالحذرَ مِن غُرورِ الشّيطانِ الذي يَدْخُلُ على القلوبِ ويزيِّنُ لها المعاصي مُسَهِّلاً عليها ذلكَ بأنَّ الله هو الرحمنُ الرحيمُ، فاجْتَهِدْ أخي في طاعَةِ الله وأنْ تكونَ مِنَ المذكورينَ في الآيةِ السّابِقَةِ وذلكَ بتَرْكِ المحرَّماتِ وفِعلِ أنواعِ الطاعاتِ، **وهذه هي التقوى**، وبِتَطهيرِ القَلبِ واللِّسانِ والجوارحِ مِنْ كلِّ شِركٍ وكفرانٍ وتعلُّقٍ بغيرِ ربِّ العالمينَ الرحيمِ الرحمنِ، **وهيَ التَّزْكِيَةُ المذكورةُ**، وبالإيمانِ بكلِّ ما أنزلَ اللهُ منَ الآياتِ والرُّسُلِ والكُتبِ، واتِّباعِ رسولِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كلِّ أمرٍ، حتى يَصِحَّ منكَ الرجاءُ بأنْ تكونَ مِمَّنْ يُرحَمُ يومَ القِيامةِ. نسألُ الله تعالى أن يجعلَنا منهم ويحشُرَنا معهم إلى الجنانِ، إنه هو الرحيمُ الرحمن.

من فوائدِ البَسملَة:

ـ والعبدُ يُحَقِّقُ بالبَسمَلةِ أموراً:

١ـ **البركةُ** في أقوالِه وأعمالِه؛ وذلكَ ببركةِ أسماءِ الله تعالى التي بَدأَ بها، ولهذا ينبغي أن تكونَ في بدايةِ كُلِّ قولٍ وعَمَلٍ ليبارِكَ اللهُ فيها وتَعُمَّها الخيراتُ ويُمنَعَ الشيطانُ منَ المشارَكَةِ فيها؛ فإنَّه يشارِكُ العبدَ في كلِّ عملٍ

لا يَذْكُرُ اسمَ الله عليهِ كما قالَ تعالى له: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ﴾ [الإسراء: ٦٤]، وأخبر النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ الشَّيطانَ يُشارِكُ العبدَ في طَعامِهِ وشرابِه إذا لم يُسَمِّ اللهَ عليه، كما يَبيتُ في البيتِ الذي لا يُذكَرُ اسمُ الله عندَ دُخولِه، بل ويُشارِكُه في وَلَدِه إذا لم يَذكُرِ اللهَ عندَ إتيانِ أهلِه.. وهكذا؛ فمَنْ تَرَكَ البَسملةَ فاتَهُ الخيرُ كلُّه والبركةُ في أقوالِه وأعمالِه، وشارَكَهُ الشيطانُ فيها والعياذُ بالله.

٢ـ **إعانَةُ الله تعالى**؛ لأنَّ العبدَ إذا قالَ: (بسمِ الله) فهو يقولُ: أبدأ مُستَعيناً بالله الذي لا حَولَ لي ولا قُوَّةَ إلا بِهِ، ولا مُعينَ لي إلا هوَ، ولا يمكنُني أنْ أُحَصِّلَ أيَّ خيرٍ إلا بإعانَتِه وتَوفِيقِه، كما يقولُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾، فلا يُمْكِنُ أداءُ العبادَةِ ولا غيرِها إلا بإعانَةِ الله تعالى، ولذلِكَ يطلُبُ العَبدُ من رَبِّهِ ذلكَ عندَ كلِّ عَمَلٍ.

٣ـ تذكُّرُ **الإخلاصِ** لله تعالى؛ وأنْ يجعلَ هذا العملَ له، فما دامَ أنه لا يمكِنُهُ أداءُ العمَلِ إلا بإعانةِ الله له، ولا خَيرَ في عَمَلِهِ إذا لم يُبارِكْهُ اللهُ، فكيفَ يجعَلُ العبدُ بعدَ ذلكَ هذا العملَ لغيرِ الله سُبْحانَه، وهل هذا إلا منتهى الجهلِ والظلمِ؟!

فكما أنَّ اللهَ تعالى هو الأوَّلُ الذي **أولُ** كلِّ شيءٍ منه، وكلُّ ما أنتَ فيه مَنَ الخيرِ والعَمَلِ فهو منه سبحانه، فكذلِكَ اجْعَلْهُ **آخِرَ** كُلِّ شيءٍ؛ فيتَحَقَّقُ بذلِكَ الإخلاصُ لله تعالى.

ـ هذا واعلَموا ـ أحبتي ـ أن **البَسمَلَةَ قَدْ تضَمَّنَتِ اسمَ الله الأعظمَ**

الذي إذا دُعِيَ به أجابَ وإذا سُئِلَ به أعطى، وذلك لأنّها تَضَمَّنَتِ اسمَ الله واسمَ الرحمنِ، وإليهما ترجِعُ جَميعُ الأسماءِ ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وقدْ شُرِعَتْ لنا البَسمَلَةُ والاستعاذةُ من بابِ **التَّخْلِيَةِ قَبلَ التَّحْلِيَةِ**، بمعنى: أنّه ينبغي أن يُطَهِّرَ الإنسانُ نفسَهُ وقَلْبَه قبلَ أن يحاوِلَ مَلءَ ذلكَ بالإيمانِ؛ كالوِعاءِ الذي يُغسَلُ قبلَ مَلئِهِ بالماءِ؛ وإلا فإنَّ الماءَ سيفْسُدُ ويتَغَيَّرُ بسبَبِ ما في الوِعاءِ من النَّجاسةِ، فكذلِكَ هنا، لا بدَّ مِن تَطهيرِ القَلْبِ والجوارِحِ مِنَ الطاعَةِ للشّيطانِ واتِّباعِهِ، حتى تنفعَ البَسمَلةُ فتَعُمَّ البركةُ والخيراتُ، ولا يمكنُ أن تَأتِيَكَ إعانةُ الله تعالى وأنتَ ما زِلتَ مُوالِياً لعدُوِّهِ مُتَّبِعاً لوَساوِسِهِ وخُطواتِهِ، فتَبَرَّأْ مِنه أولاً وأَعْلِنِ العداوةَ له، ثم اطْلُبْ مِن ربِّكَ الحمايةَ ضدَّه، ثمّ ابْدأ العَمَلَ مُستَعيناً بالله مُتبرِّكاً بأسمائِه مخلِصاً له، فتنالُ بذلِكَ الخيرَ كلَّه وتفلحُ في الدنيا والآخرةِ بإذنِ الله سبحانه وتعالى.

أسألُ اللهَ تعالى أن يُعيننا على ذِكرِه وشكرِه وحسنِ عبادته، وأن يبارِكَ في أنفسنا وأعمالِنا وأموالِنا وذرياتِنا وأهالِينا، وأن يجعلَ أعمالَنا خالصةً لوجهِهِ الكريمِ، إنه سميعٌ مجيب، وهو مولانا فنِعمَ المولى ونعمَ النَّصيرِ، والحمدُ لله ربِّ العالمينَ.

الوقفةُ الثانيةَ عشرةَ

قراءةُ الفاتِحَةِ

(١)

بعدَ أنِ اسْتَعَدَّ المصَلّي أَتَمَّ اسْتِعْدادٍ لصلاتِه والوقوفِ بينَ يَدَيْ ربِّه، مِن طَهارَةٍ ظاهرَةٍ وباطِنَةٍ، وسَتْرٍ للعُيوبِ والنَّقائِصِ، ومَغفرةٍ للذُّنوبِ الحائِلَةِ بينَه وبينَ وُصولِ أنْوارِ الله ورَحَماتِه إليهِ، وتَوَجُّهٍ كامِلٍ إلى الله، ثم ثَناءٍ على الله وحمدٍ وتَعظيمٍ، واعْتِرافٍ بالعبودِيَّةِ له وتَضَرُّعٍ وافتقارٍ، وطَلَبٍ للحِمايَةِ مِن أخطَرِ الأعْداءِ، واسْتِعانَةٍ بالحيِّ القَيُّومِ الرحمنِ الرحيمِ الذي جميعُ الأمورِ بينَ يَديْهِ.. **شُرِعَ للمُصَلّي أن يقرأ فاتحَةَ الكتابِ.**

قالَ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإذا أخذَ في قراءةِ القرآنِ فقدَ قامَ في مقامِ مخاطَبَةِ ربِّه ومُناجاتِه، فليَحْذَرْ كلَّ الحذَرِ من التَّعَرُّضِ لمَقْتِه وسَخَطِه؛ أنْ يُناجِيَه ويُخاطِبَه وهو معرِضٌ عنه، ملتَفِتٌ إلى غيرِه، فإنه يستدْعي بذلِكَ مَقْتَه، ويكونُ بمنزِلَةِ رجلٍ قَرَّبَه ملِكٌ مِن ملوكِ الدّنيا، فأقامَه بينَ يديْه، فجعلَ يُخاطِبُه الملِكُ وقد وَلّاهُ قَفاه أو التَفَتَ عنه بوجْهِه يَمْنَةً ويسرَةً، فما الظنُّ بمقْتِ هذا الملِكِ لهذا؟ فما الظنُّ بالمَلِكِ الحقِّ المبينِ الذي هو ربُّ العالَمِينَ وقيّومُ السماواتِ والأَرَضينَ).

فأمّا قراءةُ هذه السُّورةِ فهو **رُكنٌ من أركانِ** الصلاةِ لا تَصِحُّ الصلاةُ إلا بِه، فقدْ قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديثِ المتفَّقِ على صحَّتِهِ: «**لا صلاةَ لمنْ لمْ يقرأْ بفَاتحةِ الكِتابِ**»، وذلكَ **أنَّ قِراءةَ القُرآنِ أفضلُ أنواعِ الذِّكرِ وأرفعُ القُرُباتِ**؛ لأنّه كلامُ الله تعالى الذي أنزَلَه هدىً ورحمةً ومَوعِظَةً ونُوراً ورُوحاً وحَياةً للعِبادِ، وهُو أعظمُ ما يُناجي به العبدُ ربَّه ويتقرَّبُ به إليه، ولذلِكَ أمرَ اللهُ تعالى بقِراءَةِ القُرآنِ في الصّلاةِ حالَ وُقوفِ العَبدِ بينَ يَدَيْهِ، فقالَ جلَّ وعزَّ: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾.

وخَصَّ اللهُ تعالى هذه السُّورَةَ المبارَكةَ بوُجوبِ قراءَتِها في كلِّ رَكعَةٍ من الصلاةِ؛ **لأنها جَمَعَتْ مَعانيَ القرآنِ كلِّهِ**، فالقارئُ لها قارئٌ لجَميعِ معاني القرآنِ، وهذا مِن أعظَمِ البلاغةِ والإعْجازِ، أن يجمَعَ الله معانِيَ القرآنِ كلِّه في سورةٍ لا تَتَجاوَزُ آياتُها السَّبْعَ آياتٍ، ولهذا لا يقومُ غيرُها مكانَها.

من فضائل سورة الفاتحة:

وهذه السورةُ لها أسماءٌ كثيرةٌ تدُلُّ على فَضلِها ومَا جُمِع فيها من الخيراتِ، لأن الشيءَ إذا تعدَّدت أسماؤُه عَظُمَ شَأنُه، فمِنْ أسمائها:

١ـ **القرآنُ العَظيمُ**: قال تَعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: ٨٧]. وثبَتَ في صحيحِ البخاريِّ مِن حديثِ أبي سعيدِ ابنِ الْـمُعَلَّى أنَّ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ له: «**لأعَلِّمَنَّكَ أعظَمَ سُورَةٍ من القرآنِ قبلَ أن تخرُجَ مِنَ المسجِدِ**»، قال: فلمّا أرادَ أن يخرُجَ قالَ له فقال: «**الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، هِيَ السَّبعُ المثاني والقرآنُ العَظيمُ الذي أوتِيتُه**».

فَمَا مِنْ آيَةٍ فِي القرآنِ إلا وهِيَ **تَرجِعُ إلى الفَاتِحَةِ**، والمتأَمِّلُ يَجِدُ هذا واضِحاً تماماً؛ فإنَّ القرآنَ: **إمّا خَبَرٌ عَنِ الله** ومَا له مِن صِفاتِ الكَمالِ والجَلالِ والعَظَمَةِ وما يَنبغي له مِنَ التَّسبيحِ والحمدِ والتَّكبيرِ والتَّهليلِ، وقَدْ جَمَعَتْه الفاتحةُ في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾؛ فإنَّ أسماءَ (**الله والربِّ والرحمنِ**) تَرجِعُ إليها جَميعُ أسماءِ الله تعالى وما ينبَغِي له مِنْ صِفاتِ الكَمالِ والجَلالِ والعَظَمَةِ.

وإمّا أنه ـ أيْ القرآنُ ـ **خَبَرٌ عَنْ لِقاءِ الله تَعالى** وما أَعَدَّ يومَ القِيامَةِ مِنَ النَّعيمِ لأَوْلِيائِهِ، والعذابِ الأليمِ لأَعْدائِهِ، مَعْ ما في ذلكَ اليومِ مِنَ الأهوالِ والكُرُباتِ والشَّدائِدِ، وكلُّ هذا يَرجِعُ إلى قَولِهِ تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾.

وإمّا أنَّه **خَبَرٌ عَنْ أصْنافِ الناسِ وانْقِسامِهِمْ** إلى ثَلاثةِ أقسامٍ لا رابِعَ لها؛ وهم المُنْعَمُ عليهِم والمغضوبُ عليهم والضّالّون، وعن حالِ كلِّ واحدٍ مِنْ هذهِ الأصْنافِ، وهذا يدخُلُ فيه كلُّ ما ذَكَرَه اللهُ تعالى من أخبارِ الأمَمِ الماضِيَةِ وتَفاصيلِ ما حَلَّ بهم.

وأما الأوامِرُ والنَّواهي وأنواعُ العبادَةِ لله سبحانه وتَفاصِيلُ الحرامِ والحلالِ، فهو راجعٌ إلى قَولِه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

وبَقِيَ **القَضاءُ والقَدَرُ** وانْفِرادُ الربِّ تعالى بالتَّدبيرِ والإعانَةِ والتَّوْفِيقِ، كما انْفَرَدَ سبحانَه بالخَلْقِ والأمرِ والمُلْكِ والرِّزقِ، فيَدخُلُ تحتَ قولِه تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وتأمَّلْ ـ أخي ـ ما أخبرَ به النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربِّهِ في الحديثِ القُدسيِّ الصَّحيحِ عندَ مُسْلمٍ وغيرِه يتَّضِحُ لكَ هذا الذي ذَكرْنا؛ فإنه قالَ: «**قالَ اللهُ تعالى: قَسمْتُ الصلاةَ بَيني وبينَ عبدي نِصفَينِ، ولِعبدي ما سَألَ، فإذا قال العبدُ: الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، قال اللهُ تعالى: حَمِدَني عبدي، فإذا قال: الرحمنِ الرحيم، قال الله تعالى: أثْنى عليَّ عبدي، فإذا قالَ: مالكِ يومِ الدينِ، قال اللهُ تعالى: مَجَّدَني عبدي، فإذا قال: إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعينُ، قال الله تعالى: هذه بَيْني وبينَ عَبدي ولِعَبْدي ما سَألَ، فإذا قال: اهْدِنا الصِّراطَ** المستقيمَ.. **إلى آخرِها، قال الله تعالى: هذِهِ لِعبدي ولِعَبْدي ما سَألَ**».

٢ـ **الصلاةُ**: كما وَرَدَ في الحديثِ السَّابِقِ، **وذلكَ لأنها جَمَعَتِ المقصودَ مِنَ الصَّلاةِ**، مِنَ التَّعظيمِ والثَّناءِ على الله تعالى والخضوعِ له مع الاعترافِ بالعُبوديةِ والفقرِ وغيرِ ذلكَ مَنْ مقاصِدِ الصلاةِ، ولذلِكَ كانتْ قراءتُها رُكْناً لا تَصِحُّ الصلاةُ إلا بِه..

٣ـ **أمُّ الكتابِ**: فَهِيَ للقرآنِ بمَثابَةِ **الأمِّ التي يتفَرَّعُ عنها الفَرْعُ**، بل إنها الأمُّ لجميعِ الكُتُبِ المنزلةِ مِن عندِ الله؛ حيث جَمَعَ اللهُ مقاصِدَها كلَّها في القرآنِ الكريمِ وزادَ عليها. وهذا الاسْمُ بمعنى الاسمِ الأوَّلِ.

٤ـ **الفاتحةُ**: لأنَّ القرآنَ افتُتِحَ بها، وكذا الصلاةُ تُفتَتَحُ بها، أي القراءةُ في الصلاةِ.

٥ـ **الكافيةُ**: لأنها تَكفي وتُغني عمّا سِواها ولا يكفي غيرُها عنها.

٦ـ **الشافيةُ**: لأنها شِفاءٌ مِن جميعِ الأمراضِ الباطنةِ والظاهرَةِ، فقد قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢]. فإذا كان القرآنُ فيه شفاءٌ للناسِ، والفاتِحةُ قَدْ تَضَمَّنَتِ القرآنَ، فلا رَيْبَ أنَّ فيها الشفاءَ للناسِ.

وقد ثَبتَ في صَحيحِ البخاريِّ وغيرِه أن جماعةً من الصَّحابةِ كانوا في سَفَرٍ فمَرُّوا على حيٍّ من أحياءِ العَرَبِ فطَلَبُوا الضِّيافَةَ منهم، فأَبَوْا عليهِم، وكانُوا أهلَ بُخْلٍ ولُؤمٍ، فلُدِغَ سيدُ الحيِّ، فأَتَوْا إلى الصحابَةِ يطلُبونَ طَبيباً أو راقياً فاشْتَرَطُوا عليهم أجراً، ثم قامَ واحدٌ من الصحابةِ ـ وهو أبو سعيدٍ الخُدريُّ في بعضِ الرواياتِ ـ فقرأ عليه سورةَ الفاتحةِ، يُكرِّرُها ويَتْفُلُ على مَكانِ اللَّدْغَةِ، فقامَ كأنَّه ما أصابَهُ سوءٌ، ولذلِكَ كانتْ مِنْ أعظَمِ ما يَرقي به المسلمُ ويتداوى به.

٧ـ **الحمدُ**: وذلكَ لافْتِتاحِها بالحمدِ، ولما تَضمَّنَتْه من الحمدِ والثَّناءِ على الله تعالى.

فهذه بعضُ أسمائِها التي تدُلُّ على ما تَضمَّنَتْه من الخيراتِ، فحَقيقٌ بنا أن نَتَدَبَّرَ معانِيَها ونتفَكَّرَ بما فيها، وأن نجعلَ هذا من أعظَمِ هُمومِنا، وأن لا نقرأَها في صلاتِنا قراءةَ الغافلينَ المعرِضينَ دُونَ تَفَكُّرٍ ولا وَعْيٍ ولا تدبُّرٍ لمعنى ما فيها، واللهُ الموفِّقُ لذلِكَ بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ.

وسنُحاوِلُ في الوَقَفاتِ القَادِمَةِ ـ إن شاء اللهُ ـ أن نُبَيِّنَ شَيئاً يَسيراً مِنْ مَعانِيها وأصولِها وما تضمَّنَتْه، لعلَّ ذلِكَ يُساعِدُ في الوُصولِ إلى تَدبُّرِها

وفَهمِها.

وقد كان شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يجلسُ كلَّ يومٍ بعدَ صلاةِ الفَجرِ إلى طُلوعِ الشَّمسِ يُرَدِّدُ الفاتحةَ ويتأمَّلُ معانِيَها وما فيها، فسُئِلَ عن ذلكَ فقال: إني أرى فيها عَجَباً. أو نحوَ ذلِكَ.

وهذا ابنُ القَيِّمِ يُؤَلِّفُ في بَيانِ معنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كتابَه (**مدارجُ السَّالِكينَ بينَ مَنازِلِ إياكَ نعبُدُ وإياكَ نَستَعينُ**)، وهُوَ في ثلاثَةِ مجلَّداتٍ كبارٍ، ضمَّنَها منازلَ العُبودِيَّةِ القَلبيَّةِ لله ﷻ وما ينبَغي أن يكونَ عليه العَبْدُ في سَيرِهِ إلى الله جلَّ وعزَّ مِن أنواعِ العُبودِيَّةِ الباطِنَةِ.

وله رَحِمَهُ ٱللَّهُ في زادِ المعادِ كلامٌ حولَ الفاتحةِ مِنْ أجمَلِ الكَلامِ أَذْكُرُهُ بِطولِهِ لِفَائِدَتِه، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَاتحةُ الكِتابِ، وأُمُّ القرآنِ، والسّبْعُ المثاني، والشِّفاءُ التَّامُّ، والدواءُ النَّافِعُ، والرُّقيَةُ التَّامَّةُ، ومِفتاحُ الغِنى والفَلاحِ، وحافِظةُ القُوى، ودافِعَةُ الهمِّ والغَمِّ والخوفِ والحزنِ **لِمَنْ عَرَفَ مِقدارَها وأعطاها حقَّها وأَحْسَنَ تَنْزِيلَها على دائِهِ وعَرفَ وجهَ الاستغناءِ والتَّداوي بها والسرَّ الذي لأَجْلِه كانتْ كذلِكَ.**

ولما وَقعَ بعضُ الصَّحابَةِ على ذلِكَ، رقى بها اللَّديغَ فبرَأَ لوَقتِهِ، فقال له النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وما أدراكَ أنها رُقيَةٌ**».

ومَنْ ساعَدَهُ التَّوفيقُ، وأُعِينَ بنُورِ البَصيرةِ حتى وقَفَ على أسْرارِ هذه السورةِ، وما اشْتَمَلَتْ عليهِ مِنَ التَّوحيدِ ومَعرِفَةِ الذاتِ والأسماءِ والصِّفاتِ والأفعالِ، وإثباتِ الشَّرْعِ والقَدَرِ والمعادِ، وتَجريدِ توحيدِ

الرُّبوبِيَّةِ والإلهيَّةِ، وكمالِ التَّوَكُّلِ والتَّفويضِ إلى مَنْ له الأمرُ كلُّه، وله الحمدُ كلُّه، وبيدِه الخيرُ كلُّه، وإليه يرجِعُ الأمرُ كلُّه، والافتقارِ إليه في طَلَبِ الهدايةِ التي هِيَ أصلُ سعادةِ الدّارَيْنِ، وعَلِمَ ارْتباطَ مَعانيها بِجَلْبِ مَصالحِهما ودَفْعِ مفاسِدِهما، وأنَّ العاقِبَةَ المطلقَةَ التَّامَّةَ والنِّعمةَ الكامِلَةَ مَنُوطَةٌ بها مَوقوفَةٌ على التَّحقُّقِ بها، أَغْنَتْه عن كَثيرٍ مِن الأدْوِيَةِ والرُّقى، واسْتفتَحَ بها من الخيرِ أبوابَه ودَفَعَ بها من الشرِّ أسبابَه.

وهذا أمرٌ يحتاجُ اسْتِحداثَ فِطرَةٍ أخرى، وعَقلٍ آخَرَ، وإيمانٍ آخَرَ، وتالله لا تَجِدُ مقالةً فاسدَةً، ولا بِدعَةً باطِلَةً، إلا وفاتحةُ الكتابِ مُتضمِّنَةٌ لرَدِّها وإبطالِها بأقرَبِ الطُّرُقِ وأصحِّها وأوضَحِها، ولا تَجِدُ باباً مِن أبوابِ المعارِفِ الإلهيةِ وأعمالِ القلوبِ وأدويتِها مِن عِلَلِها وأسقامِها إلا وفاتحةُ الكتابِ مفتاحُهُ ومَوضِعُ الدِّلالَةِ عليه، ولا مَنْزِلاً من مَنازِلِ السَّائرينَ إلى ربِّ العالمينَ إلا وبِدايَتُه ونِهايَتُه فيها.

ولَعَمْرُ الله إنَّ شأنَها لأعظَمُ مِن ذلكَ، وهِيَ فوقَ ذلكَ.

وما **تَحَقَّقَ عبدٌ بها واعتَصَمَ بها**، وعَقَلَ عمَّنْ تكلَّمَ بها، وأنزلها شِفاءً تاماً وعِصمةً بالغَةً ونُوراً مبيناً، وفَهِمَها وفَهِمَ لوازِمَها كما ينبغي، **ووقَعَ في بِدْعَةٍ ولا شِركٍ ولا أصابَهُ مَرضٌ من أمراضِ القُلوبِ إلا لَماماً غيرَ مستَقِرّ**.

هذا، وإنها **المفتاحُ الأعظَمُ لكُنوزِ الأرضِ، كما أنّها المفْتاحُ لكنوزِ الجنَّةِ**، ولكنْ ليسَ كلُّ واحِدٍ يُحسِنُ الفَتحَ بهذا المفتاحِ، ولَوْ أنَّ طُلابَ الكُنوزِ وَقَفُوا على سِرِّ هذه السورةِ، وتحقَّقوا بمعانِيها، وركَّبوا لهذا المفتاحِ

أسباباً، وأحسَنُوا الفتحَ به، لوَصَلُوا إلى تناوُلِ الكُنوزِ مِن غيرِ مُعـاوِقٍ ولا مُمانِعٍ. ولم نَقُلْ هذا مجازَفةً ولا اسْتعارَةً، بَلْ حَقيقةً، ولكنْ لله تعالى حكمـةٌ بالِغةٌ في إخفاءِ هذا السِّـرِّ عن نُفوسِ أكثَرِ العالمينَ، كما له حِكمَةٌ بالغَـةٌ في إخفاءِ كُنوزِ الأرضِ عنهم. والكنوزُ المحْجوبَةُ قدِ استُخْدِمَ عليهـا أرْواحٌ خَبيثةٌ شيطانِيَّةٌ تَحولُ بـينَ الإنـسِ وبينَهـا، ولا تقْهَرُهـا إلا أرواحٌ عُلوِيَّـةٌ شـريفةٌ غالبةٌ لها بحالها الإيمانيِّ، معها منه أسلحةٌ لا تَقومُ لهـا الشـياطينُ، وأكثرُ نفوسِ الناسِ ليسَـتْ بهـذه المثابَـةِ، فـلا يُقـاوِمُ تلـكَ الأرواحَ ولا يقهرُها، ولا ينالُ مِن سَلَبِها شيئاً، فإنَّ مَنْ قَتَلَ قتيلاً فلَهُ سَلَبُهُ).

وقالَ أيضاً: (وَمَنْ ذاقَ طعمَ الصّلاةِ عَلِـمَ أنـه لا يقـومُ غـيرُ التكبـيرِ والفَاتحةِ مقامَهُما، كما لا يقومُ غيرُ القِيامِ والركوعِ والسجودِ مقامَها، فلكُلِّ عبوديةٍ من عبوديةِ الصلاةِ سـرٌّ وتأثيرٌ وعبوديةٌ لا تحصُلُ مِن غيرِهـا، ثـم لكلِّ آيةٍ من آياتِ الفاتحةِ عبوديةٌ وذوقٌ ووَجْدٌ يَخُصُّها).

قلتُ: وإذا كانَ اسْتيعابُ معاني هذه السورةِ مُستَحيلاً؛ لأنـه يتَضَـمَّنُ فَهمَ معاني القرآنِ كلِّه فلا أقلَّ مِن مَعرِفَةِ بعضِ أصولِ معانيها وفوائدِها؛ ليكونَ ذلكَ مُعيناً على تدبُّرِها وفهمِها بإذنِ الله تعالى.

فإلى الوقَفاتِ القَادِمَةِ إنْ شاءَ اللهُ، سائِلينَ المولى سبحانَه أن يجعَلَنا مِـنْ أهلِ القرآنِ، وأن يُعينَنا على فهمِه وتدبُّرِه والعملِ بما فيه.

الوقفةُ الثالثةَ عشرةَ

قراءةُ الفاتِحَةِ

(٢)

بعدَ أن ذكرْنا بعضَ فَضائِلِ هذه السورةِ المبارَكَةِ التي هي أمُّ القرآنِ والتي جَمعَتْ معانيَ القرآنِ كلِّها، فما مِن آيةٍ في القرآنِ إلا وهي تَرجِعُ إلى الفاتحةِ بوَجْهٍ من الوجوهِ، سنحاوِلُ بِعَوْنِ الله وتوفيقِهِ بيانَ بعضِ مَعاني هذه السورةِ العظيمةِ وفوائِدِها مما يُعينُ على تدبُّرِها حالَ قراءتِها إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

مِن معاني وحِكَمِ سُورةِ الفاتحة:

ـ **قالَ تعالى:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

ـ **الحمدُ لله:** جملةٌ اسميَّةٌ مُكَوَّنَةٌ مِن مبتدأٍ وخبرٍ، تتضَمَّنُ الثَّناءَ على الله بذكرِ صِفاتِ كمالِه، **فالحمدُ:** الثناءُ على المحمودِ بما لَهُ من صِفاتِ الكَمالِ مَعَ الحبِّ والتَّعظيمِ؛ **فلا يكونُ الثّناءُ حَمْداً إذا خلا عَن الحبِّ والتَّعظيمِ، بلْ يكونُ مُجَرَّدَ مَدْحٍ**، واللهُ أعلمُ.

و(**أل**) التعريف في الكَلمةِ **تدُلُّ على العُمومِ** والجمعِ، أي: كلُّ الحمدِ في جَميعِ الأوقاتِ مِنْ جميعِ الموجوداتِ بجميعِ الهيئاتِ لله. **واللامُ** في (لله)

تدلُّ على **الاخْتِصاصِ**، أي: ما ذُكِرَ مِنَ الحمدِ خاصٌّ بالله تعالى.

والجملةُ الاسميَّةُ تدُلُّ على **الثُّبوتِ والاسْتِقرارِ**، أي: الحمدُ المذكورُ ثابتٌ لله تعالى مستَقِرٌّ له لا يزولُ عنه ولا يحولُ.

فمعنى (**الحمدُ لله**): أذكُرُ الله تعالى مُثْنياً عليه بما له مِنْ صِفاتِ الكَمالِ الثَّابتَةِ اللازِمَةِ له سبحانَه، مُعتَرِفاً بأنَّ الحمدَ له **وحدَه** جلَّ وعلا، حمداً كثيراً في جَميعِ الأوقاتِ مِن جميعِ الموجوداتِ.

وذلكَ أن اللهَ تعالى قدْ تَفَرَّدَ بصفاتِ كِمالِهِ ونُعوتِ جَلالِهِ، فلهُ الكمالُ سبحانَه من جميعِ الوجوهِ؛ في ذاتِه وأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه، فذاتُه ذاتُ الكَمالِ، وأسماؤُهُ كلُّها حُسنى، وصِفاتُه كلُّها صفاتُ الجلالِ والجَمالِ والعَظَمَةِ، وأفعالُه كلُّها أفعالُ الرَّحمةِ والعَدْلِ والحِكْمَةِ والمصلَحَةِ..

ولذلكَ فلا يُحمَدُ على كلِّ حالٍ إلا هُو سبحانَه، كما كان ﷺ يقولُ إذا أتاه الأمرُ يَسُرُّه: «**الحمدُ لله الذي بنِعْمَتِه تتِمُّ الصالحاتِ**»، وإذا أتاه الأمرُ يكْرَهُه قال: «**الحمدُ لله على كلِّ حالٍ**» وهو في سننِ ابنِ ماجه، وعمل اليوم والليلة للنَّسائيِّ، والمستدركِ، بسندٍ صحيحٍ.

وهذا الحمدُ له شأنٌ عَظيمٌ، فهو مَحبوبٌ إلى الرَّحمنِ الرحيم، وهو الذي يملأُ ميزانَ العبدِ بالحسناتِ، كما في صَحيحِ مُسلم عنه ﷺ أنه قالَ: «**الطُّهورُ شَطْرُ الإيمانِ، والحمدُ لله تملأُ الميزانَ**..»، وذلكَ لأنَّ فيه الثناءَ على الله تعالى بإثباتِ جَميعِ صِفاتِ الكَمالِ والجلالِ والعَظَمَةِ له سبحانَه.

ولابنِ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامٌ طيبٌ في معاني الحمدِ إذْ يقولُ: (**الحمدُ لله ربِّ العالمينَ: تجدُ تحتَ هذه الكلِمَةِ إثباتَ كلِّ كمالٍ للربِّ تعالى فِعلاً ووَصْفاً واسماً، وتَنْزيهَه عن كلِّ سوءٍ وعَيبٍ فِعلاً ووَصْفاً واسْماً**، فهو محمودٌ في أفعالِه وأوصافِه وأسمائِه، مُنَزَّهٌ عنِ العيوبِ والنّقائِصِ في أفعالِه وأوصافِه وأسمائِه، فأفعالُه كلُّها حِكمَةٌ ورحمَةٌ ومَصْلَحةٌ وعَدْلٌ، لا تخرُجُ عن ذلِكَ، وأوصافُه كلُّها أوصافُ كمالٍ ونُعوتُ جلالٍ، وأسماؤه كلُّها حُسنى، وحمدُه قد ملأ الدُّنيا والآخرةَ والسماواتِ والأرضَ وما بينَهما وما فيهما، فالكونُ كلُّه ناطقٌ بحمدِه، والخلقُ والأمرُ صادرٌ عن حمدِه وقائمٌ بحمدِه ووُجِدَ بحمدِه، وعدَمُه بحمدِه، **فحمدُه هو سببُ وجودِ كلِّ موجودٍ وهو غايةُ كلِّ موجودٍ**، وكلُّ موجودٍ شاهدٌ بحمدِهِ، وإرسالُه رسولَه بحمدِه، وإنزالُه كتبَه بحمدِه، والجنةُ عمِّرتْ بأهلِها بحمدِه، والنارُ عمرت بأهلِها بحمدِه، كما أنّهما إنّما وُجِدَتا بحمدِه، ولا يتحركُ في الكونِ ذرَّةٌ إلا بحمدِه، **وهو المحمودُ لذاتِه وإنْ لم يَحْمَدْه العبادُ**، كما أنّه هو الواحِدُ الأحدُ ولو لم يوحِّدْهُ العبادُ، والإلهُ الحقُّ وإن لم يؤلِّهوهُ، وهو سبحانَه الذي حَمِدَ نفسَه على لِسانِ القائِلِ: الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، كما في صحيحِ مسلمٍ عنِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قالَ: «**إنَّ الله تعالى قالَ على لسانِ نبيِّهِ: سمِعَ الله لمن حمده**»، فهو الحامِدُ لنفسِه في الحقيقةِ على لسانِ عبدِه، فإنه الذي أجْرى الحمدَ على لسانِه وقلبِه، وإجراؤُهُ بحمدِه، فله الحمدُ كلُّه، وله الملكُ كلُّه، وبيدِه الخيرُ كلُّه، وإليه يرجِعُ الأمرُ كلُّه، فهذه المعرفَةُ نبذةٌ يسيرةٌ مِن معرِفَةِ عبودِيَّةِ الحمدِ، وهي نِقطةٌ من بحرٍ لُجِّيٍّ.

ومن عبوديَّتِه أيضاً أن يَعلمَ أن حمـدَه لربِّـه سـبحانه نِعمـةٌ منـه عليـهِ، يستَحِقُّ عليها الحمـدَ؛ فإذا حَمِدَه على هذه النعمةِ اسْتَوجَبَ عليه حمداً آخَرَ على نِعمَةِ حمدِهِ وهلمَّ جَراً.

فالعبدُ ولو استَنْفَدَ أنفاسَهُ كلَّها في حمدِه على نِعمَةٍ مـن نِعَمِـهِ كـانَ مـا يجبُ له مِنَ الحمدِ ويستَحِقُّه فوقَ ذلِكَ وأضعافَه، ولا يُحصـي أحـدٌ ألبَتَّـةَ ثناءً عليه بمحامِدِه.

ومِن عبوديةِ الحمدِ شهودُ العبدِ لعَجْزِهِ عن الحمدِ، وأنَّ ما قامَ بـه منـه فالربُّ سبحانَه هو المحمودُ عليهِ؛ إذْ هو مُجرِيهِ على لسانِه وقلبِه، ولولا اللهُ ما اهتَدى أحدٌ.

ومن عبوديتِهِ تَسليطُ الحمدِ على تَفاصيلِ أحـوالِ العَبْـدِ كلِّهـا ظـاهرةً وباطنةً على ما يُحِبُّ العبدُ وما يكرَهُـهُ، بـل عـلى تفاصـيلِ أحـوالِ الخلـقِ كلِّهم، بَرِّهم وفاجِرِهِم، عُلوِيِّهِم وسُفلِيِّهِم، فهـو سـبحانه المحمـودُ عـلى ذلكَ كلِّه في الحقيقَةِ، وإنْ غابَ عن شُهودِ العَبْدِ).

فإذا استحْضَـرَ العبدُ هذا المعنى للْحَمدِ، وترسَّخَ في قلبِـه معـاني هـذه الأسماءِ والصفاتِ الثابِتَةِ لله تعالى دونَ سواهُ، أوْجَبَ له ذلكَ أنواعـاً مِـنَ العُبودِياتِ، منها:

ـ **حبُّ الله تعالى** فوقَ حُبِّهِ لما سواهُ؛ فيكونُ مِنَ المؤمِنينَ حَقاً كما قالَ اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وذلكَ أنَّ القَلبَ **يُحِبُّ بطَبْعِهِ مَنْ كانَ مُتَّصِفاً بشـيءٍ من الكَمالِ**، وكُلَّما ازْدادَ كـمالُ الشـيءِ

كلَّما عَظُمَتْ محبَّةُ القَلْبِ لَه؛ فالإنسانُ يُحِبُّ بِطبْعِهِ (الكريمَ) ويُبغِضُ (البَخيلَ) مَثلاً، ويُحِبُّ (الجَميلَ والحليمَ..)؛ وذلِكَ لأنّها صفاتُ مَدحٍ وكَمالٍ، فإذا اسْتَحضَرَ القَلبُ أنَّ الكمالَ كلَّه لله تعالى لا لسواهُ، وتَدَبَّرَ مَعانِيَ أسمائِهِ وصفاتِه، فإنه لا شَكَّ سَيُحِبُّهُ حُباً لا يحبُّه لِسواهُ، **وما نَقَصَتْ محبَّةُ العَبدِ لله إلا بِقَدرِ نُقصانِه مِنْ مَعرِفَةِ الله تَعالى.**

ـ **تَعظيمُ الله جلَّ وعلا** فوقَ كلِّ شيءٍ؛ وذلِكَ لأنَّ صفاتِ الكمالِ كما تقتَضي محبَّةَ الله فهي تقتَضي المهابَةَ والإجلالَ والتعظيمَ لِمَنْ اتَّصَفَ بها، خاصَّةً صفاتِ العظمةِ والكبرياءِ والقَهرِ والغَلَبَةِ والقوَّةِ والعِزَّةِ والملكِ وكَمالِ التَّصرُّفِ.. فمتى امْتَلأَ القلبُ بهذه المعرِفَةِ، واسْتحْضَرَ معانِيَ هذه الصفاتِ، عَظَّمَ اللهَ فوقَ كُلِّ شيءٍ، وخَضَعَ له أتمَّ خُضوعٍ، وتذلَّلَ له تَذَلُّلَ العبدِ المسكينِ الفَقيرِ إلى ربِّه وسيِّدِهِ الغنيِّ الذي لا يَستغني عنه طرفةَ عَينٍ، فكلُّ خَيرٍ وصلاحٍ فيه فهو مِنه سبحانَه، وما أصابَه مِن سُوءٍ إلا بسبَبِ بُعدِهِ عنه جلَّ وعلا.

ـ **حمدُ الله تعالى** يُوصِلُ العَبدَ إلى تَمامِ الرِّضا والتَّسليمِ بما يأتِيهِ مِن عِندِ ربِّه ومَولاهُ؛ لأنه إذا عَلِمَ أنَّ اللهَ تعالى له الكَمالُ المطلَقُ مِن جَميعِ الوُجوهِ في ذاتِه وأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه وأوامِره ونواهِيهِ، عَلِمَ أنه ما أمَرَ ولا نهى إلا بمقتَضى المصلحةِ، ولا قَضى ولا قَدَّرَ إلا على أساسِ الحِكْمَةِ التَّامَّةِ، فَسَلَّمَ لله تعالى وبَرِئَ من الاعتراضِ على الله بشيءٍ مِن أنواعِ الاعتراضاتِ التي يَقعُ بها الكثيرُ من الناسِ اليومَ مُتَّبعينَ في ذلِكَ إمامَهُم إبليسَ عليه لعنةُ الله، فإنَّه أوَّلُ مَنْ اعتَرَضَ على ربِّه وخالِقِه ومَوْلاهُ

ورَفَضَ السُّجودَ لآدَمَ عليه السلام مُدَّعِياً أن ذلكَ خلافُ العَدلِ والحقِّ، مُتَّهِماً ربَّهُ جلَّ وعلا بالنَّقصِ والعَيْبِ، جَهْلاً منه بصفاتِ الله تعالى وكمالِهِ وجَلالِهِ، فأَوْرَثَهُ ذلكَ الاعتراضَ على الله مما أوْجَبَ له اللَّعنَةَ الدائِمَةَ إلى يَومِ الدّينِ والعِياذُ بالله.

وهكذا كُلُّ مَن سارَ على سَبيلِهِ ومَنهَجِهِ كما يحدُثُ اليومَ مِن أكثَرِ النّاسِ: فهذا يَدَّعي بأنَّ شرعَ الله لا يصلُحُ لأيَّامِنا هذه، وذاكَ يعترِضُ على بعضِ الأوامِرِ وأنّها خلافُ المصلَحَةِ العامَّةِ، وآخَرُ يتَّهِمُ اللهَ في عَدْلِهِ وقَضائِه، ورابعٌ يَستَحْسِنُ خِلافَ ما جاءَ به الوحيُ.. وكلُّ ذلكَ بِسبَبِ الجهلِ العظيمِ بكمالِ الله تعالى وجلالِه ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾، وإلا لما وقَعوا في ذلكَ أبداً.

وهؤلاءِ قَدْ أقْسَمَ الله تعالى على عَدَمِ إيمانِهم فقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، فلا يُؤمِنُ العَبدُ حتى يجعَلَ الحُكْمَ في كلِّ شَيءٍ لله تعالى، ثم يَطْمَئِنَّ لحُكمِهِ سبحانَه ويُوقِنَ أنَّه الحقُّ الموافِقُ للمَصْلَحَةِ والخيرِ، فيطْمَئِنَّ له ويعلَمَ أنه الحقُّ مِن عِندِ الحقِّ الذي لا يأتيه الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ، ثم يُسَلِّمَ له تَسليماً تاماً، ومَن لم يَكنْ هذا حالُه مَعَ أحْكامِ الله فهو من المنافِقِينَ كما وَصَفَ اللهُ.

فالحذرَ أحبَّتي في الله من الوقوعِ في شيءٍ من هذه الأمورِ. ولا يعني هذا أنْ لا يَقَعَ العَبْدُ في المعْصِيَةِ، فالمعصِيَةُ لا بُدَّ مِنها، **ولكنَّ المؤمنَ إذا وَقَعَ فيها نَدِمَ وتابَ واسْتغفَرَ ورجَعَ إلى الله كما فعلَ آدمُ عليه السلامُ**، ولا

يُصِـرُّ على مَعصِيَتِهِ ويَستكبِرُ عَن طاعةِ ربِّهِ مُعتَرِضاً على أوامِرِهِ وأحْكامِـهِ فيكونَ مِن جِنسِ إبليسَ يُحشـر معه يومَ الدِّينِ والعياذُ باللهِ.

ـ **ربِّ العالمينَ:**

الربُّ: مِنَ التَّربيَةِ؛ والعالمينَ: كلُّ مَن سِوى الله تعالى.

فهو سبحانَه **الذي يُربِّي جَميعَ العالمينَ برحمَتِهِ**، فهو الذي خَلَقَهُم، وهـو الذي يرزُقُهُم ويدبِّرُ أمورَهم ويَهديهِمْ ويُرشِدُهم ويُميتُهم ويُحْييهم..

وخصَّ هذه الصفةَ مِن بينِ صِفاتِ كَمالِه وأسمائِه، لأنها **الصِّفَةُ الجامِعةُ لما يكونُ مِنَ الله تعالى للعبدِ**، وهي الصفةُ التي نالَ العبادُ بها كـلَّ صَـلاحٍ وخَيرٍ.

فالله هو الذي ربّاك يا ابنَ آدمَ قبلَ خَلقِكَ، وهو الذي ربّـاك فَخَلَقَـكَ في أحسَنِ تَقويمٍ، فحَسَّنَ ظاهرَكَ بأجمـلِ صُـورَةٍ وزَيَّـنَ باطِنَـكَ بـالفِطرةِ الحسنةِ، وهيَّأَ لكَ وأنتَ في بطنِ أمِّكَ كلَّ ما تحتاجُ إليه من الرزقِ والحيـاةِ والحمايةِ، ثم أخْرَجَكَ مِن مخرَجٍ ضَيِّقٍ لا يمكـنُ الخـروجُ منـه إلا بتَيْسـيرٍ منه، ثم ربّاك صغيراً ضعيفاً لا حولَ لكَ ولا قوةَ، وهيَّأَ مَن يقـومُ عليـكَ ويرعاكَ ويَسَّـرَ لكَ رِزقَكَ مِن حيثُ لا تَدري، ولما كبرتَ هيأَ لك أسبابَ الرِّزْقِ والهدى، وأنزلَ عليـكَ كُتُبَـهُ وأرسـلَ إليـك رُسُـلَه ليـتَمِّمَ بـذلك فطرتَكَ ويُرشِدَكَ إلى خَيرِكَ ويُبْعِدَ عنكَ مَكائِدَ عَدُوِّكَ.. وهكـذا أنـتَ لا تزالُ تتقلَّبُ في رِعايَتِهِ وعِنايتِهِ وتربيَتِهِ في كلِّ لحظةٍ ولا تَستغني عنه طرفـةَ عَيْنٍ، فكيفَ بعدَ ذلكَ تَكْفُرُهُ وتَعصـي أمرَهُ وتتركُ طاعَتَه والاستعانةَ بـه

في جَميعِ أمرِكَ وتظنُّ أنكَ بِغِنًى عنه وأن الأمورَ بيدِكَ أنتَ لا بيدِهِ؛ فتَعتَمِدَ على حَولِكَ وقُوَّتِكَ وأنتَ الفَقيرُ الضَّعيفُ الذي لا حولَ له ولا قوةَ، أليسَ هذا هو الجهلُ بِعَينِهِ، بلْ هو الحُمقُ والكُفرُ والعياذُ بالله من ذلك؟

فاعرِفْ نفسَكَ وقَدْرَكَ أخي أمامَ الله، وأنكَ الفقيرُ إليه في كلِّ لحظَةٍ، وأنه لو تَركَكَ لنَفْسِكَ لحظةً واحِدةً لهلَكْتَ ولضاعَتْ مصالِحُكَ ونالَكَ كلُّ شَرٍّ. وتأمَّلْ ما كان يدعُو به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربَّهُ قائلاً: «**يا حيُّ يا قيّومُ برحمتِكَ أستغيثُ، فلا تَكِلْني إلى نَفسي طرفَةَ عينٍ ولا إلى أحدٍ مِن خَلقِكَ**»، وهو عندَ النَّسائيِّ والحاكِمِ بإسْنادٍ حَسَنٍ.

فتأمَّلْ كيفَ دعاهُ بصِفَتَي الحياةِ والقيُّومِيَّةِ، **فإنَّ الحيَّ** هو الذي لا يموتُ ولا تأخذُهُ سِنَةٌ ولا نَومٌ، ولا يغفُلُ عن عبادِهِ لحظةً واحدةً. **وأما القَيُّومُ** فهو القائِمُ بنفسِهِ الغنيُّ عن عبادِهِ، القائمُ على عِبادِهِ، فلا قيامَ لهم بدونِه ولا صلاحَ لهم إلا به، فهم الفقراءُ إليه وهو الغنيُّ عنهم كما قال سبحانه وتعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥]، فتوسَّلَ إليه بهذَيْنِ الاسْمَينِ ثم استغاثَ برحمتِهِ الواسِعةِ التي وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ والتي عليها قامَ مُلكُهُ جلَّ وعلا، وهي السببُ الموصِلُ لهم إلى جميعِ الخيراتِ مِنَ الله تعالى، فسأله أن يُصلِحَ له جَميعَ شأنِهِ، فالصلاحُ بيدِهِ وحدَه، وتضرَّعَ إليهِ أن لا يَترُكَهُ لنفْسِهِ ولا لأحَدٍ من عبادِهِ طرفَةَ عَيْنٍ وإلا فإنه سيهْلِكُ.

فتأمَّلْ أخي ما في ضِمنِ هذا الدعاءِ مِنْ معرِفَةٍ بالله تعالى ومعرفَةٍ بالنفسِ القاصرةِ، وما فيهِ مِن افْتِقارٍ وتذَلُّلٍ وخُضوعٍ واعْتِمادٍ على الله

وحدَهُ، وهذا كلُّهُ مِن معرفَـةِ أن اللهَ ربُّ العـالمينَ وأنَّ الأمـورَ كلَّهـا بـينَ يديهِ، فاسْتَحضِـرْ هذا وأنتَ تقولُ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، وعَـوِّدِ القلبَ على هذا التأمُّلِ والتَّدبُّرِ، لِيمْتَلئَ محبـةً لله وخَوفـاً وتَعظيماً، فتنـالَ بذلكَ خيرَ الدنيا والآخرةِ وتكونَ من المفلحـينَ، جعلنـا الله تعـالى مـنهم بمنِّه وكرَمِهِ ورَحمَتِه.

ـ قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾.

اسمانِ لله تعالى يتضَمَّنانِ وصْفَ الله تعالى بِصِفَةِ الرَّحمةِ اللازِمَةِ لـه، والتـي من آثارِها تراحُمُ جَميعِ المخلوقاتِ، وكمالُها أن يرحمَ اللهُ العبدَ يومَ القيامَةِ.

وقد سَبقَ بيانُ معنى ذلكَ في الوقفَةِ الحادِيةَ عشـرةَ عنـدَ الكـلامِ عـلى البَسمَلةِ، والحمدُ لله.

وفي كلامٍ لابنِ القيمِ رحمهُ الله تعالى على هذه الجملةِ يقولُ:

(ولقَولِه ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ عبوديـةٌ تخصُّـها، وهـي شـهودُ عُمـومِ رَحمتِـه وسَعَتِها لكلِّ شـيءٍ، وأخْـذُ كـلِّ موجـودٍ بنَصـيبِه منهـا، ولا سـيَّما الرحمـةُ الخاصةُ التي أقامَتْ عبـدَه بـينَ يديـهِ في خِدمَتِـه؛ يناجِيـه بكلامِـه، ويتَمَلَّقُـه ويستَرْحِمُه، ويسألُه هدايَتَه ورَحمتَه وإتمامَ نعمتَه عليه، فهذا من رَحمتِـه بعبـدِه، فرحمتُه وَسِعَتْ كلَّ شـيءٍ، كما أنَّ حَمْدَه وَسِعَ كلَّ شـيءٍ).

وفي ذِكرِ (**الرحمنِ الرحيم**) بعدَ (**ربِّ العالمينَ**) إشـارةٌ إلى أن رُبوبِيَّـةَ الله تعالى ليستْ ربوبِيَّةَ قَهرٍ وغَلَبَةٍ فَقَـطْ، **بـلْ هـي ربوبيـةُ رَحمَـةٍ**، ومُلكُـهُ سبحانَه **ملكٌ قائِمٌ على رَحمةٍ واسِعةٍ وسِعَتْ كلَّ شـيءٍ**، ولولا هذه الرحمةُ

ما تركَ اللهُ على ظهرِ الأرضِ مِن دابَّةٍ، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥].

وفي الصّحيحَينِ عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه قالَ: «**إنَّ اللهَ كَتَبَ كتاباً فهو عِندَهُ فوقَ العَرشِ إنَّ رَحمتي سَبقَتْ غَضَبي**»، وفي رواية: «**غَلَبَتْ غضبي**».

وهذا هو السرُّ - واللهُ أعلمُ - **في اقترانِ اسْتوائِه سبحانَه على عَرشِهِ بالرَّحمةِ** كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وقال سبحانَه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٩﴾ [الفرقان: ٥٩]؛ **لأنَّ الاسْتِواءَ يدُلُّ على مُلكِهِ سبحانَه وتعالى الملكَ الواسعَ الشاملَ** لجميعِ المخلوقاتِ مِن جميعِ الوُجوهِ، ولذلِكَ **كانَ استواءً على أوسَعِ مخلوقاتِه** وهو العرشُ المجيدُ الواسِعُ، الذي ما السماواتُ والأرضُ والكرسيُّ بالنسبةِ له إلا كحَلقَةٍ ملقاةٍ في فلاةٍ من الأرضِ.

فاسْتوى سبحانَه على أوسَعِ مخلوقاتِه بأوسَعِ صفاتِه، ليَدُلَّنا على سَعَةِ رحْمَتِه، وأنَّ مُلكَه إنما قامَ على تِلكَ الرَّحمةِ الواسِعَةِ.

فإذا عَلمَ العبدُ هذا، اطْمأنَّ قلبُه وانْشَرَحَ صدرُه وعَلِمَ أنه يعامِلُ رباً رحماناً رحيماً سَبقَتْ رحمتُه غضبَه، فيرجو رحمتَه ويستغفِرُه من ذُنوبِه ويُحسِّنُ الظنَّ به ويتوبُ إليه إذا أذنبَ وعصى، وعَلمَ أن اللهَ لا يتعاظَمُه ذنبٌ أنْ يغفِرَهُ مهما كانَ كبيراً وأنه يغفِرُ الذنوبَ جميعَها ما عدا الشرك،

فيمتَلئ قلبُه حُباً لله ورجاءً برَحمَتِهِ، كما امتَلأَ عظمةً له وخَوفاً منه لّمـا عَلِـمَ أنه ربُّ العالمينَ سبحانه وتعالى.

وهذا هو الإيمانُ الصَّحيحُ الذي يَطيرُ بصاحِبِه على جناحَي الخوفِ والرجاءِ إلى الجنانِ: خوفٍ من عذابِ الله وبطشِه وعقابِه يمنَعُه من فِعلِ ما نهاه اللهُ عنه، ورجاءٍ برحمةِ الله وعفوِه يدفعُه إلى فِعلِ ما أمرَ الله به.

نسألُه سبحانَه برحمتِه الواسعةِ أن يُعينَنا على ذلِكَ، وأن يشرحَ صدورَنا لطاعَتِه، وأن يُوَفِّقَنا لما فيه رضاه، وأن يُدخلَنا يومَ القيامَةِ جنَّتَه برحمَتِه، إنه سميعٌ مجيبٌ، آمينَ.

ـ **قال تعالى:** ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾.

بعدَ أن يحمَدَ العبدُ ربَّه بأبلغِ الحمدِ والثَّناءِ، مُثبِتاً له جَميعَ صِفاتِ الكَمالِ والعَظمةِ، نافِياً عنه جَميعَ العُيوبِ والنَّقائِصِ، مُتأمِّلاً سَعَةَ رحمةِ الله تعالى التي قامَ عليها ملكُه وربوبيَّتُه فغَلَبَتْ غضبَه جلَّ وعلا، فيزدادُ حُباً لربِّه وثناءً عليه ورجاءً برحمَتِه مَعَ الخوفِ مِن عِقابِه وعذابِه فيكمُلُ بذلِكَ إيمانُه ويزدادُ عملُه.

بعد ذلكَ يقولُ العبدُ ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ **مُمَجِّداً ربَّه بذلِكَ مُتَذكراً يومَ الدينِ، وأنه يومُ الحسابِ والجزاءِ الذي يُجازَى فيه العبادُ على أعمالهم في هذه الدنيا.**

وفي القراءةِ الثانية (**مَلِكِ يوم الدّينِ**)، فهو سبحانَهُ **صاحبُ الملكِ المطلَقِ ليومِ الدينِ؛** فهو الذي يأتي به وقتَما شاءَ، **وهو الذي يحكُمُ فيه بينَ**

خلقِهِ لا يُشارِكُه أحدٌ في ذلكَ، فيحكُمُ بينَ المؤمِنينَ برحمتِه ويحكمُ بينَ الكافرينَ بعدْلِهِ.

وخصَّ الملكَ بيومِ الدينِ مع أنه المَلِكُ المالكُ دائماً وأبداً، لأنَّ كمالَ مُلكِهِ سبحانَه يظهَرُ عندَها؛ فلا مَلِكٌ ولا سَيِّدٌ ولا مُطاعٌ في ذلكَ اليومِ إلا الله تعالى، حيث يَذِلُّ لعَظَمَتِه جميعُ الجبابرةِ، ويخضَعُ لملكِهِ جميعُ الملوكِ، ويعلمُ الجميعُ أنَّ ما كانوا فيه من الملكِ والجاهِ والعَظمةِ والكبرياءِ في هذه الحياةِ ما كانَ إلا مجردَ أحلامٍ وأماني غرَّهم بها إبليسُ فدَفَعَهم إلى ما كانوا عليه من الظُّلمِ والتَّعدّي والطُّغيانِ إلا قليلاً ممن مَنَّ عليه ربُّه الرحمنُ.

والاعتقادُ بأنَّ الملكَ يومَ الدّين لا يكونُ إلا لله تعالى؛ **هو الذي يدفَعُ المؤمنينَ إلى العَملِ والطاعةِ** وتحمُّلِ المشاقِّ والمكروهاتِ والصبرِ على ما يَلقَوْنَ في سَبيلِ ذلكَ، لأنهم يؤمنونَ بأنَّ هذه الحياةَ لن تبقى وإنما سيذهَبونَ إلى يومٍ يحاسَبُ فيه العبدُ على عملِهِ، فينالُ المحسنُ أعظمَ الإحسانِ والنَّعيمِ، ويَصْلَى المذنِبُ المسيءُ أسوَأَ العذابِ الأليمِ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، فيجتَهِدون في العملِ لهذا اليومِ الذي اشْتاقَتْ إليه قلوبُهم وأيْقَنُوا بأنهم سيلاقُونَ فيه محبوبَهم سبحانَه وتعالى ويأخُذونَ أجورَهم وافرةً من ربِّهم الرحمنِ الرحيمِ، وأنه لنْ يُظْلَمَ هناك أحدٌ؛ لأنَّ المُلْكَ فيهِ لله وحدَه العَدْلِ الرحمنِ الرحيمِ، والحُكمَ له وحدَه لمْ يجعَلْه لملَكٍ مُقرَّبٍ فيُدْعَى، ولا لنبيٍّ مُرسَلٍ فيُسْأَلَ، ولا لأحَدٍ مِن خلْقِهِ فيُعْبَدَ مِن دونِه، ولولا هذا اليقينُ لما عَبَدَ أحدٌ ربَّه.

فسبحانَ مَن له مُلكُ كلِّ شَيءٍ، وسبحانَ من وسِعَتْ رحمتُه كلَّ

شـيءٍ، وسبحانَ خالقِ كلِّ شـيءٍ، وسبحانَ مَنْ لا يُعجِزُهُ شـيءٌ.

ولْيتَأَمَّلِ القارئُ لهذهِ الآياتِ عندَ تِلاوتِها جوابَ الله تعالى إيَّاهُ بقولِـه: (**حَمِدَني عَبدي**) و (**أثْنى عليَّ عَبدي**) و (**مجَّدَني عَبدي**)، بعدَ كلِّ جملـةٍ مـن الجمَلِ الثَّلاثِ، فيتَوَقَّفُ بعدَ كلِّ آيةٍ لحظَةً مُنتَظِراً ومُتَأمِّلاً جَـوابَ الـربِّ سبحانَه له بهذه الكلِماتِ وما فيها مِنَ القُرْبِ والرحمـةِ والمنَّـةِ مِـن الله ﷻ، فإنّه يقـولُ بعـدَ قـولِ العَبْـدِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: حَمِـدَني عبـدِي، ويقولُ بعدَ قَولِ العبدِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: أثْنى عليَّ عَبـدِي؛ لأنَّ **الثنـاءَ إنـما يكونُ بتكرارِ المحامِدِ وتَعدادِ أوْصَافِ المحمودِ**، ويقولُ بعـدَ قَـولِ العبـدِ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: مجَّدَني عَبْدي؛ وذلِكَ لأنه وصَفَهُ سبحانَه بتفرُّدِهِ بِمُلْكِ يومِ الدينِ، وهو الملكُ الحقُّ المتَضَـمِّنُ لظُهـورِ عَدلِـهِ وكِبريائِـه وعَظَمَتِـه ووَحدانِيَّتِه وصِدْقِ رسلِه، فسمّى هذا الثناءَ مجداً لأنَّ **التَّمجيدَ هو التوسع في الثناءُ بِصفاتِ العَظَمَةِ والجلالِ والعَدْلِ والإحسانِ.**

ولابنِ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامٌ رائعٌ في هذا الموضِعِ ذَكَره في كتـابِ الصـلاةِ له أذكُرُهُ بطولِهِ لفائِدَتِه قال:

(فيا لذَّةَ قَلبِهِ وقُرَّةَ عَينِهِ وسـرورَ نفسِهِ بقولِ ربِّهِ (عَبدي) ثلاثَ مراتٍ، فوالله لولا مَا على القُلوبِ مِنْ دُخانِ الشَّهواتِ وغَيْمِ النُّفـوسِ لاسْـتُطيرَتْ فَرَحاً وسُـروراً بقولِ ربِّها وفاطِرِها ومعبودِها (حَمِـدَني عَبـدي، وأثنـى عـليَّ عَبدي، ومَجَّدَني عَبدي)، ثمّ يكونُ لقَلبِهِ مجالٌ مِنْ شُهودِ هذهِ الأسماءِ الثَّلاثَـةِ التي هِيَ أصولُ الأسماءِ الحسنى، وهي: اللهُ والربُّ والرَّحمنُ.

فشاهَدَ قلبُهُ مِنْ ذكرِ اسمِ (**الله**) تبارَكَ وتَعالى إلهاً مَعبُوداً مَوجُوداً مَخُوفـاً

لا يَستَحِقُّ العبادَةَ غيرُه ولا تنبَغي إلا له، قد عَنَتْ له الوُجوهُ، وخَضَعَت له الموجوداتُ، وخَشَعَتْ لـه الأصـواتُ ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦]، وكـذلِكَ خَلَـقَ السَّـماواتِ والأرضَ ومـا بَينَهما، وخلقَ الجنَّ والإنسَ والطيرَ والوَحْشَ والجنَّةَ والنّارَ، وكذلِكَ أرسَلَ الرُّسلَ وأنزَلَ الكُتُبَ وشَـرَعَ الشَّـرائِعَ وألْزَمَ العِبادَ الأمرَ والنَّهْيَ.

وشاهَدَ مِن اسمِهِ (**ربِّ العالمينَ**) قَيّوماً قامَ بنفسِهِ وقامَ به كلُّ شَـيءٍ، فهو قائِمٌ على كلِّ نفسٍ بخَيْرِها وشـرها، قد اسْتَوى عـلى عرشِـه، وتفـرَّدَ بتَدبيرِ مُلْكِهِ، فالتَّدبيرُ كلُّـه بيديـهِ ومَصـيرُ الأمـورِ كلِّهـا إليـه، فمَراسِـيمُ التَّدبيراتِ نازِلةٌ مِن عندِه على أيدي ملائِكَتِـه بالعَطـاءِ والمنْـعِ، والخفْـضِ والرَّفْعِ، والإحياءِ والإماتةِ، والتّوبَةِ والعَزْلِ، والقَبْضِ والبَسْطِ، وكشْـفِ الكُروبِ، وإغاثةِ الملْهوفينَ، وإجابَةِ المضْطَرِّينَ، ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩﴾ [الرحمن: ٢٩]، لا مانِعَ لما أعْطَـى، ولا مُعْطـي لمـا مَنَـعَ، ولا مُعقِّبَ لحُكْمِه، ولا رادَّ لأمْـرِهِ، ولا مُبَـدِّلَ لكَلِماتِـه، تَعْـرُجُ الملائكـةُ والروحُ إليه، وتُعْرَضُ الأعمالُ أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه عليـه، فيُقَـدِّرُ المقـادِيرَ، ويُوَقِّتُ المواقيتَ، ثمّ يَسوقُ المقاديرَ إلى مَواقِيتِهـا قـائِماً بتَـدبيرِ ذلِـكَ كُلِّـهِ وحِفْظِهِ ومَصالِحِه.

ثم **يشْهَدُ** عندَ ذِكرِ (**الرحمنِ الـرحيمِ**) سـبحانَه **ربـاً مُحْسِـناً إلى خَلْقِـهِ** بأنواعِ الإحْسانِ، مُتَحَبِّباً إليهم بصُنوفِ الـنِّعَمِ، وَسِـعَ كـلَّ شـيءٍ رحمـةً وعِلْماً، وأوسَعَ كلَّ مَخلـوقٍ نِعمَـةً وفَضْـلاً، فوَسِـعَتْ رحمتُـه كـلَّ شَـيءٍ

ووَسِعَتْ نِعمتُه كلَّ حَيٍّ، فبَلغَتْ رَحمتُه حيثُ بَلَغَ علمُه، فاسْتَوى على عَرشِهِ برَحْمَتِه، وخَلَقَ خَلقَهُ برحمتِهِ، وأنـزَلَ كُتُبَهُ برَحْمَتِه، وأرسَلَ رُسُلَهُ برَحْمَتِه، وشَرَعَ شرائِعَهُ برَحْمَتِه، وخَلَقَ الجَنَّةَ برَحْمَتِهِ، والنارَ أيضاً برحمتِه؛ فإنّها سَوْطُه الذي يَسوقُ بهِ عِبادَهُ المؤمنينَ إلى جَنَّتِهِ، ويُطَهِّرُ بها أدْرانَ الموحِّدينَ مِن أهْلِ مَعْصِيَتِهِ، وسِجْنُه الذي يسْجُنُ فيه أعْداءَه مِن خَليقَتِهِ.

فتَأمَّلْ ما في أمرِهِ ونهيِهِ ووصاياهُ ومواعِظِهِ مِن الرَّحمةِ البالغَةِ، والنِّعمَةِ السَّابِغَةِ، وما في حَشوِها من الرَّحمَةِ والنِّعمَةِ، فالرَّحمَةُ هي السَّبَبُ المتَّصِلُ منه بعبادِهِ كما أنَّ العبوديةَ هِيَ السَّببُ المتَّصِلُ منهم به، **فمنهُم إليه العبوديةُ، ومِنْه إليهِمُ الرّحمةُ.**

ومِنْ أخَصِّ مَشاهِدِ هذا الاسمِ؛ شهودُ المصلّي نَصيبَهُ من الرحمةِ الذي أقامَهُ بها بينَ يدَيْ ربِّهِ، وأَهَّلَهُ لعبودِيَّتِهِ ومُناجاتِهِ، وأعْطاهُ ومَنَعَ غيرَه، وأقبَلَ بقَلبِهِ وأعرَضَ بقلبِ غيرِه، وذلكَ مِن رحمتِهِ بِهِ.

فإذا قالَ: (**مالك يوم الدين**) فهنا **شَهِدَ المجْدَ** الذي لا يليقُ بسوى الملِكِ الحقِّ المبينِ، فيَشْهَدُ مَلِكاً قَاهِراً قد دانَتْ له الخَليقَةُ، وعَنَتْ له الوُجوهُ، وذَلَّتْ لعَظَمَتِهِ الجبابِرَةُ، وخَضَعَ لعِزَّتِهِ كلُّ عزيزٍ.

فيشْهَدُ بقلبِهِ **مَلِكاً على عَرْشِ السَّماءِ مُهَيْمِناً،** لِعِزَّتِه تَعْنُو الوُجوهُ وتَسجُدُ، وإذا لم تُعطَّلْ حَقيقَةُ صِفَةِ المُلْكِ أطْلَعَتْهُ على شُهودِ حَقائِقِ الأسماءِ والصفاتِ التي تَعْطِيلُها تَعْطِيلٌ لمُلكِهِ وجَحْدٌ له؛ فإنَّ المَلِكَ الحقَّ التامَّ الـمُلْكِ لا يكونُ إلا حَياً قَيّوماً سَميعاً بصيراً مُدَبِّراً قادِراً مُتَكلِّماً آمراً

ناهِياً، مُسْتوياً على سَـــريرِ مملَكَتِـهِ، يُرسِـلُ إلى أقاصـــي مملكتِـه بـأوامِرِه، فيَرْضـى على مَن يستَحِقُّ الرِّضا ويُثيبُه ويُكْرِمُه ويُدْنِيه، ويغضَبُ على مَن يَستَحِقُّ الغَضَبَ ويُعاقِبُه ويُهينُه ويُقصِيه، فيُعَذِّبُ مَن يشـاءُ ويـرحَمُ مَـنْ يشاءُ، ويُعطي مَن يشاءُ ويمنَعُ مَن يشاءُ، ويقرِّبُ مَن يشاءُ ويُقصـــي مَـن يشاءُ، له دارُ عذابٍ وهي النَّارُ، وله دارُ سَعادَةٍ عظيمةٍ وهِيَ الجنَّـةُ، فمَـنْ أبطَلَ شـيئاً مِن ذلِكَ أو جَحَدَهُ وأنْكَرَ حَقيقَتَه فقَدْ قَدَحَ في مُلْكِـهِ سـبحانه وتعالى ونَفى عنه كَمالَه وتمامَه، وكذلِكَ مَنْ أنكَرَ عُمومَ قَضائِهِ وقَدَرِهِ فقَـدْ أنكَرَ عُمومَ مُلكِهِ وكَمالِه، فيَشْهَدُ المصلّي مَجْدَ الربِّ تعـالى في قولِـه: مالِـكِ يومِ الدِّينِ) انتَهى كلامُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ـ **قالَ تعالى:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

قدَّمَ المفعولَ (**إيَّاكَ**) على الفِعلِ (**نَعبُدُ ونَستعينُ**) ليدُلَّ عـلى الاهـتِمامِ والحَصْـر.

فالحصْـرُ بمعنى: **لا نَعبُدُ إلا إيّاكَ ولا نَستعينُ إلا بِكَ.**

والاهتِمامُ أي: الاهتمامُ بالمقدَّمِ؛ وهـو الضّـميرُ (إيّـاكَ) الراجِـعُ إلى ربِّ العالَمِينَ.

والعِبادَةُ: أصْلُها التَّذَلُّلُ، **وعِبادَةُ الله تعالى تجمَعُ أمرَيْنِ: غَايَةَ الذُّلِّ مـع غَايةِ المحبَّةِ،** فلا تَكونُ عِبادةً بمجرَّدِ الذُّلِّ حتى تجمَعَ المحبّةَ أيضاً.

تَقولُ العربُ: طَريقٌ معبَّدٌ، أيْ: مُذَلَّلٌ للناسِ مسَـخَّرٌ لهـم، يَسـيرونَ عليهِ بكُلِّ سهولةٍ ويُسـرٍ، **فكَذلِكَ العبدُ: هوَ الـذي سَـخَّرَ نفسَـه وذلَّلَهـا**

باطِناً وظاهِراً لله؛ بحيثُ يَسيرُ عليهِ أَمْرُ الله تعالى بكلِّ سُهولَةٍ ويُسْرٍ، فلا يكونُ هناك شُبهَةٌ تُعارِضُ خَبَرَهُ ولا شَهْوةٌ تعارِضُ أمرَه.

وعليه؛ **فالعِبادةُ كَلِمَةٌ جامِعةٌ لكلِّ ما يُحِبُّه اللهُ ويرضاهُ من الأقوالِ والأعمالِ الظاهرةِ والباطِنَةِ. وهي نابِعَةٌ مِن مَعرِفَةِ العَبدِ بربِّه وما يَسْتَحِقُّه سبحانَه من صِفاتِ الجلالِ والكَمالِ والعَظَمةِ التي تُوجِبُ حبَّه وتَعظيمَهُ والخضوعَ له.**

والاستِعانَةُ: طَلَبُ الإعانَةِ، وهي تجمَعُ أمرَيْنِ: **غَايَةَ الافْتِقارِ مع غايةِ التوَكُّلِ**، فلا تكونُ اسْتِعانةً إلا مع هذينِ الأمْرَيْنِ النّابِعَينِ مِن مَعرِفةِ العَبْدِ بنفسِهِ، وأنّه لا يَمْلِكُ لنفسِه شَيئاً، بل لا يَستَطيعُ أن يتَحرَّكَ في صَغيرةٍ ولا كَبيرةٍ إلا بإعانةِ الله له، فهو الفَقيرُ المحتاجُ إلى ربِّهِ في كلِّ طرْفَةِ عَينٍ، ولهذا فهُو يَتَضَرَّعُ إليهِ تَضَرُّعَ العَبدِ الفَقيرِ الذَّليلِ المحتاجِ.

وقَدْ اشْتَمَلَتْ هذه الجملةُ على **سِرِّ الخلقِ والأمْرِ**، وجمَعَتِ الدِّينَ كلَّه، وتَضَمَّنَتْ نَوْعَيِ التَّوحيدِ لله تعالى، وَهُما: **توحِيدُ الألوهِيَّةِ وتَوحيدُ الرُّبوبيةِ**، وأنَّ اللهَ تعالى هو المعبودُ وحدَهُ تذَلُّلاً ومحبَّةً وتَعظيماً، كما أنّه المسْتَعانُ وَحْدَه افْتِقاراً وتوَكُّلاً واعْتِماداً.

وقد ورَدَ في بعضِ الآثارِ أنَّ اللهَ تعالى جَمَعَ مَعانِيَ كُتُبِهِ المنزَلَةِ في أربَعَةِ كُتُبٍ وهي: التّوراةُ والإنجيلُ والزَّبورُ والقُرآنُ، وجمعَ معانيَ الأربَعَةِ في القُرآنِ، وجمعَ معانيَ القُرآنِ في المفصَّلِ من القُرآنِ، وجمعَ معانيَ المفصَّلِ في الفاتحةِ، وجمعَ معانيَ الفاتحةِ في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

وهذا واضِحٌ لمنْ تأمَّلَ.. **فإنَّ اللهَ إنّما خَلَقَ الخلقَ لعِبادَتِهِ**، فحياةُ العَبدِ

ينبغي أن تكونَ كلُّها عُبوديَّةً لله، ولا يتَأَتّى له ذلك إلا بإعانةِ الله تعالى له، وهذا يرجِعُ إلى قولِه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وتأمَّلْ كيفَ تكرَّرَ لَفظُ (إيّاكَ) ولمْ يقُلْ (إيّاكَ نعبُدُ ونَستعينُ)، ليدُلَّ على أنَّ **كلَّ واحِدٍ منَ الفِعلَيْنِ مُستَقِلٌّ مقصودٌ بنفسِهِ**، فلا نَعبُدُ إلا إياهُ، ولا نَستَعينُ إلا به.

وجاءَ بنونِ الجمعِ في الفِعلَيْنِ ليَشْعُرَ العَبدُ أنه واحِدٌ من هؤلاءِ المخلوقينَ الذينَ يجِبُ عليهِمْ عِبادَةُ الله، وأنه ليسَ وحدَه يؤدّي ذلِكَ، بل عِبادَةُ الله أعْظَمُ وأَخْطَرُ من أنْ يؤدِّيَ حقَّها واحِدٌ مهما بَلَغَ مِنَ العِبادةِ، وفي ذلك مِن عَظيمِ التَّواضِعِ لله تعالى ما هو ظاهرٌ.

كما أنَّ فيها تنبيهاً على أهميّةِ الجماعَةِ في الصلاةِ، فأحسنُ شيءٍ في الصّلاةِ، وأكثَرُ ما يُحصّلُ من فوائدِها أن تكونَ جماعةً، فليسَ أنتَ وحدَكَ من تعبُدُ الله، بل كلُّ المخلوقاتِ تعبُدُه وتسبِّحُه وتسجدُ له، سبحانه وتعالى .

وتَحَوَّلَ الكَلامُ مِن الغائبِ إلى المخاطَبِ فيه فائدةٌ عظيمةٌ وسِرٌّ بديعٌ، هو سِرُّ الصلاةِ ؛ فإنَّ العبدَ إذا صلى ووقفَ بينَ يدي الله وذكرَ حمدَه والثناءَ عليه باعتقادٍ صحيحٍ وإيمانٍ صحيحٍ، تقرَّبَ إلى الله وحضَرَ بينَ يديْه، وأصبحَ بإمكانِه أن يُخاطبَه وكأنّه أمامَه، فقالَ : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فمَنْ تَدَبَّرَ ما مَضى مِن مَعاني السّورَةِ واعْتَقَدَها أصْبَحَ مؤهَّلاً للوُقوفِ بينَ يدَيْ الله ومخاطَبَتِه، ومن لمْ يعتَقِدْ بهذه الصّفاتِ ولم يؤمِنْ بها لا يكونُ مؤهّلاً لذلِكَ . فتأمّلِ الخيرَ العظيمَ الذي يُحصِّلُه العبدُ مِنْ تَدَبُّرِ

آياتِ القُرآنِ والتّفكّرِ فيها وبِدَقائِقِها.

لأنّه لما أثْنى على الله تعالى في الآياتِ السابقةِ فقَدْ تقرَّبَ إلى الله وحَضَرَ بينَ يديهِ، فخَاطَبَه بقولِه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وهذهِ الجملةُ **نِصْفُها للعَبْدِ ونِصْفُها للربِّ** سبحانه، فـ (**إيّاكَ نعبُدُ**) نَصيبُ الربِّ، و (**إيّاكَ نَستَعينُ**) نَصيبُ العَبدِ، ولهذا يقولُ اللهُ تعالى إذا قالها العَبدُ: «**هذه بَيْني وبَيْنَ عَبدِي ولِعَبدي ما سَأَلَ**».

وقدَّمَ (إيّاكَ نعبُدُ) على (إيّاكَ نَستعينُ) **لأنَّها نَصيبُ الربِّ** ﷻ، ولأنّها المَقْصودةُ، أمّا الاستعانَةُ فهي الوَسيلةُ إليها.

ومِن كلامِ ابنِ القيِّمِ حولَ هذه الآيةِ: (فإذا قالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ انْتَظَرَ جوابَ ربِّه له: هذا بَيْني وبينَ عَبدي ولِعبدي ما سَأَلَ، وتأمَّلَ عبودِيَّةَ هاتَينِ الكَلِمَتَيْنِ وحُقوقَهُما، ومَيَّزَ الكَلِمَةَ التي لله والكلمةَ التي للعبدِ، وفَقِهَ سِرَّ كَونِ إحداهما لله والأخرى للعبدِ، ومَيَّزَ بينَ التوحيدِ الذي تقتَضيهِ كلمةُ (إياكَ نعبُدُ) والتوحيدِ الذي تقتَضيه كَلمَةُ (إياكَ نستعينُ)، وفَقِهَ سِرَّ كونِ هاتينِ الكَلِمَتَيْنِ في وَسَطِ السورةِ بينَ نوعَيْ الثناءِ قبلَهما والدُّعاءِ بعدَهما، وفَقِهَ تقديمَ (إياكَ نعبدُ) على (إياكَ نستعينُ)، وتقديمَ المعمولِ على العامِلِ مع أنَّ الإتيانَ به مؤخَّراً أوجَزُ وأخصَرُ، وسِرَّ إعادَةِ الضميرِ مرةً بعدَ مرةٍ، وعَلِمَ ما تَدْفَعُ كلُّ واحدةٍ من الكلمَتينِ مِنَ الآفَةِ المنافِيةِ للعبوديةِ، وكيفَ تُدخِلُه الكَلمتانِ في صَريحِ العبوديةِ، وعَلِمَ كيفَ يدورُ القرآنُ من أولِهِ إلى آخرِه على هاتينِ الكلمتينِ، بل كيفَ يدورُ عليهما الخلقُ والأمرُ والثوابُ والعِقابُ والدّنيا والآخِرَةُ، وكيفَ

تضمَّنَتا لأجَلِّ الغاياتِ، وأكمَلِ الوَسائِلِ، وكيفَ جِيءَ بهما بضَميرِ الخطابِ والحضورِ دونَ ضَميرِ الغائِبِ، وهذا مَوضوعٌ يستَدْعي كِتاباً كبيراً، ولولا الخروجُ عما نحنُ بصَدَدِهِ لأوْضَحْناه وبَسَطْنا القولَ فيهِ..).

ـ **قال تعالى:** ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾.

هذه الجملَةُ هِيَ نَصيبُ العَبدِ مِن الفاتِحَةِ كما في الحديثِ القدْسيِّ أنَّ اللهَ تعالى يقول: «**هذه لعَبدي ولِعَبدي ما سَأَلَ**».

وهذا الدُّعاءُ هو **أوجَبُ دُعاءٍ على العَبدِ**، وفاقَتُه وضَرورَتُه إليه أعْظَمُ من حاجَتِهِ وضَرورَتِه للطَّعامِ والشَّرابِ، بلْ حَتى مِن النَّفَسِ؛ فإنه مُحتَاجٌ إلى الهدايَةِ في كُلِّ طَرفَةِ عَينٍ ومَعَ كُلِّ نَفَسٍ، **وهيَ الهدايةُ إلى الطَّريقِ الموصِلِ إليه سبحانه، والهدايةُ في هذا الطّريقِ**، وذلكَ بمَعْرِفَةِ تَفاصِيلِ ما يحِبُّه الله ويرضاهُ، ثمّ خَلْقِ القُدرَةِ فيه على الفِعْلِ وإرادَتِهِ وإيقاعِهِ على الوجْهِ المرضِيِّ المحبوبِ لله سبحانَه وتعالى، ثم حِفْظِه عليه من مُفسِداتِه التي تُفسِدُهُ حالَ فِعلِهِ وبعدَ فِعلِه.

ولما كان العبدُ **مُفتَقِراً في كلِّ حالٍ إلى هذه الهدايةِ** في جَميعِ ما يفعَلُه ويتْرُكُهُ، **فَرَضَ اللهُ سبحانَه عليه أن يسأَلَه هذه الهدايةَ في أفضلِ أحوالِهِ** مَراتٍ متعدِّدَةً في اليومِ والليلةِ، ففَرَضَ عليهِ قراءةَ هذه السُّورَةِ الجامِعةِ لمعاني الخيراتِ المتَضَمِّنةِ لهذا الدُّعاءِ.

ـ **من آدابِ الدُّعاءِ:**

وقدَّمَ سبحانه لهذا الدعاءِ العَظيمِ أنْواعاً مِنَ المقدّماتِ هِيَ **آدابُ**

الدُّعاءِ وأسبابُ إجابَتِهِ يَنبَغي التمَسُّكُ بها عندَ كُلِّ دعاءٍ، وهِيَ:

ـ **الثَّناءُ على الله** بما هو أهلُه وذِكرُ ما يتناسَبُ مع المطلوبِ مِنْ أسمائِه وصِفاتِهِ امْتِثالاً لأمرِ الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف].

ـ **إظْهارُ العبوديةِ لله والخضوعِ والطاعَةِ له**، وأنَّ العَبْدَ سائِرٌ على طَريقِ العبودِيةِ ما استَطاعَ راضِياً بهذا فَرِحاً مَسروراً لا يرضى له بَديلاً، **فهو أشْرفُ مقاماتِه**، وهو الذي وصَفَ الله تعالى بِهِ نبيَّه في أشْرفِ المقاماتِ؛ فقالَ في مَقامِ الإسراءِ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١]، وقال في مقامِ الدَّعوةِ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: ١٩]، وقالَ في مَقامِ إنزالِ القرآنِ عليهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف].

ـ **إظهارُ الافتِقارِ والحاجَةِ** إليه فوقَ كلِّ حاجَةٍ فلا يَستَغني عنه طَرفَةَ عَينٍ، بلْ يُسَلِّمُ إليه في جميعِ حاجاته، مُتَبَرِّئاً من كلِّ حَولٍ وقوةٍ.

ـ **الصِّراطَ المستَقيم:**

ثم بَيَّنَ سبْحانَه الصِّراطَ المطلوبَ، وذلِكَ **بذِكرِ السَّالكينَ له**، وهُمُ الذين أنْعَمَ اللهُ عليهم منَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشهداءِ والصَّالحينَ، كما ذَكَرَهُم في سُورةِ النِّساءِ.

وفي ذِكرِ ذلكَ إشْعارُ المؤمِنِ بأنَّ ما يَطلُبُه ليسَ شيئاً سَهلاً، بلْ هوَ

طالِبٌ لِسُلوكِ سَبيلِ أحَبِّ الخلْقِ إلى الله، وأنّه إنْ رأى قِلَّةَ السالِكِينَ لهذا السَّبيلِ فلا يَسْتَوْحِشْ؛ **فهوَ سَبيلٌ قَليلٌ مَنْ يَسلُكُهُ مِنَ الناس**، فلا يَغْتَرَّ بكَثْرَةِ الهالِكِينَ مِمَّنْ خَالَفَهُ، ولْيُصَبِّرْ نفسَهُ على سُلوكِهِ مُتَأمِّلاً حالَ مَنْ سَبَقَهُ عليه وكيفَ كان عاقِبَتُه إلى أفْضَلِ حَالٍ، فإنّما هِيَ لحظاتٌ ثم يكونُ معَهَم في الجنانِ، جَعلنا الله منهم ومعهم بمَنِّه وكَرَمِهِ.

وهذا الصِّراطُ هو السَّبيلُ الوَحيدُ الموصِلُ إلى الله تعالى وجِوارِهِ في جَنَّتِهِ دارِ السَّلام، وهوَ طَريقُ التّوحيدِ والعبودِيةِ لربِّ العالمينَ، وهو طَريقٌ واحِدٌ لا ثَانِيَ له ولا يمكنُ الوُصولُ إلى الله تعالى إلا مِنْ خِلالِهِ، **ولذِلكَ عَرَّفَهُ باللامِ ليدُلَّ عَلى تَعَيُّنِهِ طَريقاً للنَّجاةِ**، وما سِواهُ مِنَ الطُّرُقِ لا يُوصِلُ إلا إلى النارِ كما في حَديثِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عندَ أحمدَ والنسائيِّ والدارميِّ وغيرِهم أنه قالَ: خَطَّ لنا رَسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على الأرضِ خَطاً وقالَ: «**هذا سَبيلُ الله**»، وخطَّ عن يَمينِهِ خُطوطاً وعن شِمالِهِ خُطوطاً وقالَ: «**هذه السُّبُلُ، وعلى رأسِ كُلِّ سَبيلٍ شَيطانٌ يَدعُو إليهِ**»، ثم قرأَ قولَه تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وفي وصفِ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ للصّراطِ بالحديثِ السابِقِ تنبيهٌ على أنَّ الصراطَ طريقٌ فيه خطَرٌ شديدٌ، وعلى جنبَتيه تلكَ السّتورُ التي يُدْعى لفَتْحِها، وهي المحرّماتُ التي إنْ فتَحَها ولَجَها، فأصبَحَ من المغضوبِ عليهم أو مَنَ الضالّينَ، ولا نجاةَ إلا بتوفيقِ الله تعالى له وهدايَتِه لسلوكِ طريقِ المنعَمِ عليهم.

فلمّا كانَ سَبيلُ النّجاةِ واحِداً، ولا يمكنُ الوُصولُ إليه إلا بِتَوفِيقِ مَنْ بِيدِهِ الأمُورُ كلُّها، كان هذا الدّعاءُ أهمَّ ما يدْعُو به العبدُ وأكثرَ ما يحتاجُ إليه في حياتِه وبعدَ مماتِه حتى يَصِلَ إلى الجنَّةِ برَحمةِ الله وفضْلِهِ، فما مِنْ لحظةٍ إلا والعبدُ محتاجٌ فيها لتَوفيقٍ وإعانَةٍ على عُبودِيةٍ جديدةٍ وتثبيتٍ عليها ومَعرِفةٍ لغيرِها، وهكذا أبداً..

ـ أقَسامُ الناسِ بالنّسبَةِ للهدايةِ:

وفي هذهِ الآيةِ قَسَّمَ اللهُ تعالى الناسَ إلى **ثَلاثَةِ أقسامٍ** لا رابعَ لها، وهم: **المُنْعَمُ عليهم، والمغْضوبُ عليهم، والضّالونَ.**

فالمنعَمُ عليهم هم الذينَ عَرفُوا الحقَّ وسَلَكُوهُ، والمغضوبُ عليهم هم الذينَ عَرَفوا الحقَّ وخَالَفُوه، والضّالونَ هُمُ الذينَ لمْ يَعرِفُوا الحقَّ، بل عَبَدوا اللهَ على جَهْلٍ؛ فإنَّ الإنسانَ إما أنْ يعرِفَ الحقَّ وإما أنْ لا يعرِفَهُ، وإنْ عَرَفَهُ فإمّا أن يتَّبِعَهُ وإما أنْ لا يَتّبِعَه، فهذه أصنافٌ ثلاثةٌ لا رابعَ لها.

وقد صحَّ عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه قالَ: «**المغْضوبُ عليهِمُ اليهودُ، والضّالون النَّصارى**»، وهو عندَ أحمدَ والترمذيِّ وابنِ حِبّانَ.

وكانَ **اليهودُ أخصَّ بوَصْفِ الغضَبِ** مِن غَيْرِهم؛ لأنّهُم خالَفُوا الحقَّ بعدَ مَعرِفَتِهِ، كما قال تَعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وهكذا كلُّ مَنْ **تشبَّهَ بهم وسارَ على طَريقِهِم**، فلهُ نصيبٌ من هذا الغضبِ يؤدي به إلى أن يُحشَرَ مع اليهودِ يومَ القيامةِ، «**ومَن تَشَبَّهَ بقومٍ**

حُشِـر معهم».

وكان النَّصارى أخصَّ بوصْفِ الضَّلالِ؛ لأنهم لم يعرِفوا الحقَّ بلْ ضَلّوا في معرِفَةِ ربهم أعظَمَ ضَلالٍ، **وهكذا كُلُّ مَنْ تشبَّهَ بهِم وتَرَكَ تَعَلُّمَ ما يجِبُ عليهِ مِنْ مَعرِفَةِ الله وشَـرْعِهِ ودِينِه**، فله نَصيبٌ من الضَّلالِ بحسب جَهلِـهِ، يؤدّي به إلى أن يُحشَـرَ مَعَ زُمرَةِ النّصارى إلى النارِ، والعياذُ بالله.

وسَبيلُ النَّجاةِ سَبيلٌ واحِدٌ، وهو صِـراطُ الله المستقيمُ المخالِفُ لِسَبيلِ المغضوبِ عليهم وسبيلِ الضَّالّينَ، وهـو **مَعرِفـةُ مـا جـاءَ بـه رَسـولُ الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **والتَّمَسُّكُ به، والسَّيرُ عليهِ بصدقٍ وإخلاصٍ**، وهـو الـذي قـالَ اللهُ تعـالى فيـه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

وتأمَّلْ كيفَ تَطابَقَ آخرُ السورَةِ مع أوَّلِها أتمَّ مُطابَقَـةٍ، فجـاءَ في أوَّلِهـا ذكرُ أسماءِ الله تعالى الثلاثةِ: **اللهُ والربُّ والرحمنُ** عـلى التَّرتيـبِ، ثـم جـاءَ التعبُّدُ الذي يكونُ بألوهِيَّتِهِ، ثم الاستِعانَةُ التي تكون بربوبيتِهِ، ثم الهدايـةُ إلى الصـراطِ المستقيمِ التي تكون برحمتِهِ، **وهو المنفَرِدُ بكلِّ ذلكَ سـبحانه، لا يُعبَدُ سواهُ، ولا يُعينُ على عبادَتِهِ سواهُ، ولا يهدي سواه.**

ومِنْ كلامِ ابنِ القيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حَوْلَ هـذهِ الآيـةِ: (ثـمّ تأمَّـلْ ضَـرورَتَه وفَاقَتَهُ إلى قَولِـه ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ الـذي مَضـمُونُه: مَعرِفَـةُ الحـقِّ، وقَصْدُه، وإرادَتُه، والعمَلُ به، والثّباتُ عليهِ، والدعوةُ إليه، والصّبْرُ عـلى أذى المدْعُوِّ، فباسْتِكمالِ هذه المراتِبِ الخمسِ تُستَكْمَلُ الهدايةُ، وما نَقَـصَ منها نَقَصَ مِن هِدايَتِه.

ولما كانَ العبدُ مُفتَقِراً إلى هذهِ الهدايَةِ في ظاهِرِه وباطِنِه في جَميعِ ما يأتيهِ ويَذَرُه مِن أمورٍ قد فَعَلَها على غَيرِ الهدايةِ عِلْماً وعَمَلاً وإرادةً، **فهو محتاجٌ إلى التوبَةِ منها**، وتوبَتُه منها هِيَ مِنَ الهدايَةِ، وأمورٌ قد هُدِيَ إلى أصلِها دونَ تفصيلِها، **فهو محتاجٌ إلى هِدايَةِ تفاصيلِها**، وأمورٌ قد هُدِيَ إليها من وَجهٍ دونَ وجهٍ، **فهو محتاجٌ إلى تمامِ الهدايَةِ فيها** لِتَتِمَّ له الهدايةُ ويزدادَ هُدىً إلى هداهُ، وأمورٌ **يحتاجُ فيها إلى أن يحصُلَ له من الهدايَةِ في مُستَقبَلِها** مثلَ ما حَصَلَ في ماضِيها، وأمورٌ يعتَقِدُ فيها بخلافِ ما هِيَ عليه **فهو محتاجٌ إلى هِدايَةٍ تَنسَخُ مِن قلبِهِ ذلكَ الاعتِقادِ**، وتُثبِتُ فيه ضَدَّه، وأمورٌ مِن الهدايَةِ هو قادِرٌ عليها، ولكنْ لم يُخلَقْ له إرادةُ فعلِها، **فهو محتاجٌ في تمامِ الهدايةِ إلى خَلقِ إرادةٍ يفعَلُها بها**، وأمورٌ منها هو غيرُ قادِرٍ على فِعلِها مع كونِه مُريداً، **فهو محتاجٌ في هدايَتِه إلى إقدارِه عَليها**، وأمورٌ منها هو غيرُ قادِرٍ عَليها ولا مُريدٌ لها، **فهو محتاجٌ إلى خَلقِ القدرَةِ والإرادةِ له لتَتِمَّ له الهدايةُ**، وأمورٌ هو قائِمٌ بها على وجهِ الهدايةِ اعْتِقاداً وإرادةً وعَملاً، **فهو محتاجٌ إلى الثباتِ عليها واستدامَتِها**.

فلما كانتْ حاجتُه سؤالَ الهدايةِ أعظَمَ الحاجاتِ وفاقَتُه إليها أشدَّ الفاقاتِ، فَرَضَ عليه الربُّ الرحيمُ هذا السؤالَ كلَّ يومٍ وليلةٍ في أفضلِ أحوالِه، وهيَ الصلواتُ الخمسُ، مَراتٍ متعدِّدَةً؛ لشدَّةِ ضرورتِه وفاقتِه إلى هذا المطلوبِ، ثم بَيَّنَ أن سبيلَ أهلِ هذه الهدايةِ مغايِرٌ لسَبيلِ أهلِ الغضبِ وأهلِ الضلالِ، وهم اليهودُ والنصارى، فانْقَسَمَ الخلقُ إذن ثلاثَةَ أقسامٍ بالنسبَةِ إلى هذه الهدايَةِ:

منعَمٌ عليه بحصُولِها، واستمرارُ حَظِّه من النِّعَمِ بحسَبِ حظِّه من تفاصيلِها وأقسامِها.

وضالٌّ لمْ يُعْطَ هذه الهدايَةَ ولم يُوَفَّقْ لها.

ومغضوبٌ عليه عرَفَها ولمْ يُوَفَّقْ للعَمَلِ بموجَبِها.

فالأولُ المنعَمُ عليه قامَ بالهدى دِينِ الحقِّ عِلماً وعَمَلاً، والضالُّ مُنسَلِخٌ عَنه عِلْماً وعَمَلاً، والمغضوبُ عليه عارِفٌ به عِلْماً مُنسَلِخٌ به عَمَلاً، واللهُ الموَفِّقُ للصوابِ).

ـ التّأمينُ وسِرُّه:

ثم شُرِعَ للمُصَلّي بعدَ فراغِهِ من هذا الثّناءِ والدُّعاءِ والتوحيدِ، أن يَطبَعَ على ذلكَ بطابعٍ من التَّأمينِ يكونُ كالخاتَمِ له يُوافِقُ فيه مَلائِكَةَ السماءِ، **وهذا التأمينُ من زِينةِ الصلاةِ**، والملائكةُ تُؤَمِّنُ إذا سمِعَتِ الفاتحةَ مِنَ العَبْدِ، **ومَن وافَقَ تأمينُه تأمينَ الملائكةِ غُفِرَ له ما تقدَّمَ من ذنبِه كما قالَ عليه الصلاةُ والسلامُ.**

ولهذا اشْتَدَّ حَسَدُ اليهودِ للمُسلمينَ عليه حينَ سَمِعوهم يجهَرونَ به في صلاتهم.

ـ بعضُ الأخْطاءِ:

وفي خِتامِ هذه الوقفةِ، أنَبِّهُ على بعضِ الأخطاءِ التي يَقَعُ فيها كثيرٌ من الناسِ في قراءةِ الفاتحةِ:

فمنهم مَن يقولُ (اللَّزِين) بالزاي، بدَلَ (الذينَ) بالذالِ. ومنهم من

يقولُ (الهمدُ لله) بدل (الحمدُ لله)، أو (الظالينَ) بالظـاءِ المشـدّدةِ بـدل الضادِ، أو يقولُ (إياكَ نعبد ونستعينُ) بإسقاطِ الـواوِ، أو يُسْـقِطُ الشَّـدَّةَ مِن لفظةِ (إيَّاكَ) و(إياكَ) بالتَّخفيفِ، هو: ضوءُ الشمسِ، وهذا كفرٌ إن قَصَدَهُ مع العِلمِ.

وهذا كلُّه بسبَبِ الجهلِ والإعـراضِ عـن الاسـتماعِ لـدُروسِ العِلـمِ، وتعلمِ القراءةِ الصحيحةِ من أفواهِ العُلماءِ المتقنينَ، وتعوَّضـوا عـن ذلـكَ بمجـالسِ اللَّهـوِ واللعِـبِ واللغْـوِ والباطِـلِ، فحُرِمـوا الخـيرَ العظـيمَ، وحصَّلوا الإثمَ الكبيرَ، واللهُ أعلم وهـو المسـتعانُ، وصـلى الله عـلى نبيِّنـا وعلى آله وصحبِه وسلم.

الوقفةُ الرابعةَ عشرةَ

القراءةُ بعد الفاتِحَةِ

بعدَ أن انتَهى المصلي من قراءةِ الفاتحةِ ـ أمِّ الكتاب ـ شُـرِعَ له أن يأخُذَ في مناجاةِ ربِّه بكلامِه، واستماعِه من الإمامِ بالإنصـاتِ وحضـورِ القلـبِ وشُهودِهِ.

واعلَموا ـ أحبتي في الله ـ أنَّ **أفضلَ أذكارِ الصـلاةِ ذِكـرُ القِيـام**، وهـو قراءةُ القرآنِ، كما أنَّ **أحسنَ هيئاتِ المصلّي هَيئةُ القِيـامِ**، ولـذلِكَ خُصَّـتْ بالحمدِ والثّناءِ والمجدِ وتِلاوةِ كَلامِ الربِّ جلَّ جلالُـه، بخـلافِ الركـوعِ والسجودِ فقَدْ نُهِيَ عن قـراءةِ القـرآنِ فـيهما؛ **لأنّهـما حالتـا ذلٍّ وخُضـوعٍ وانْكسارٍ وانخفاضٍ، فشُـرِعَ فيهما من الذكرِ ما يناسِـبُ هيئَـتَهُما**؛ فشُـرِعَ للراكِعِ أن يذكُرَ عظَمَةَ ربِّه في حالِ انخِفاضِهِ هُو وتَطامُنِه وخُضوعِه، وأنه سبحانَه موصوفٌ بالعَظَمَـةِ مُنَـزَّهٌ عـنْ كُـلِّ مـا يضـادُّ كبريـاءَه وعَظَمَتَـه وجلالَه، كما شُـرِعَ له في حالِ سُجودِهِ وتذَلُّــلِه أن يـذكُرَ عُلُـوَّ ربِّـه جـلَّ وعلا، وأنه تعالى المتعالي على كلِّ شَـيءٍ ذاتاً وقَدْراً وصِفاتٍ وأفعالاً، كـما يأتي تفصيلُه في الوقَفاتِ القادِمَةِ إن شاء الله تعالى.

فأفْضَلُ ما يقـولُ الراكِـعُ (**سـبحانَ ربيَ العظـيمَ**) وأفضـلُ مـا يقـولُ السّاجدُ (**سبحانَ ربي الأعلى**) كما بيَّنَ رسـولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لّما نَزَلَـتْ

(فسَبِّحْ باسمِ ربِّكَ العَظيمِ) فقال: «**اجْعَلوها في رُكوعِكُم**»، ولما نزلَتْ (سبِّحِ اسمَ ربِّكَ الأعلى) قال: «**اجعَلوها في سجودِكم**»، رواه أحمد وأبو داودَ وابنُ ماجَهْ بإسنادٍ حسَّنَه النّوويُّ وضَعَّفَه الألبانيُّ.

أمّا القِيامُ فشُرِعَ فيه أفْضَلُ أنواعِ الذِّكرِ؛ وهوَ قِراءةُ القُرآنِ والإنْصاتُ له بتفكُّرٍ وتدَبُّرٍ، وقدْ قالَ تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، **والقُنوتُ** هو: طولُ القِيامِ.

مِن فَضائِلِ القُرآنِ وقِراءتِه في الصّلاةِ:

ولذلِكَ، فإنَّ **المستَحَبَّ إطالَةُ هذا القيامِ وكثرَةُ القراءةِ فيه بتَدَبُّرٍ وتفَكُّرٍ**؛ لِما يُحدِثُه هذا في النفسِ من مَعرِفَةِ الله تعالى والخشوعِ له، فهذا **القرآنُ كلامُ الله تعالى**، ومَن أحبَّ أن يُكَلِّمَهُ الله تعالى فعَلَيْهِ بقراءة القرآنِ كما قالَ بعضُ السَّلَفِ.

وهو النِّعمَةُ العُظْمى التي أنعَمَ بها علينا ربُّنا جلَّ وعلا، وهو الذي جَعَلَه اللهُ رُوحاً تَحْيا به قلوبُنا ونوراً يُضيءُ لنا الطريقَ، وهو الشِّفاءُ لما في الصدورِ وهدىً ورحمةٌ للعالمين، وهو الذي أنزَلَه بعِلْمِه وفيهِ عِلْمُه، وهو الفرقانُ والخيرُ والبركاتُ..

حالُ النبيِّ ﷺ والسلفِ مع القرآن:

أخبَرَ الله تعالى في كتابِه عن حالِ الأنبياءِ وأولي العلمِ إخباراً مدحٍ وثناءٍ عليهم بأنّهم يخِرّونَ للأذقانِ سُجّداً يَبْكونَ إذا سَمِعوا آياتِ الله تُتْلى عليهم، وذلِكَ لِما تتضمَنُّه هذه الآياتُ من المواعِظِ والتّذكرةِ التي تحرِّكُ

القلوبَ وتذَكّرُها بالله ولقائه .

قالَ سبحانه وتعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا﴾ [مريم : ٥٨].

وقال سبحانه: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا ۝١٠٩﴾ [الإسراء : ١٠٧ ـ ١٠٩] .

والتّعبيرُ بقولِه (خَرّوا) و (يَخِرّونَ) يدلُّ على المسارَعَةِ إلى السّجودِ، وأنَّ سجودَهم سجودُ ذلٍّ وخضوعٍ وانكسارٍ وتضرّعٍ وتأثّرٍ بآياتِ الله.

ولقدْ كانتْ حالُ رسولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معَ القرآنِ وكذا الصحابةِ حالاً عجيبةً، فكانَ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ يُسمَعُ لصَدرِهِ أزيزٌ كأزيزِ المِرْجَلِ مِنَ البُكاءِ وهو يقرأ القرآنَ.

وهذا أبو بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كانَ لا يَكادُ يُسمَعُ صوتُه من البكاءِ وهو في الصلاةِ. وهذا عمرُ الفاروقُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قرأ يوماً قولَه تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨﴾ [الطور] ، فمَرِضَ أياماً حتى عادَه الناسُ.

وهذه عائشةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا يَمُرُّ عليها عروةُ بنُ الزبَيْرِ فيَجِدُها تُصلّي وتقرأُ قولَه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ [الطور] ، تُرَدِّدُها وتبكي، فوَقَفَ ينتَظِرُ أنْ تنتَهِيَ لِيُسَلِّمَ عليها، فلمّا طالَ وُقوفُه ذَهَبَ إلى السُّوقِ ورَجَعَ فإذا هِيَ على حالها تقرأ الآيةَ تُرَدِّدُها وتبكي..

وغيرُ هذا كَثيرٌ مِنْ أخبارِهِم يدُلُّ على مَدَى تأثُّرِ القُلوبِ بالقرآنِ، على خلافِ ما نحنُ عليه اليومَ مِنَ القَسوَةِ عِندَ قِراءَتِه، حتى إنَّ أحَدَنا لَيَقْرأُ القرآنَ كُلَّهُ ولا تَنْزِلُ منه دَمعةٌ واحِدَةٌ أو يَقْشَعِرُّ منه جِلدٌ للأَسَفِ الشَّديدِ، وتمرُّ علينا آياتُ العذابِ والتَّخويفِ فلا تُحدِثُ أيَّ تأثيرٍ، بلْ نبقى على لَهوِنا ولَعِبِنا وغَفلَتِنا، وتَمُرُّ علينا آياتُ الرَّحمةِ فنَظنُّ أننا من أهلِها يَقيناً، فهذا كلُّه مِن غَفلَتِنا أحِبتي عن تدبُّرِ القرآنِ والغفلةِ عن معانيهِ، مما أَوْرَثَ القلوبَ قسوةً أشدَّ مِن قسوةِ الحِجارَةِ التي تَلينُ مِن ذِكرِ الله كما قالَ تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

فالحَذَرَ مِن هذه القَسوَةِ أحِبّتي، فهِيَ **عَلامةُ خِزْيٍ وضَلالٍ** كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾.

الإطالةُ والإيجازُ في الصلاةِ:

وهكذا كانَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يُطيلُ القِراءةَ مُتدبِّراً فيها معَ إيجازِهِ للصَّلاةِ وإتمامِهِ لها**، لا كما يفعلُه أكثرُ المسلمينَ اليومَ مِنْ تَقصيرِ القِيامِ وقِلَّةِ القِراءةِ فيه حتى وَصَلَ الأمرُ إلى الإنكارِ على مَن يُطيلُ، واللهُ المستعانُ.

وقد وَصَفَ أنسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ صلاةَ رَسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنْكرَ ما

وَصَلَ إليه الناسُ مِن تَغييرٍ فِيها في عَهدِهِ، فقال كما في الصَّحِيحَيْنِ: «**ما صَلَّيتُ وَراءَ إمامٍ قَطُّ أخَفَّ صَلاة ولا أتمَّ مِن صلاةِ النبيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، زادَ البخاريُّ: «**وإنْ كانَ لَيسمَعُ بُكاءَ الصبيِّ فيُخفِّفُ مخافَةَ أن تُفْتَنَ أُمُّهُ**».

فوصَفَ صلاتَه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بالإيجازِ والتَّمامِ**، والإيجازُ الذي كان يفعَلُه ليسَ ما يظنُّه مَن لم يَطَّلِعْ على صِفَةِ صَلاتِه، فإنَّ **الإيجازَ أمرٌ نِسبيٌّ راجِعٌ إلى السُّنَّةِ** لا إلى شَهوَةِ الإمامِ ومَن خلفَه.

فقدْ ثَبَتَ عنه أنه كان يقرأُ في الفَجْرِ بالسِّتِّينَ إلى المائةِ آية، وهذا إيجازٌ بالنسبةِ إلى ستمائةٍ مَثَلاً، وقرأ في المغرِبِ بالأعرافِ كما صحَّ عنه في صحيح البخاريِّ وغيره، وهذا إيجازٌ بالنسبةِ إلى البقرةِ، وهكذا..

وفي صحيحِ مسلمٍ أنه اسْتَفتَحَ الصُّبْحَ بسورةِ (المؤمنينَ) حتى إذا جاءَ ذِكْرُ موسى وهارونَ أَخَذَتْهُ سعلةٌ فركَعَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكثيراً ما كانَ يقرأُ في الفَجرِ بسُورَةِ (ق) وقرأ مَرَّةً فيها بالطُّورِ، وهكذا.. وقرأ في المغرِبِ بالدُّخانِ وبالطُّورِ.

فكان مِنْ هديِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **إطالةُ الصُّبْحِ** أكثرَ مِنْ غَيرِها؛ وذلك لأنَّ **قرآنَ الفَجرِ كانَ مَشهوداً**، يشهَدُهُ اللهُ تعالى وملائكتُه.

وأيضاً، فإنّها لما **نَقَصَ عَدَدُ رَكَعاتِها جُعِلَ تَطويلُها عِوَضاً** عمّا نَقَصَتْه من العَدَدِ.

وأيضاً فإنها تكونُ **عَقيبَ نَومٍ** والناسُ مُستَريحونَ، وهم لم يأخُذوا في اسْتقبالِ المعاشِ بَعدُ وأسبابِ الدنيا.

وأيضاً، فإنها تكونُ في وقتٍ **تَواطأَ منهُ السَّمْعُ واللِّسانُ والقَلبُ** لفَراغِهِ وعَدَمِ تمكُّنِ الاشتِغالِ فيه، فيُفْهَمُ القرآنُ أكثرَ ويَسْهُلُ تَدبُّرُهُ.

وأيضاً، **فإنّها أساسُ العَملِ وأوَّلُهُ**، فأُعْطِيَتْ فضلاً من الاهتمامِ بها وتطويلِها.

قالَ ابنُ القيِّمِ في زادِ المعادِ بعدَ أنْ ذكرَ هذه الفوائدَ: (وهذهِ أسْرارٌ إنما يَعْرِفُها مَنْ له التِفاتٌ إلى أسْرارِ الشريعَةِ ومقاصِدِها وحِكَمِها، واللهُ المستعانُ).

أما الظهرُ والعَصْرُ، ففي صحيحِ مُسْلمٍ عن أبي سعيدٍ قالَ: «**كانتْ صلاةُ الظهرِ تُقامُ فيَنطَلِقُ أحدُنا إلى البقيعِ فيَقضي حاجَتَه، ثم يأتي أهلَه فيتَوَضَّأُ، ثم يرجِعُ إلى المسجِدِ ورسولُ الله** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **في الرَّكعَةِ الأولى**».

وعن أبي قتادةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنّه كان يُطَوِّلُ الرَّكْعَةَ الأولى منَ الظُّهرِ ويقصُرُ الثانيةَ، وفي روايةٍ لأبي داودَ: فظنَنّا أنه يريدُ أن يُدرِكَ الناسُ الركعةَ الأولى.

وقال ابنُ عمرَ: «**إنْ كانَ رسولُ الله** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **ليأمُرُنا بالتَّخفيفِ وإنْ كانَ لَيَؤُمُّنا بالصّافّاتِ**». رواه الإمامُ أحمدُ والنَّسائِيُّ.

فهذا أمرُه وهذا فِعلُه المفَسِّرُ له.

وفي صَحيحِ مسلمٍ عن أبي سعيدٍ: «**كنا نَحْزُرُ قِيامَ رسولِ الله** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **في الظّهرِ والعَصرِ، فحزَرْنا قِيامَه في الركعَتَينِ الأُولَيَيْنِ مِن الظُّهرِ قَدْرَ (الم تنزيل) السجدةِ، وحزَرْنا قيامَه في الأُخرَيَيْنِ قَدْرَ النِّصفِ مِن ذلكَ، وحَزَرْنا قيامَه في الركعَتينِ الأُولَيَينِ مِنَ العَصْرِ على النِّصْفِ من ذلك**».

وفي روايةٍ بدَلَ ذِكرِ السجدةِ: «**قدْرَ ثلاثينَ آيةٍ، وفي الأُخْرَيَيْنِ قدْرَ نصفِ ذلكَ**». كما كان يقرأُ في الظهرِ بسُورةِ اللّيلِ، وسورةِ الأعلى، والبروجِ، والطارقِ، ولقمانَ، والذارياتِ، وكانَ يُطيلُ الصُّبْحَ أكثرَ من ذلِكَ.

وكان يُصلي في العِشاءِ بأوْساطِ المفَصَّلِ كسورةِ اللَّيلِ وما يُشبِهُها.

فهكذا كانتْ صلاتُه عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ وقراءتُه **فيها مَعَ التَّدَبُّرِ والتفَكُّرِ لا مجردَ إمرارٍ على اللِّسانِ كحالِ أهْلِ اليومِ مَعَ القِصَرِ والسُّرعَةِ**، والله المستعانُ.

وهكذا كانتْ صلاةُ من بَعدَه من خُلفائِهِ الراشدينَ المتَّبعينَ له، فهذا صِدّيقُ الأمَّةِ وشيخُ الإسلامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صلّى الصبحَ فقرأَ البَقَرَةَ مِن أوَّلها إلى آخرِها وخَلْفَه الكبيرُ والصغيرُ وذو الحاجةِ فقالوا له: يا خَليفَةَ رَسولِ الله، كادتِ الشمسُ تطلُعُ، فقالَ: **لَوْ طَلَعَتْ لَمْ تَجِدْنا غافلينَ**.

وهذا عُمرُ الفاروقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَسيرُ على هذا النَّهجِ، فيقرأُ في الفَجرِ بالنَّحلِ ويوسفَ، وبهودٍ ويونسَ، والإسراءِ ونحوِها من السُّوَرِ.

وهذا كلُّه مما أَخَذُوه من فعلِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمْرِه، كما قالَ ابنُ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**كانَ رسولُ الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يأمُرُ بالتَّخفيفِ ويؤُمُّنا بالصافاتِ**»، وسَبقَ معنا كيفيةُ صلاتِه في الخَمسِ، **فهذا فِعْلُه وهذا أمْرُه** الذي لم يَنْسَخْه شيءٌ، فكيفَ يُخالَفُ هذا بعادةٍ أو عُرفِ الناسِ اليومَ أو استحسانٍ أو ذوقِ أحدٍ ورأيِه حتى يُنْكَرَ على مَن يُطيلُ صلاتَه؟ وهلا إنْ كنّا لا نَلتزمُ بذلكَ نَعْتَرِفُ بتقْصيرِنا وضَعْفِنا ونسألُ اللهَ تعالى أن يُعيننا

للوُصولِ إلى الأكمَلِ؟

ولا يخالِفُ هذا قولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذٍ: «**أفَتَّانٌ أنتَ يا معاذُ؟ فلولا صَلَّيتَ بسَبِّح اسمَ ربكَ الأعلى، والشّمسِ وضُحاها، واللَّيلِ إذا يغشى؛ فإنه يُصلِّي وراءَك الكبيرُ والضعيفُ وذو الحاجةِ**».

فإنْ مَن تأمَّلَ قِصةَ الحديثِ عَلِمَ هذا، فإنّه كانَ في صلاةِ العِشاءِ، وقرأَ بهم بالبقرةِ أو النساءِ في ركعةٍ ـ والأصَحُّ البَقَرَةُ ـ فشَكَوْا ذلك إلى النبيِّ عليه الصلاةُ والسلامُ وقالوا: يا رسولَ الله **إنَّ معاذَ بنَ جبلٍ يأتِينا بَعدَما ننامُ ونكونُ في أعمالِنا بالنَّهارِ**، فينادي بالصّلاةِ فنخرُج إليه فيطَوِّلُ علينا. وذلكَ أنّ مُعاذاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يصلّي مع النبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ العِشاءَ، ثم يأتي قَوْمَه فيُصَلّي بهم وقدْ أنْهَكَهُم تَعَبُ اليومِ ونامُوا، فلا يُسْتَحَبُّ في مثلِ هذا التّطويلُ، بلْ يقرأُ بأوساطِ المفصَّلِ كما أرشَدَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ، بخلافِ ما وَرَدَ في الفَجْرِ والظهرِ كما سَبَقَ بيانُه، فهذا هديُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جميعِ الصَّلواتِ، وليسَ هذا مِن التَّنَطُّعِ في شيءٍ أبداً؛ فإنَّ التنطُّعَ والتَّعَمُّقَ والتَّشديدَ الذي نهى عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُو المخالِفُ لهدْيِهِ وهدْيِ أصحابِه وما كانوا عليه، وأما **موافَقَتُه فيما فَعَلَه هو وخلفاؤه مِن بَعْدِهِ فهو محَضُ المتابعة** وإنْ أباها ورَفَضَها وأنْكَرَها وجَهِلَها مَن جَهِلَها، **فالتنطُّعُ هو مخالفةُ ما جاءَ به وتجاوُزُهُ والغُلُوُّ فيه، وفي مُقابِلِ ذلكَ التفريطُ والتقصيرُ وهو إضاعَةُ ما جاءَ به**، وكلاهُما خَطأٌ وضلالَةٌ وانحرافٌ عن الصراطِ المستقيمِ والمنهَجِ القَويمِ، ودِينُ الله تعالى بينَ الغالي فيه والجافي عنه، وهم أهلُ التوَسُّطِ المتَّبِعونَ لإمامِهم محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالهُدى كلُّه في اتّباعِ هَدْيِهِ وسُنَّتِهِ، لا أنْ نأخُذَ منها ما سَهُلَ ونـترُكَ مـا شَقَّ علينا بسبَبِ كَسَلِنا وضَعفِ عَزائِمِنا واشتِغالِنا بالدُّنيا التي قد مَـلأتِ القُلوبَ ومَلَكَتِ الجوارِحَ وقرَّتْ بها العيونُ بَدَلَ قُرَّتِها بالصلاةِ، وتلذَّذَتْ بحُطامِها النُّفوسُ بَدَلَ التلـذُّذِ والتـنَعُّمِ والسُّـرورِ بالصـلاةِ، فأصْبَحَ لا يناسِبُنا إلا حَديث «**أفتّانٌ أنتَ يا معاذُ؟**» وحـديثُ: «**إنَّ مِـنكُمْ منَفِّـرينَ**»، ووُضِعَتْ هذه الأحاديثُ على غَـيرِ مَوْضِـعِها، ولم نَتَأَمَّـلْ مـا قَبلَهـا ومـا بعدَها، فأصبَحَتْ صلاتُنا صلاةَ السُّـرَّاق والنَّقَّارينَ، فنقرةُ الغرابِ أحبُّ إلينـا مـن الاجتهـادِ في خِدمَـةِ ربِّ الأربـابِ والتلـذُّذِ بطاعَتِـهِ وذِكـرِه ومناجاتِه بكلامِه سبحانه وتعالى، واللهُ المستعانُ.

فهذه صلاةُ رسولِنا عليهِ الصلاةُ والسلامُ التي أَمَرَنا أن نُصَّلِيَها عندما قالَ: «**صلّوا كما رأيتُموني أصلّي**»، لا كما يَهوى الناسُ ويَشْـتَهُون، ولا كـما تعوَّدَ الناسُ ويجتَهدونَ.

وقد أمر اللهُ تعالى بإقامَةِ الصلاةِ ومَدَحَ المقيمينَ لها في آياتٍ كثيرةٍ مثـلُ قولِـه تعــالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾، وقولِــه: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، وقولِه: ﴿وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ ﴾، وقولِ إبراهيمَ عليهِ السـلامُ: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾.

وإقامَتُها هُو الإتيانُ بها قائِمةً مستقيمةً تامَّةَ القِيامِ والركوعِ والسـجودِ والأذكارِ، مع الخشوع والخضوع وحضور القلب فيها، بمعنى أن تكـون مستقيمة موافقة لهدي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ظاهراً وباطناً.

وقد **علَّقَ سبحانَه الفلاحَ بخشوعِ المصلّي في صلاتِهِ**، فمَنْ فاتَهُ خُشـوعُ

الصّلاةِ لم يكنْ مِنْ أهْلِ الفَلاحِ، **ويَستَحيلُ حصولُ الخشـوعِ مـع العَجَلَـةِ والنَّقْرِ قَطعاً، بلْ لا يحصُلُ الخشوعُ قطُّ إلا مَع الطمأنينةِ والتـدبُّرِ والتفكُّـرِ واستِحْضارِ عَظَمَةِ الربِّ سبحانَه، واستِحضارِ معاني أسمائِهِ وصِفاتِه التي تَزيدُ في مَعرِفَتِه وحُبِّهِ وتَعظِيمِهِ وإجلالِهِ والخضوعِ له سبحانَه وتعالى.**

فالمصلّونَ في الناسِ كَثيرٌ، ومُقيمُ الصلاةِ منهم أقـلُّ القَليـلِ، كـما قـالَ عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**الحاجُّ قَليلٌ والرَّكبُ كثيرٌ**». ولَوْ عَلِـمَ هـؤلاءِ أن الملائكـةَ تَصعَدُ بأعْمالِهم وصَلاتِهم تَعرِضُها على الربِّ جلَّ جلالُـه بمنزِلَـةِ الهـدايا التي يتَقَرَّبُ بها الناسُ إلى مُلوكِهِم وكُبَرائِهِم، لاهْتَمّوا بتَحْسِينِها وتَزْيينِهـا وفَعَلوا أفْضَلَ ما يمْكِنُ فيها.

وليسَ مَن كانتْ الصلاةُ ربيعاً لِقَلْبِـه وحيـاةً لـه وراحـةً وقُـرَّةً لِعَيْنِـه وجَلاءً لحزنِه وذَهاباً لهمِّه وغَمِّه ومَفزَعاً له في نوائِبِه ونَوازِلِـه، كَمَـنْ هـي سُحْتٌ لقَلبه وقَيْدٌ لجوارِحِه وتَكليفٌ له وثِقَلٌ عليهِ، فهِيَ كَبيرةٌ عـلى هـذا وقُرَّةُ عَينٍ وراحةٌ لذاكَ، وقـد قـالَ تعـالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٥]، **وإنّـما كَـبُرَتْ عـلى غَـيرِ الخاشِـعينَ لخلُوِّ قُلوبِهِم مِنْ محبَّـةِ الله تعـالى وتَكبـيرِهِ وتَعظيمِـه والخشُـوعِ لـه، وقِلَّـةِ رَغبَتِهِم فيه**؛ فإنَّ حُضورَ العَبـدِ في صـلاتِه وخُشـوعَهُ فيهـا وتَكْميلَـه لهـا واجتِهادَهُ في إقامَتِها وإتمامِها على قَدْرِ رَغبَتِه في الله تعالى، كما قـالَ الإمـامُ أحمدُ رَحِمَهُٱللَّهُ: (**إنما حَظُّهُم مِـنَ الإسـلامِ عـلى قَـدْرِ حظِّهِـم مِـنَ الصَّـلاةِ، ورَغبَتُهُم في الإسلامِ عـلى قَـدْرِ رغبَـتِهِم في الصَّـلاةِ، فـاعرِفْ نفسَـكَ يـا عَبدَ الله واحذَرْ أنْ تلقَى اللهَ عَزَّوَجَلَّ ولا قَدْرَ للإسلامِ عِندَكَ، فإنَّ قَدْرَ الإسلامِ**

عِندَكَ كَقَدْرِ الصَّلاةِ في قَلبِكَ).

فالقلبُ العامِرُ بمحبَّةِ الله تعالى وخَشيَتِه والرَّغبَةِ فيه وإجلالِه، إذا وَقَفَ بَينَ يَدَيِ الله وقَفَ مُخبتاً خَاشِعاً له قَريباً منه قَدْ امتَلأتْ أرجاؤه بالهيبةِ وسَطَعَ فيه نورُ الإيمانِ، ومَعرِفةُ ربِّه الرحمنِ بأسمائِه وصفاتِه ونُعوتِ جَلالِه وجمالِه وكَمالِه التي تفرَّدَ بها، فاجتَمَعَ همُّه على الله، وقرَّتْ به عينُه، وأحسَّ بقُربِه قُرباً لا نَظيرَ له، فأقبَلَ على الله بكلِّيَّتِه، وتلذَّذَ بذِكرِه ومُناجاتِه حتى نَسِيَ هذه الدُّنيا وهُمومَها وأحزانَها وأصبَحَ لا يَرى أمامَه إلا الله تعالى.

وهذا لا يَصِلُ إليه إلا مَنْ هَداهُ اللهُ وشَرَحَ صدرَه لمعرِفَتِه، وأقبَلَ عليه، ووفَّقَه لمعرِفَتِه، ويَسَّرَ له مناجاتَه..

وأختِمُ هذه الوقفةَ ـ أحبتي في الله ـ بذكرِ بعضِ ما يُعينُ العبدَ على تدبُّرِ القرآنِ؛ وذلكَ بأن يُعطِيَ كلَّ آيةٍ حظَّها مِنَ العُبودِيَّةِ، مُستَحْضِراً في قلبِه أنّ هذا الكلامَ كلامُ الله قد تجلّى الله تعالى به، فإذا قرأ آياتِ المحبّةِ والوِدادِ، والآياتِ التي فيها الأسماءُ والصفاتُ، والآياتِ التي تعرَّف بها اللهُ تعالى إلى عبادِه بآلائِه وإنعامِه عليهم وإحسانِه، ينجَذِبُ قلبُه وروحُه إلى هذه الآياتِ ويمتَلئُ محبةً لله جلَّ وعلا. وإذا مرَّ بآياتِ الرَّجاءِ والرحمةِ وسَعَةِ البرِّ والمغفرَةِ والإحسانِ، يَطيبُ له عندَها السيرُ في طاعةِ الله ويَهونُ عليه، بمنزِلَةِ الحادي الذي يُطَيِّبُ له السيرَ ويهوِّنُه. وإذا مرَّ بآياتِ الخوفِ والعَدْلِ والانْتِقامِ وإحْلالِ غَضَبِهِ بالمُعْرِضِينَ عنه المائِلينَ إلى سواهُ، قَلِقَ أشَدَّ القَلَقِ وامتلأ قلبُه خوفاً يمنَعُه مِن أن يشردَ بقلبِه عنه أو يُقبِلَ على غَيرِه ويَعصيهِ في أوامرِه ونواهيهِ.

وإذا تلا أو سَمِعَ آياتِ الأوامِرِ والنواهي عَلِمَ أنّه المقصودُ بدايـةً بهـا، وحكَّمَها على حالِه وأعمالِه، فإن وجَـدَ التِزامـاً بهـا حَمِـدَ الله عـلى توفيقِـه وامتِنانِه له بذلِكَ، وإنْ وجدَ مخالفةً علِمَ تركَه له وخذلانَـه، فخـافَ عـلى نفسِه، ولجـأ إلى ربِّـه بالتّوبَـةِ والإنابَـةِ وأن لا يكِلَـه إلى نفسِـه وشـيطانِه، وتضرَّعَ إليه أنْ يُعيدَه إلى حظيرةِ العبوديّةِ والخضوعِ والطاعةِ له .

كما يرى في تلكَ الأوامِرِ والنّواهي عظيمَ رحمـةِ الله بعبـادِه، وحكمتِـه وعلمِه، أن شرعَ لهم أفضلَ وأكملَ الأقـوالِ والأعـمالِ، التـي تزكـو بهـا نفوسُهم، وتطهُرُ بها قلـوبُهم، فتصـلحَ لمجـاورةِ الـربِّ في دارِه وجنّتِـه . وعلِمَ أنّه لو جُمِعَ علمُ جميعِ العقلاءِ والعلماءِ ليـأتوا بمثـلِ هـذا الكـمالِ في الأوامرِ والتشريعاتِ التي بها صلاحُ العِبادِ والبلادِ لكان مـا يـأتونَ بـه لا يساوي قطرَةٍ من بحرِ ما منَّ الله به على عبادِه من ذلِكَ، ولله الحمدُ والمنّةُ .

وإذا مرّتْ عليه آياتُ القصصِ وأخبارِ الأمَمِ الماضيَةِ، ظهـرَتْ قـدرةُ الله جلَّ وعلا ورحمتُه وعدلُه وانتِقامُه، وعلِمَ صدقَ ما جاءَتِ به الرّسُـلُ، واعتبَرَ بهذه الآياتِ غايَةَ الاعتبارِ، وتيقّنَ من أنَّ الله تعالى لا يـترُكَ عبـادَه وأوليـاءه، وأنَّ العاقبـةَ الحسـنةَ لهـم ولا ريـبَ في الـدّنيا والآخـرةَ، وأنَّ العقوبَةَ والدّمارَ على ما خالفَ وحيَه وكذّبَ رسلَه، وأنّه سبحانَه لا يغفلُ عما يعمَلُ الظالمونَ، وأنّه يمهِلُهم ولا يُهمِلُهم، ويحلُـمُ ولا يغفـلُ عـنهم، ويستدرِجُهم من حيثُ لا يعلمونَ، فسكَنَتْ عندَها نفسُه، وصبرَ على مـا يصيبُه من البلاءِ والامتِحـانِ، وعلِـمَ أنَّ الفـرجَ قريـبٌ، وأنَّ النّصرَـ مـع الصّبرِ، وأنَّ مع العسرِ يُسراً .

وهذا يحيا القـرآنُ بـالقرآنِ، وتظهَـرُ فيـه أنـوارُه ورحماتُـه وخيراتُـه وبركاتُه، ويتقلّبُ في رياضِه المختلفةِ، ويأخذُ مـن كـلِّ روضـةٍ منهـا مـن يحتاجُ إليه من غذاءٍ ودواءٍ، فسبحانَ من بهرَتْ حِكَمُه العقولُ، وسـبحانَ من أنزلَ كلامَه شفاءً لما في الصّدورِ، وسـبحانَ مـن جعلَـه نـوراً وروحـاً وهدىً يهدي به منِ اتّبَعَ رضوانَه سبلَ السلامِ .

نسألُه سبحانَه أن يجعلَنا من أهـلِ هـذا القـرآنِ، الـذينَ هـم أهـلُ الله وخاصّتُه من العبادِ، إنه سميعٌ مجيبٌ رحمنٌ رحيمٌ .

الوقفةُ الخامِسةَ عشرةَ

الرُّكوعُ

بعدَ أن انْتَهى المصلّي مِنْ مناجاةِ ربِّهِ سبحانَه والتَّلَذُّذِ بتِلاوَةِ كَلامِه جلَّ وعلا أو اسْتِماعِه من الإمام بالإنْصاتِ وحُضورِ القَلْبِ وشُهودِه، شُرِعَ له أن **ينحَنِيَ لله تعالى راكِعاً مُعَظِّماً مُثْنياً عليه بما يتَناسَبُ مع ذلِكَ الركوعِ.**

أما رفْعُ اليدينِ فهو كما سَبَقَ: تَعظيمٌ لأمْرِ الله، وزِينَةٌ للصّلاةِ، وعُبوديَّةٌ خاصَّةٌ لليَدَيْنِ، واتّباعٌ لسنَّةِ رسولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأمّا التكبيرُ فهو كما سبَقَ أيضاً: شِعارُ الصلاةِ؛ ليَعلَمَ العبدُ أن سِرَّ الصلاةِ هو تَعظيمُ الربِّ تعالى وتكبيرُه بعبادَتِه وحدَه، ولذلِكَ جُعِلَ عندَ الانتِقالِ من ركنٍ إلى ركنٍ كالتَّلْبِيَةِ التي هِيَ شعارُ الحاجِّ في انتِقالِهِ من مَشعَرٍ إلى مشعَرٍ.

۞ مِن أسرارِ الرّكوعِ وأحكامِهِ:

والركوعُ هو تَعظيمٌ لله تَعالى بالانحِناءِ، لأنَّ **الانْحِناءَ والخفْضَ فيهِ يدُلُّ على التَّواضِعِ والخضوعِ**، ولذلِكَ لا يجوزُ لغيرِ الله تعالى العظيمِ، بخلافِ ما يفعَلُه كثيرٌ من الأمَمِ مِنَ الانْحِناءِ لملوكِهِم وكُبرائِهم تَعظيماً لهم.

ولهذا شُرِعَ للمُصَلّي في الركوعِ مِنَ الذكرِ ما يُناسِبُ فِعلَه مِن ذكرِ

عَظَمَةِ ربِّه جلَّ وعلا حالَ انخِفاضِهِ هو وخُضوعِه، فيقولُ (**سبحانَ ربيَ العظيمَ**) مُثنياً على الله بعَظَمَتِه، متَذَكِّراً أنه سُبْحانَه مَوْصوفٌ بجَمِيعِ صفاتِ الكِبرياءِ والجلالِ والعظَمَةِ، مسْتَحْضِراً هذا في قلْبِهِ، فكانَ هذا الذكرُ أفضَلَ ما يقولُه الراكِعُ على الإطلاقِ، ولهذا أمَرَ به صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كما مرَّ معنا في الوَقْفَةِ السَّابقَةِ.

۞ مِنْ كلامِ ابنِ القَيِّمِ:

قال ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُٱللَّهُ في الرُّكوعِ: (ثم شُرِعَ له بأنْ **يَخْضَعَ للمَعْبودِ سبحانَه بالرُّكوعِ** خُضوعاً لعَظَمَتِه، واستِكانةً لهيْبَتِه وتذَلُّلاً لعِزَّتِه، فثَنى العبدُ له صُلْبَه، ووَضَعَ له قامَتَه، ونَكَّسَ له رأسَه، وحَنى له ظهرَه، مُعَظِّماً له، **ناطِقاً بتسبيحِه المقتَرِنِ بتَعْظِيمِه**، فاجتَمَعَ له خُضوعُ القَلْبِ وخُضوعُ الجوارِحِ وخُضوعُ القَولِ على أتَمِّ الأحْوالِ، وجُمِعَ له في هذا الذِّكْرِ بينَ الخضوعِ والتَّعظيمِ لربِّه، والتّنزيهِ له عنْ خُضوعِ العَبيدِ، وأنَّ الخضوعَ وَصْفُ العَبْدِ، والعَظَمَةَ وصْفُ الرّبِّ.

وتمامُ عُبودِيّةِ الرّكوعِ أنْ يتَصاغَرَ العبدُ ويتَضاءَلَ بحيْثُ يمْحو تَصاغُرُه كلَّ تَعظيمٍ منه لنَفسِهِ ولخلْقِهِ، ويُثبِتُ مكانَه تَعظيمَه لربِّهِ، وكلَّما استَوْلى على قَلبِه تَعظيمُ الربِّ ازْدادَ تَصاغُرُه هو عندَ نفسِه، فالرُّكوعُ للقَلبِ بالذاتِ والقَصدِ، وللجَوارِحِ بالتَّبَعِ والتَّكمِلَةِ).

قلتُ: وقدْ أبطَلَ كَثيرٌ مِن أهْلِ العِلمِ صَلاةَ مَنْ تَرَكَ هذا الذِّكرَ عَمْداً، وأوْجَبُوا سُجودَ السَّهْوِ على مَنْ سها عنه، وهذا مَذهبُ الإمامِ أحمدَ ومَنْ

وافَقَهُ مِن أئمَّةِ الحديثِ والسُّنةِ، ووجوبُ ذلِكَ ليسَ أقلَّ مِن وجوبِ الصلاةِ على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التَّشَهُّدِ الأخيرِ.

وهذا الرّكوعُ الذي هو تَعظيمٌ لله تعالى لا يكونُ تاماً حتى يُعَظَّمَ اللهُ بالقَلبِ كما عُظِّمَ بالجوارِحِ واللِّسانِ، بل القلبُ هو الأهمُّ، ولهذا يُرَخَّصُ في تَركِ الركوعِ بالنّسبةِ لبعضِ المصلّينَ لعُذْرِ المرضِ أو غَيرِه، ولا يرخَّصُ في تَرْكِ التعظيمِ بالقَلْبِ أبداً، فهو المقصودُ منَ الرّكوعِ لا مجرَّدَ الحَرَكاتِ والكَلِماتِ.

وقدْ قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أمّا الرّكوعُ فعَظِّموا فيهِ الربَّ**» وهو في صَحيحِ مُسلِمٍ.

أذكارُ الركوعِ وعلاقَتُها بالتّعظيمِ:

ومَن تأمَّلَ بَقيَّةَ **الأذكارِ المشروعَةِ في الرّكوعِ** يَجِدُها تَدورُ على هذا المحوَرِ مِن تَعْظيمِ الله تعالى والثَّناءِ عليه بما يوجِبُ هذا التّعظيمَ، مِنْ صِفاتِ الجلالِ والكَمالِ، وتَنْزيهِه عَنْ كلِّ ما يوجِبُ ضِدَّهُ منَ النَّقائِصِ والعُيوبِ.

مثلُ ما ورَدَ في دُعاءِ «**سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ربُّ الملائِكَةِ والروحِ**»، كما في صحيحِ مُسلمٍ، فهوَ تَنزيهٌ له سبحانَه عنْ كلِّ ما يُضَادُّ كَمالَه وجَلالَه، وهو المقدَّسُ المتعالِي جلَّ وعلا بذاتِه وأسْمائِه وصِفاتِه، وهو سبحانَه ربُّ الملائِكَةِ والرُّوحِ، وهو جِبريلُ عليهِ السّلامُ.

وتخصيصُه الرّبوبيةَ بالملائِكةِ مع أنّه ربُّ كلِّ شيءٍ جلَّ وعلا؛ لأنَّ ربوبيَّتَه جل وعلا لهذه المخلوقاتِ مع عَظَمَتِها وقوَّتِها وكمالِها أدَلُّ على

عَظَمَتِه من ربوبيتِه لغيرِها، فأشارَ إلى عظمَتِه ورِفعَتِه من خِلالِ ذلك، **وخصَّ جبريلَ عليه السلامُ** مِنْ بَيْنِ الملائكةِ؛ لأنه أشرَفُهم وأعظَمُهم، وهو الذي له سُتمائةُ جناحٍ كلُّ جَناحٍ يسدُّ ما بينَ المشرِقِ والمغرِبِ، وقد وَصَفَهُ اللهُ تعالى بالقوةِ في قوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ [النجم: ٥]، وقولِه: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠﴾ [التكوير: ٢٠].

ومِن قوَّتِه عليهِ السّلامُ أنّه رَفَعَ قُرى قَومِ لوطٍ عليهِ السّلامُ بطَرَفِ جَناحِهِ وارتَفَعَ بها حتى سَمِعَتِ الملائكةُ نباحَ كلابِهم، ثمَّ قَلَبَها بِهِم وأتْبَعَهُم رَجماً بالحِجارةِ، والعياذُ بالله تعالى مِن عذابِه.

فإذا كانَ اللهُ تعالى هو الذي خَلَقَ هذا المَلَكَ، وهوَ ربُّه الذي يتَصَرفُ فيه كيفَ يشاءُ، فما بالُكَ بعَظَمَتِه سبحانَه وتعالى؟

وكذلكَ دُعاءُ «**سبحانَ ذي الجَبَروتِ والمَلَكوتِ والكبرياءِ والعَظَمَةِ**» كما في سننِ أبي داودَ والنّسائيِّ بسندٍ صحيحٍ، وهوَ واضِحُ الدِّلالةِ في تَعظيمِ الله تعالى من خِلالِ وصْفِه بذي الجبروتِ؛ **وهوَ مِنَ الجبْرِ بمَعْنى القَهْرِ والغَلَبَةِ**، والملكوتِ؛ الذي **له مُلْكُ كلِّ شيءٍ ظاهِراً وباطناً** وبيدِه أمرُ كلِّ شَيءٍ، والكبرياءُ والعظمةُ واضِحَةٌ في معناها.

وبعدَ نُزولِ سورةِ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [العصر: ١]، كانَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكثِرُ أنْ يَقولَ في رُكوعِه وسجودِه: «**سبْحانَكَ اللهم ربَّنا وبحمدِكَ، اللهم اغفِرْ لي**»، كما في الصّحيحينِ وغيرِهما استِجابَةً لأمرِ الله له في قولِه سبحانه وتعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ

تَوَّابًا ﴿٣﴾ [العصر: ٣]؛ وذلكَ لأنَّ خيرَ ما **يختِمُ به الإنسانُ حياتَه التَّوبةُ** إلى ربِّه والاستغفارُ، ليَلْقى اللهَ تعالى نَقِيّاً منَ الذّنوبِ والأوزارِ، والله أعلمُ.

فلْنَجْتَهِدْ ـ أحبتي في الله ـ في تَعظيمِ الله تعالى في الركوعِ قَدْرَ استطاعَتِنا، ولْنَتَأَمَّلْ معانِيَ ما نفعَلُ ونقولُ في هذا الرُّكنِ، ولْنُعْطِ أنفسَنا وقتاً للوصولِ إلى هذا التدبُّرِ، وذلك بإطالَةِ هذا الركنِ حتى يشعُرَ العبدُ أنه قدْ عَظَّمَ اللهَ حقاً، ولا يخرُجْ منه قبلَ الوصولِ إلى هذا التَّعظيمِ، **فلا قيمَةَ للركوعِ بدونِ تَعظيمِ الله فيه.**

ولما رأى أنسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ما فَعَلَهُ الناسُ من مخالَفَةِ هَدْيِ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصّلاةِ اسْتَنْكَرَ ذلكَ، وأخْبَرَ أنّه ما صلّى وراءَ أحَدٍ بعدَ رَسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشْبَهَ بصَلاةِ رَسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن عُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ، فحَزَرُوا في ركوعِه عَشْر تسْبيحاتٍ، وفي سُجودِهِ عَشْر تسبيحاتٍ، ومِنَ المعلومِ أنّه لمْ يكنْ يُسَبِّحُها هذًّا مُسْرعاً مِن غَيرِ تدبُّرٍ، بل كانَ حالُهم أجلَّ من ذلكَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، فهل نتأسّى بهم في ذلكَ، ولا نكونُ في صلاتِنا غافلينَ عن ربنا جلَّ وعلا، فنخسَرُ أعظمَ لذَّةٍ وطُمأنينةٍ وأجرٍ، واللهُ المستعانُ.

الوقفةُ السادسةَ عشرةَ

الرَّفْعُ من الرّكوعِ

بعد أن يُنهِيَ المصلي ركوعَه مُعظِّماً ربَّه فيه مُثْنِياً عليه بما يَليقُ به مِن صِفاتِ العَظَمَةِ والجلالِ والكَمالِ، شُرِعَ له أن يرفَعَ رأسَه عائِداً إلى أكمَلِ هيئاتِه، وهي هَيْأةُ القِيامِ، منتَصِبَ القامَةِ معتَدِلَها حامِداً ربَّه مُثنِياً عليه بآلائِه عندَ اعْتِدالِه وانتِصابِه بأَنْ وفَّقَه لذلِكَ الخضوعِ الذي قد حُرِمَهُ غيرُه..

من أسرارِ الرفعِ من الركوعِ:

ومِن حِكَمِ هذا القيامِ أن **يُفَرِّقَ به بينَ الرُّكوعِ والسجودِ**، ليكونَ كلُّ واحدٍ منهما طاعةً مُستَقِلَّةً مقصودةً بنفسِها، فإنَّ مَن أرادَ السُّجودَ لا بدَّ له من انحِناءٍ كالرّكوعِ، فلوْ سَجَدَ بعدَ الركوعِ مِنْ غيرِ قِيامٍ لتَعَذَّر التَّمييزُ بينَ هذيْنِ الرُّكْنَينِ، واللهُ أعلمُ.

وجُعِلَ شِعارُ هذا الرُّكنِ حمدَ الله والثناءَ عليه وتمْجيدَه، فيقول: «**سمعَ اللهُ لمن حمده**».

أذكارُ الرفعِ ومعانيها:

ومعنى (سَمِعَ) أيْ: **سَمْعَ قَبولٍ وإجابةٍ**، وقد كانَ رسولُنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَستعيذُ باللهِ مِن دعاءٍ لا يُسمَعُ، أي: لا يستَجاب.

قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ثم نَقَلَه منه ـ أي الركوع ـ إلى مَقامِ الاعتِـدالِ والاستِواءِ بينَ يدَيْهِ واقِفاً في خِدمَتِه كـما كـانَ في حـالِ القـراءةِ، ولـذلِكَ الاعتدالِ ذوقٌ خاصٌ، وحالٌ يحصُلُ للقَلبِ سِوى ذوقِ الركوعِ وحالِـه، وهو ركنٌ مقصودٌ لذاتِهِ، كـرُكْنِ الرُّكـوعِ والسـجودِ سـواء، ولهـذا كـانَ رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يُطيلُه كما يُطيلُ الركوعَ والسُّجودَ، ويُكثِرُ فيه مـن الثَّناءِ والحمدِ والتَّمجيدِ)، فكـانَ ممـا يقـولُ: «**ربَّنـا ولَـكَ الحمـدُ، مِـلءَ السماواتِ ومِلءَ الأرضِ وملءَ ما بينَهما، وملءَ ما شِئْتَ مِن شـيءٍ بعدُ**». (يُكرِّرُها كثيراً).

وقد وَرَدَ: «**ربَّنا لَكَ الحمدُ**»، ووَرَدَ: «**اللهم ربَّنـا لـكَ الحمـدُ**»، ووَرَدَ: «**اللهم ربَّنا ولَكَ الحمدُ**»، فأيُّ ذِكرٍ أتى به فهـوَ حَسَـنٌ، والأبْلَـغُ أن يـأتِيَ بالواوِ بَينَ ربَّنا ولَكَ الحمدُ؛ **لأنَّ الواوَ تجعَلُ الكلامَ كأنـه جُمْلتـانِ قائِمتـانِ بأنفُسِهما**؛ جملةُ (**ربَّنا**) وجملةُ (**لكَ الحمدُ**).

فقولُه (**ربَّنا**) اعْتِرافٌ منه بأنّه الربُّ الملِكُ القيُّومُ الذي أمورُ العِبادِ بينَ يَدَيْهِ، وإليهِ مَرجِعُها، وأنه المالِكُ لكُلِّ شَـيءٍ المتَصَـرِّفُ في مُلكِـهِ كيـفَ يشاءُ، وأنه الغنيُّ عن كُلِّ شَـيءٍ الفَقيرُ إليه كلُّ شـيءٍ، القائِمُ بنفسِهِ جـلَّ وعلا القائِمُ على عبادِه بما يُصلِحُهُم..

وقولُه (**ولَكَ الحمدُ**) عَطفٌ على **المعنى** المفهومِ مِن الكَلِمَةِ الأولى (**ربَّنا**)، أي: وجميعُ أنواعِ الحمدِ مِـن جَميـعِ المخلوقـاتِ لا تكـونُ إلا لـكَ وحـدَكَ، لكَمالِكَ وجَلالِكَ وجمالِكَ وعَظَمَتِكَ.. فكأنه قالَ: (**لهُ الملْكُ وله الحمدُ**).

وقولُه (**مِلءَ السماواتِ ومِلءَ الأرضِ..**) **إخبارٌ** عن شأنِ هذا الحمـدِ

وعَظَمَتِهِ قَدْراً وصِفةً، فهو ليسَ حمداً يَسيراً قليلاً عادياً، بل هو حمدٌ قد مَلأَ كلَّ شيءٍ، فملأَ العالمَ العُلويَّ والسفليَّ وما بينَهما، وهو الخلقُ الموجودُ، وهو يملأُ أيضاً ما يخْلُقُه الربُّ تبارَكَ وتَعالى بعدَ ذلك مما يشاؤُه، فحمدُه قد ملأَ كلَّ موجودٍ، وملأَ ما سيوجَدُ.

ثم يُتبِعُ ذلكَ بقولِه: «**أهلَ الثناءِ والمجدِ، أحقُّ ما قالَ العبدُ، وكلُّنا لكَ عبدٌ، لا مانِعَ لما أعْطيتَ ولما مُعطِيَ لما مَنَعْتَ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منكَ الجَدُّ**».

فقولُه (**أهلَ الثناءِ والمجدِ**): **بالنَّصْبِ** على النّداءِ، أو **بالرَّفعِ** على أنَّه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، **والأوَّلُ هو المشهورُ المختارُ** كما قال النَّوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحِ مسلمٍ، والمعنى: **يا منْ أنتَ أهلٌ لكُلِّ ثناءٍ ومَدْحٍ وتَعظيمٍ وتمجيدٍ مِن أيِّ أحدٍ**، بل لا ينبَغي ذلكَ إلا لكَ وحدَكَ لما لَكَ مِنَ الصِّفاتِ الجليلَةِ العَظيمَةِ الكامِلَةِ، فعادَ المصلّي بعدَ الركوعِ إلى ما افْتَتَحَ به الصلاةَ قبلَ الرُّكوعِ مِنَ الحمْدِ والثَّناءِ والمجدِ.

ثم يُتبِعُ ذلِكَ بقولِه (**أحَقُّ ما قالَ العبدُ**) تَقْريراً لحمدِهِ وتمجيدِه والثَّناءِ عليه، وأنَّ ذلكَ أحقُّ وأوْلى ما نَطَقَ به العبدُ مِنَ الكلامِ والثَّناءِ.

ثم اعْتَرَفَ بعُبودِيَّتِه لله تَعالى، وأن هذه العبوديةَ عامَّةٌ في جَميعِ المخلوقاتِ لا ينفَكُّ عنها أحدٌ أبداً، فقال: (**وكُلُّنا لَكَ عبدٌ**).

ثم عقَّبَ ذلِكَ بقولِه: (**لا مانِعَ لما أعْطيتَ، ولا مُعْطِيَ لما مَنَعْتَ، ولا ينْفَعُ ذا الجَدِّ مِنْكَ الجدُّ**).

أيْ: جَميعُ النِّعَمِ مِنكَ وحدَكَ، لا يمنَعُ أحدٌ عطاءً أنتَ تُريدُه ولو

اجْتمَعَ مَن في السماواتَ والأرضِ على ذلِكَ، كما أنـه لا يقْـدِرُ أحـدٌ عـلى عطاءٍ أنتَ لا تُريدُه ولو اجْتَمَعَ مَن في السَّماواتِ والأرضِ.

ولا يَنفَعُ صاحِبُ الحظِّ والغِنـى والرياسَـةِ وغَـيرِ ذلِـكَ مِـن حُظـوظِ الدُّنيا، لا ينفَعُهُ ذلِكَ منـك، وإنّـما الـذي يـنفَعُهم عِنـدَكَ التَّقـرُّبُ إليـكَ بالطاعَةِ وإيثارِ مَرْضاتِك.

والجدُّ هُوَ: الحظُّ والجاهُ والعَظَمَـةُ والغِنـى وغـيرُ ذلِـكَ مـن حظـوظِ الدُّنيا، كما أخبرَ اللهُ عن مُؤمِني الجِـنِّ أنهـم قـالوا: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ [الجن: ٣]، أيْ: تعالى ربُّنا وعَظُمَ جلَّ وعلا.

وهذه الجملَةُ كان يقولها النبيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا كما يقولها بَعدَ الخروجِ مِنَ الصلاةِ، **ليعْتَرِفَ بتوحِيدِهِ لله تعالى وأنَّ النِّعَمَ كلَّها مِنه، وأنَّ مِـن هـذه النعمِ العَظيمَةِ التي تُوجِبُ عـلى العَبْـدِ أعظـمَ حَمْـدٍ وأَتَمَّـهُ، نِعمَـةَ الهدايـةِ والتوفيقِ للطاعَةِ خاصَّةً الصلاةَ.**

وفي روايةٍ زيادةُ: «**اللهم اغْسِلْني مِن خَطاياي بالماءِ والثلجِ والبَرَدِ**».

فخَتَمَ بهذه الجملَةِ كما افْتَتَحَ بها الركعةَ في أوَّلِ الاستفتاحِ كما سَبَقَ، كما كان يختِمُ الصـلاةَ أيضـاً بالاسـتغفارِ، **فكـانَ الاسـتغفارُ في أولِ الصـلاةِ ووَسَطِها وآخِرِها**، فهو أفضَلُ ما يُقدِّمُه المؤمِنُ لنَفْسِهِ في هذه الحياةِ، راجِياً أن يُغفَرَ له قبلَ المماتِ؛ ليفوزَ برضـوانِ ربِّ الأرضِ والسـماواتِ، جعلنـا الله منهم بمنِّه وكرَمِه ورحمتِه.

فاشْتَمَلَ هذا الركنُ - **الرَّفْعُ من الركوعِ** - على أفْضَـلِ الأذكـارِ وأنفَـعِ

الدُّعاءِ؛ مِن حَمْـدِ الله وتمجيـدِه والثَّنـاءِ عليـهِ، والاعْـترافِ لـه بالعبودِيَّـةِ والتوحيدِ، والتنَصُّلِ إليهِ مِنَ الذنوبِ والخطايا، مما يدُلُّ عـلى أهميَّـةِ هـذا الذكرِ في هذا الركْنِ المقْصودِ الذي غَفَلَ عنـه أكثَـرُ النـاسِ؛ فتَجِـدَهم لا يكادُ أحدُهم يأتي بالطمأنِينَةِ في هذا الركنِ فضْلاً عن الإتيانِ بكَمالِهِ وتمـامِ الذِّكرِ الذي شُـرِعَ فيه، وهو مما أنكَرَهُ أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في زمانِه لَمَّا رأى تهاوُنَ الناسِ بذلِكَ، فصلّى لهم صلاةَ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالَ ثابِتٌ الراوي عنه: (**فكانَ أنسٌ يصنَعُ شيئاً لا أراكُم تصـنَعونَه، كـان إذا انْتَصَـبَ قـائِماً يقومُ حتى يقولَ القائِلُ: قَدْ أَوْهَمَ..**)، فهذا مما أنكَرَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عـلى الأئِمَّـةِ حيثُ قصَّـروا في هذا الركنِ، كما أنكَرَ عليهم تَقصيرَ الرُّكـوعِ والسُّـجودِ والجلوسِ بينَ السجدَتينِ، فماذا يفعَلُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لو رأى أهلَ زَمانِنا وما هُـم عليه من التَّفريطِ لا التَّقصيرِ فقطْ في هذه الصّلاةِ التي إنـما شُـرِعَتْ لهـم لتَقِرَّ بها العيونُ وتطمِـئَنَّ إليهـا النفـوسُ، حـالَ وقوفِهـا بـينَ يَـدَيْ ربِّهـا وفاطِرِها سبحانه مُتَلَذِّذَةً بخِدمَتِهِ وطاعَتِه والثَّناءِ عليه وتَعظِيمه.

الوقفةُ السابِعَةَ عشرةَ

السّجودُ

السجودُ وأهمّيّتُه :

بعدَ أن يعظِّمَ المصلّي ربَّه في الرُّكوعِ أتمَّ تَعظيمٍ، ثم يرفَعُ رأسَهُ قائِماً لله تعالى بينَ يَدَيْهِ، حامِداً إياهُ مُثْنِياً عليه بما يَليقُ به جلَّ وعلا، مُعترِفاً بعُبودِيَّتِه له وفَقرِه وحاجَتِه إليه، مُستَغْفِراً من جميعِ ذنوبِه التي تَحولُ بينَه وبينَ رضاهُ، رافِعاً يَدَيْهِ مُستَسْلِماً له ظاهِراً وباطناً.

شُرِعَ له أن يُكبِّرَ مُعَظِّماً ربَّه، **ويخرَّ ساجداً لله غيرَ رافِعٍ ليَدَيْهِ؛ لأنَّ اليَدينِ تنحَطّانِ للسُّجودِ عُبودِيَّةً لله كما ينحَطُّ الوجهُ، فأغْنى ذلِكَ عن رَفعِهما**، ولذلِكَ لم يُشرَعْ رفعُهُما عِندَ رَفعِ الرأسِ من السُّجودِ؛ لأنهما يُرفَعانِ معه كما يُوضَعانِ مَعَهُ.

ولأنَّ الرَّفْعَ تَعظيمٌ لله تعالى بالإشارَةِ يُنَبِّهُ العَبدَ على تَركِ الاشْتِغالِ بما يُنافي الصلاةَ، فشُرِعَ أن يكونَ ابتداءَ كُلِّ فِعلٍ مِنْ أفعالِ التَّعظيمِ الثلاثةِ **(القيامِ والركوعِ والسجودِ)**، وهِيَ على التَّرتيبِ مِن الأدنى إلى الأعلى، ولا يرفَعُ عندَ السجودِ؛ لأنَّ القِيامَ شُرِعَ ليُفَرِّقَ بينَ الركوعِ والسّجودِ، فالرفْعُ مَعَه ـ أي مع القيام ـ رَفعٌ للسُّجودِ فلا مَعنى للتَّكرارِ، واللهُ أعلمُ.

وشُرِعَ السُّجودُ على أكمَلِ الهيئاتِ وأبلَغِها في العبودِيَّةِ وأعمِّها لِسائِرِ

الأعضاءِ، بحيثُ يأخُذُ كلُّ جُزءٍ من البَدَنِ حَظَّه من هذه العبوديةِ.

والسجودُ ـ أحبَّتي في الله ـ هو سرُّ الصلاةِ، وركنُها الأعظمُ، وخَاتِمَةُ الركعةِ.

وما قبلَه من الأركانِ كالمقدّماتِ له، فهو يُشْبِهُ طوافَ الزيارَةِ في الحجِّ، فإنه مقصودُ الحجِّ ومحلُّ الدُّخولِ على الله وزيارَتِه، وما قبلَه كالمقدِّماتِ له.

والرّكوعُ تعظيمٌ لله تعالى فهو مرتبِطٌ بربوبيّتِه سبحانه، وأمّا السّجودُ فهو تذلُّلٌ له تعالى، فهو مرتبِطٌ بألوهيّتِه.

ولهذا أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجِدٌ، **وأفضَلُ الأحوالِ حالٌ يكونُ فيها أقربَ إلى الله**، ولهذا كان الدُّعاءُ في هذا الموضِعِ أقربَ إلى الإجابَةِ كما قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أقْرَبُ ما يكونُ العبدُ مِن ربِّه وهو ساجِدٌ، فأكْثِروا الدعاءَ فيه**» وهو في صحيحِ مسلمٍ وغيرِه، وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أمّا الركوعُ فعظِّموا فيه الربَّ، وأمّا السّجودُ فاجْتَهِدوا في الدُّعاءِ، فقَمِنٌ** ـ أي: حَرِيٌّ وجَديرٌ ـ **أنْ يُستجابَ لكم**» وهو في صَحيحِ مسلمٍ.

مِن أسرارِ السّجودِ ومَعانِيه:

في هذا السُّجودِ يتذكَّرُ العبدُ نفسَه، وأنّه مخلوقٌ من هذه الأرضِ، فجَديرٌ به ألا يخرُجَ عَن أصلِهِ، بل يرجِعُ إليه دائِماً مخالِفاً داعِيَ النّفسِ والطبعِ بالتكَبُّرِ والأشرِ، فيتذكَّرُ دائِماً أنّه عَبْدٌ مخلوقٌ مِنْ هذه الأرضِ لا يَليقُ به منازَعَةَ الربِّ الخالِقِ في شيءٍ مِنَ الكبرياءِ والعَظَمَةِ، بل يكونُ دائِماً خاضِعاً خاشِعاً متذَلِّلاً بين يدَيْه. فأُمِرَ بالسُّجودِ خُضوعاً لِعَظَمَةِ ربِّه

وفاطِرِه، وخُشوعاً له، وتذلُّلاً بينَ يَديهِ، وانْكِساراً لـه، فيرجِـعُ بـذلِكَ إلى حُكْمِ العبودِيَّةِ، ويتدارَكُ مـا قَـدْ يكـونُ حَصَـلَ لـه مـن الهفْـوَةِ والغَفلَـةِ والإعراضِ الذي خَرَجَ به عن أصلِه في عبودِيَّته لله.

وهذا السُّجودُ هو غايَةُ ما يفعَلُه العَبْدُ مِنَ التّذَلُّلِ والخضـوعِ والتَّواضُـعِ لعَظَمَةِ الله ذي الجلالِ والإكرامِ، ففيهِ يَضَعُ الإنسـانُ أشـرَفَ شـيءٍ مِنـهُ وأعلاهُ (وهو الوَجهُ) على الأرضِ، **فصارَ أعلاهُ أسفَلَهُ** خُضوعاً بينَ يَـدَي الله ربِّه الأعلى، وخشوعاً له، وتذَلُّلاً لعَظَمَتِه، واسْتكانَةً لعِزَّتِه، **وهـذا غايَـةُ خُشوعِ الظاهِرِ**، بخلافِ مَنْ يأنَفُ عَن عِبادَةِ ربِّهِ ويتكَبَّرُ على ذلِكَ ظانـاً أنَّ العبودِيّةَ لا تَليقُ به، فحُرِمَ عُبوديَّةَ الله تعالى ويُلِيَ بعبودِيّةِ الشيطانِ والأوثانِ وأنْواعِ الأنْدادِ، والعيـاذُ بـالله تعـالى؛ **فـإنَّ الإنسـانَ لا بـدَّ أن يكـونَ عبـداً لشـيءٍ، فإنْ كانَ عَبْداً لله وإلا سَيكونُ عَبداً لغيرِه**، أعاذَنا الله مِن ذلِكَ.

وهذا المتكَبِّرُ تَجِدُهُ رافِعاً رأسَه بينَ الناسِ شَامِخاً بأنفِهِ عليهِم، يظـنُّ أنـه أفضَلُ منهم وهو أحقَرُ مِن جَميعِهِم، بخـلافِ الخاشِـعِ الخاضِـعِ لله تجِـدُه متواضِعاً ذَليلاً خاشِعاً ببصـرِه بينَ يَدَيْ مولاه، متذكِّراً أنه خُلِقَ مِن هـذه الأرضِ التي تُوطَأُ بالأقدامِ والنِّعالِ، وأنه مَاكِثٌ عليها لفترةٍ يسيرةٍ يخـرجُ منها إلى لقاءِ ربِّه ومولاه، فَهِيَ أمُّه وأصْلُه، ضَمَّتْهُ حياً على ظهرِهـا ومَيْتـاً في بطنِها، وجُعِلَتْ له طُهْراً ومَسْجداً، فأُمِرَ بأن يُعَفِّرَ وجهَه في تُرابِها.

ولهذا **لا يُستَحبُّ أن يتَّقِيَ المصلّي ترابَها** بلْ يسجُدُ كيفما اتَّفقَ، كما كـان يفعَلُ عليه الصلاةُ والسلامُ حتى إنه سَجَدَ مرةً في الماءِ والطينِ.

وأكمَلُ هذا السجودِ الواجِبِ أنْ يسجُدَ على أعضائِه السـبعَةِ؛ الوجْـهِ

واليَدينِ والركْبَتَينِ وأطرافِ القَدَمينِ، **ولا بُدَّ من أن يَلمَسَ بأنفِهِ الأرضَ،** فهذا فرضٌ أمَرَ اللهُ به رسولَه وبلَّغَه الرسولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمَّتِـهِ، فيُعطـي في سجودِهِ كلَّ عضوٍ مِـن أعضـائِهِ حظَّـه مـن العبودِيَّـةِ، فيضَـعُ ناصِـيَتَه بالأرضِ بينَ يديْ ربِّه وسيِّدِه، راغِماً له أنفُـه، خاضِـعاً لـه قلبُـه، ويضَـعُ أشـرفَ ما فيه وهو وجهُه بالأرضِ، ولا سيَّما على الترابِ، معفِّراً لـه بـينَ يديْ سيِّدِه، خاضِعاً له قلبُه وجوارحه، متَذَلِّلاً لعَظَمَتِـه، خاضِـعاً لعزَّتِـه، مُستَكيناً بينَ يديه، فهو أذلُّ شـيءٍ وأكسَـرُه لربِّه تعالى، مسبِّحاً له بعلُـوِّه، فسَجَدَ القلبُ كـما سَـجَدَ الوجْـهُ وقـد سَـجَدَ معـه أنفُـه ويـداهُ ورُكبَتـاه ورِجلاه، **وشُـرِعَ لـه أن يُقِـلَّ فَخِذَيْـهِ عـن سـاقَيهِ، وبَطنَـه عـن فخِذَيْـهِ، وعَضُدَيْهِ عن جَنبَيْه، ليأخُذَ كلُّ جزءٍ منه حظَّه مـن الخضـوعِ،** ولا يحمِـلُ بعضُه بعضاً، فأَحْرِ به في هذه الحالِ أنْ يكونَ أقربَ إلى ربِّه منـه في غيرِهـا من الأحوالِ، كما قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أقْرَبُ ما يكونُ العبدُ مِـن رَبِّـه وهوَ ساجِدٌ**».

ولما كانَ السُّجودُ والاسْتِلْقاءُ عَلى البَطْنِ وما يشبِهُه يَشتركونَ في وضْعِ الرأسِ على الأرضِ، **والسجودُ إنما هو للتعظيمِ دونَ سـواهُ**، ضُـبِطَ بهـذه الكيفِيَّةِ **لتَمْييزِه** عن غيرِه.

وكمالُ هذا السّجودِ أنْ يعتَمِـدَ عـلى الأرضِ برأسِـهِ، وترتَفِـعَ أسـافِلُه ومؤخِّرَتُه على رأسِه وأعالِيهِ، ويرفَعَ بطنَهُ عن فَخِذَيْهِ، ويُبعِدَ فَخذيـهِ عـن ساقَيْهِ، ويجافي عَضُدَيه عـن جَنبَيْـه ولا يفرشَـهما عـلى الأرضِ، وينصِـبَ قدَمَيْه مُلزِقاً العَقِبَيْنِ ببعضِهما، مُثْنياً أطرافَ أصـابِعِهما متَوَجِّهـاً بهـا نحـوَ

القبلةِ، فيأخُذُ كلُّ عُضوٍ منه بحظِّه من هذه العبوديةِ، ولذلكَ إذا رأى الشَّيطانُ ابنَ آدمَ ساجِداً لله اعْتَزَلَ ناحِيةً يبكي ويقولُ كما في صحيح مسلمٍ وغيرِه: «**يا وَيْلَهُ، أُمِرَ ابنُ آدَمَ بالسُّجودِ فسَجَدَ فله الجنةُ، وأُمِرتُ بالسجودِ فعَصَيتُ فِليَ النارُ**».

ولذلِكَ أثنى الله سبحانَه وتعالى على الذين يَخِرّونَ سُجّداً عندَ سَماعِ كلامِهِ، وذَمَّ مَنْ لا يَقَعُ ساجِداً عندَه، وفيه قُوَّةٌ لقَوْلِ مَنْ أَوْجَبَ سُجودَ التلاوَةِ.

ولمّا عَلِمتِ السَّحَرَةُ صِدقَ موسى عليهِ السلامُ وكَذِبَ فِرعونَ خَرّوا سُجَّداً لربهم، فكانَتْ تلكَ السجدةُ أوَّلَ سَعادَتِهم وغُفرانَ ما أفْنَوْا فيه أعمارَهُم من السِّحرِ.

وقد أخبرَ الله تعالى عن سُجودِ جميعِ المخلوقاتِ له فقالَ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل] فأخبرَ عن إيمانِهم بعُلُوِّهِ وفوقِيَّتِهِ وخُضوعِهِم له بالسُّجودِ تَعظيماً وإجْلالاً.

وقالَ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج]، فالذي حَقَّ عليه العذابُ هو مَنْ لا يسجُدُ له سبحانَه، وهو الذي أهانَهُ بتَرْكِ السُّجودِ له، وأخبرَ أنه لا مُكْرِمَ له حيثُ هانَ على ربِّه لما تَرَكَ السُّجودَ له، فعلى قَدْرِ سُجودِ العَبدِ لله تعالى يشرِّفُه الله ويرفَعُه، كما أنه على قَدْرِ تَركِهِ

لهذا السجودِ يُهينُه اللهُ ويَضَعُهُ، واللهُ المستعانُ.

۞ أذكارُ السّجودِ ومَعانيها:

وتأمَّلِ الذكرَ الذي شُرِعَ للمصَلّي في سُجودِه وهُوَ (**سبحانَ ربيَ الأعلى**) فإنه في **غايَةِ المناسَبَةِ كغيرِه من الأذكارِ**، وقد ورَدَ الأمرُ به من النبيِّ ﷺ لما نَزَلَ قولُه تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، فقال: «**اجْعَلوها في سجودِكم**». ومَنْ تَرَكَهُ عَمْداً فصلاتُه باطِلَةٌ عندَ كَثيرٍ من العُلماءِ منهمُ الإمامُ أحمدُ وغيرُه.

وكان **الثَّناءُ على الله تعالى في هذا الموضِعِ بالعُلُوِّ في غايَةِ المناسَبَةِ**؛ لأنَّ العبدَ قد انْحَطَّ في سجودِه إلى السُّفْلِ على وجْهِهِ، **فذَكَرَ عُلُوَّ ربِّه في حالِ سُقوطِه** كما ذَكَرَ عَظمَتَه في حالِ خضوعِه في ركوعِه، ونَزَّهَ ربَّه عما لا يليقُ به مما يخالِفُ عَظَمَتَه وعُلُوَّهُ.

وتأمَّلْ ـ أخي ـ ارْتِباطَ هذينِ الذِّكرَيْنِ في الرُّكوعِ والسُّجودِ باسْمَيْ الله تعالى (**العَلِيِّ والعَظيمِ**)، تَعلَمُ السِّرَّ في اقْترانِ هَذينِ الاسْمَيْنِ في غَالِبِ الآياتِ والأحاديثِ كما اقتَرَنا في أعظَمِ آيةٍ في القرآنِ التي فيها وصْفُ الربِّ جلَّ وعلا بأكمَلِ الأوصافِ وهِيَ آيةُ الكرسيِّ حيثُ خُتِمَتْ بقولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فإنّ **العَلِيَّ هو الذي له العُلوُّ المطلَقُ من جَميعِ الوُجوه**؛ فهو عليٌّ بذاتِه فوقَ كلِّ شَيءٍ، وعليٌّ بأسمائِه وصفاتِه عَنْ كل عَيبٍ ونقصٍ، وعَليٌّ بأفعالِه عَن كلِّ ما يخالِفُ الحكمَةَ والمصلَحةَ والرَّحمةَ، **فظَهَرَ بهذا العُلُوِّ**

كمالُه سبحانه وتعالى، ولذلِكَ سَمّى نفسَه سبحانه باسمِ (**الظاهِرِ**)، **وهو الذي ظَهَرَ بِذاتِه وأسمائِه وصفاتِه وكمالِه ونعوتِ جلالِه فوقَ كلِّ شيءٍ**، ولهذا فسَّرَه عليه الصلاةُ والسلامُ بقولِه: «**وأنْتَ الظّاهِرُ فليسَ فوقَكَ شيءٌ**» وهو في صَحيحٍ مسلم وغيره.

وأما اسْمُه **العظيمُ** فهو يَرْجِعُ إلى معاني **عَظَمَتِه وإحاطَتِه بكلِّ شَيءٍ، وتصرُّفِه في ملكِه، وعِلمِه**، وغيرِ ذلكَ من أوصافِ العَظَمَةِ التي ترجِعُ إلى اسمِه (**الباطِن**) الذي فسَّرَهُ به النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقولِه: «**وأنتَ الباطِنُ فليسَ دونَكَ شيءٌ**».

فهو سبحانَه معَ عُلُوِّهِ على عَرْشِهِ وارتِفاعِه فوقَ مخلوقاتِه، أقربُ إليهِم مِن كلِّ شَيءٍ، لا يخفى عليه مِنْ حالِهم شيءٌ، بلْ هو المطَّلِعُ على ما في الضَّمائِرِ وما تُخفي الصدورُ، وهذا مِن تمامِ عَظَمَتِه سبحانه وتعالى.

فالثَّناءُ عليه باسمِهِ العَظيمِ، ثناءٌ عليه بما بَطَنَ مِن صِفاتِه، كما أن الثناءَ عليه باسمِهِ الأعلى ثناءٌ عليه بما ظَهَرَ مِن صِفاتِ كمالِه واسْتَحَقَّ عليه الحمدَ جلَّ وعلا.

فاسْتَحضِرْ وأنتَ تقولُ: (**سبحانَ ربيَ الأعلى**) عُلُوَّ الله جلَّ وعلا **وظُهورَ أسمائِه وصفاتِه** كما تَستَحضِرُ وأنتَ تقولُ: (**سبحانَ ربيَ العظيم**) **قربَه سبحانَه من عبادِه** ودُنُوَّهُ منهم وإحاطتَه بهم، مع عُلُوِّهِ سبحانه وتعالى فوقَ كلِّ شَيءٍ واستوائِه على عَرشِهِ، فيَشعُرُ القلبُ عندَها بعَظَمَةِ هذا الربِّ الذي نسجُدُ له ونُعَظِّمُه وكمالِ صِفاتِه.

وهذا كما جُمِعَ هنا جُمِعَ في مواطَنَ أُخَرَ، كما في قَـولِ النبـيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الحديثِ المتفَّقِ على صِحَّتِه: «**كَلِمتانِ خفيفتانِ على اللّسانِ، حَبيبتـانِ إلى الرحمنِ، ثَقيلتانِ في الميزانِ؛ سُـبحانَ الله وبحمـدِه، سـبحانَ الله العظـيم**». فجَمَعَ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بينَ التَّسبيحِ بحمـدِ الله المتعلِّـقِ بعُلـوِّهِ تعـالى، وبـينَ التَّسبيحِ بعظَمَةِ الله وهو المتعلِّقُ بدنُوِّهِ، فالأولُ متعَلِّقٌ باسْمِهِ (**الظـاهِر**)، والثاني متعلقٌ باسْمِهِ (**الباطنِ**)، فجَمَعَ الثناءُ بذلك جميـعَ مـا يليـقُ بـالله تعالى مِن أنواعِ الثناءِ والتَّمجيدِ له بذكرِ جَميعِ صفاتِ الكمالِ التي تفرَّدَ بها سبحانَه وتعالى.

مِنْ أدْعِيَةِ السّجودِ:

ومما كانَ يدعو به نبيُّنا صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في السُّجودِ بالإضافَةِ إلى ما ذَكَرْنـا في وقْفَةِ الركوعِ:

ـ «**اللهم اغفِرْ لي ذنبي كلَّه، دِقَّهُ وجلَّه، وأولَه وآخرَه، وعلانيَتَه وسـرَّه**» وهو عندَ مسلمٍ وغيرِه.

ـ «**اللهم اغفرْ لي ما أسْـرَرْتُ وما أعلنـتُ**» وهـو عنـدَ النسـائيِّ بسـندٍ صحيحٍ.

ــ «**اللهـم إني أعـوذُ برضـاكَ مِـن سَـخَطِكَ، وأعـوذُ بمعافاتِـك مِـن عُقوبَتِكَ، وأعوذُ بكَ منكَ، لا أحصـي ثناءً عليكَ، أنتَ كـما أثنيـتَ عـلى نفسِكَ**» وهو عندَ مسلمٍ وغيرِه.

وهذه الأدعِيةُ تضمّنَتِ سؤالَ الله تعالى في موضِعِ الإجابةِ هذا أكثرَ مـا

يحتاجُ العبدُ إليه في هذه الدّنيا ويوم لقاءِ ربِّه ؛ وهو أن يغفِرَ له ربُّه ويرحمَه ويرضى عنه ويعافيَه؛ لأنَّ ذنوبَه هي التي تبعِدُه عن ربِّه، فسأَلَ ربَّه وهو أقربُ ما يكونُ إليه أن يعافيَه ويبعِدَ عنه كلَّ ما يُبعِدُه عنه وعن رحمتِه ورضاه، فمن حصّلَ ذلِكَ حصّلَ كلَّ خيرٍ في هذه الدّنيا ويومَ لقاءِ ربِّه جلَّ وعلا يومَ لا ينفَعُ مالٌ ولا بنون إلا مَن أتى الله بقلبٍ سليمٍ.

الوقفةُ الثامِنةَ عشرةَ

الجلوسُ بينَ السّجدتَينِ

لمّا كانَتِ العبوديةُ غَايةَ كَمالِ الإنسانِ، وبها يرتَفِعُ عنـدَ ربِّـه الـرحمنِ، ويستَحِقُّ جِوارَهُ سبحانَه في الجنانِ، وكان قربُه من ربِّه على حَسَبِ نَصـيبِه من عُبودِيَّتِه، وكانتِ الصـلاةُ جامِعـةً لأنـواعِ العُبودِيَّـةِ مُتضَـمِّنَةً لجميـعِ أقسامِها، كانتْ أفضلَ أعمالِ العَبدِ. ومنزِلَتُها من الإسلامِ بمنزلَـةِ عَمـودِ الفُسـطاطِ منـه إذا سـقطَ هـذا العمـودُ سَـقَطَ البنـاءُ، كـما قـالَ ﷺ: «**رأسُ الأمرِ الإسلامُ، وعَمودُه الصلاةُ، وذِروَةُ سنامِه الجهادُ في سَبيلِ الله**»، وهو في مسندِ أحمدَ وسننِ الترمذيِّ وغيرِهما وهو صحيحٌ.

ولما كان السجودُ أفضلَ أركانِ الصلاةِ وسِـرَّها الذي شُـرِعَتْ لأجلِه شُـرِعَ أن يتكرَّرَ في الصلاةِ أكثَرَ مِنْ تكرُّرِ سائرِ الأركـانِ، وجُعِـلَ خاتمـةَ الركعةِ وغايتَها، وشُـرِعَ فِعْلُه بعدَ الركوعِ، فإنَّ الركوعَ تَوطِئَةٌ له ومُقدِّمَـةٌ بينَ يديهِ؛ **وذلِكَ أنّ خَاتمةَ كلِّ شـيءٍ أكْمَلُه**، كما أنَّ هذه الأمّةَ خاتِمةُ الأممِ وهي أفضَلُها وأكمَلُها، ولذلكَ خُصَّتْ بأكملِ النَّبيِّينَ والكُتُبِ والشـرائِعِ وهم خاتِمَتُهم في هذهِ الدُّنيا.

ولما شُـرِعَ في السُّجودِ التَّكرارُ، كانَ لا بُدَّ مِن الفَصلِ بينَ السَّـجدَتَينِ، **ففُصِلَ بينَهما برُكنٍ مقصُودٍ**، شُـرِعَ فيه مِنَ الدُّعاءِ مـا يُناسِـبُه ويَليـقُ بـه،

وهو سُؤالِ العَبدِ ربَّهُ المغفرةَ والرحمةَ والهدايَةَ والعَافيةَ والرزقَ، فيقولُ كما صحَّ عَن رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ربِّ اغفِرْ لي.. ربِّ اغفر لي.. رب اغفر لي..**»، وفي روايةٍ صَحيحَةٍ زيادةُ: «**اللهم اغفِر لي وارْحَمني واجبُرني وعافِني واهدِني وارْزُقني**» وهما في سننِ أبي داودَ وغيرِه بسندٍ صحيحٍ.

وهذه الدعواتُ تَضَمَّنَتْ جَلبَ خَيراتِ الدنيا والآخرَةِ، ودفْعَ شُرورِ الدنيا والآخِرَةِ؛ فبالرَّحمةِ تحصُلُ الخيراتُ، وبالمغفِرَة تُبْعَدُ الشرورُ، والهدايَةُ تُوصِلُ إلى هذا وهذا، والرِّزْقُ إعْطاءُ ما به قَوامُ البَدَنِ مِنَ الطعامِ والشرابِ، وما به قوامُ الروحِ والقَلبِ مِنَ العِلمِ والإيمانِ.

فجُعِلَ هذا الجلوسُ محلاً لهذا الدُّعاءِ لما تَقَدَّمَه مِنْ رَحمَةِ الله والثَّناءِ عليهِ والخضوعِ له، فكانَ وسيلَةً للداعِي ومقدِّمَةً بينَ يَدَيْ حاجَتِه.

۞ مِنَ المعاني والحِكَمِ في الجلوسِ بَيْنَ السَّجدَتَيْنِ:

فهذا الرُّكنُ مَقصودٌ وكذا الدُّعاءُ فيه، مَنْ فَرَّطَ فيه عَرَّضَ صلاتَه للبُطلانِ والنُّقصانِ، **وقدْ كان نبيُّنا** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يُطيلُ في هذا الركْنِ حتى يظنَّ مَن وراءَه أنه قد أوْهَمَ**، كما بيَّنَ أنسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، مما يدلُّنا على اسْتِحبابِ تَطويلِه والاهْتِمامِ بالدُّعاءِ فيه والإكثارِ مِن ذلكَ بتدبُّرٍ وتفكُّرٍ وحضورِ قَلْبٍ، **فهوَ رُكنٌ وُضِعَ للرَّغبةِ وطَلَبِ العَفوِ والمغفِرَةِ والرحمة**؛ فإنَّ **العبدَ** لما أتى بالقيامِ والحمْدِ والثّناءِ والمجْدِ، ثم أتى بالخضوعِ وتنزيهِ الربِّ وتعظيمِه، ثم عادَ إلى الحمدِ والثناءِ، ثم كَمَّلَ ذلك بغايَةِ التذَلُّلِ والخضوعِ والاستكانَةِ، **بَقِيَ أن يسأَلَ حاجَتَه ويُقَدِّمَ اعتِذارَه عن تقصيرِه**، فشُرِعَ له أن يقعُدَ بينَ يَدَيْ ربِّه، **فِعلَ العَبدِ الذَّليلِ جَاثِياً على رُكبَتَيْهِ كهَيئَةِ الملقِي**

نفسَه بينَ يدَيْ سيِّدِه راغِباً راهِباً معتَذِراً إليه معْتَرِفاً بتَقصِيرِه، سائلاً إيّاه أنْ يَجْبُرَ هذا التَّقصيرَ ويُعينَه على نفسِهِ الأمّارةِ بالسُّوءِ بالهدايَةِ والعافِيَةِ.

فينبغي الاهتمامُ بهذا الركنِ والذِّكرِ فيه، وعَدمُ التَّفريطِ فيه كحالِ أكثَرِ المصلّينَ اليومَ، وأن نُكثِرَ من الدعاءِ هنا بما سبقَ ذِكرُه من الاستغفارِ وطَلبِ الهدايَةِ والعافيةِ مِنَ الربِّ الكريمِ الغفّار، ونُكَرِّرَ الدعاءَ بذلكَ حتى نشعُرَ أنه قد حضرَ القَلبُ فيه وصدَقَ اللجوءُ إلى الله تعالى بِه، وعَظُمَتِ الحاجَةُ إليه، فنرجُو عندَها إجابَةَ الله تعالى لنا فنَفوزَ بخيرِ الدنيا والآخرةِ.

من فوائدِ ابنِ القيمِ:

ولابنِ القيِّمِ كلامٌ طَويلٌ على هذه الجِلسَةِ نذكُرُه لجمالِه وفائدتِه إذ يقولُ: (ثم شُرِعَ له أن يَرفَعَ رأسَه ويَعتَدِلَ جالِساً، **ولما كانَ هذا الاعْتِدالُ مَحْفوفاً بسُجودَيْنِ**؛ سجودٍ قَبلَهُ وسجودٍ بعدَه، فينتَقِلُ من السّجودِ إليه ثم منه إلى السجودِ الآخَرِ، **كان له شأنٌ**، فكانَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يُطيلُه** بقَدْرِ السُّجودِ يتَضَرَّعُ فيهِ إلى ربِّه، ويَستَغْفِرُه ويسأَلُه رحمَته وهِدايَتَه ورِزقَه وعافِيَتَه، **وله ذوقٌ خاصٌّ**، وحالٌ للقَلبِ غيرُ ذَوْقِ السجودِ وحالِه، **فالعبدُ في هذا القُعودِ قد تَمَثَّلَ جاثِياً بينَ يديْ ربِّه، مُلْقِياً نفسَه بينَ يديْهِ، مُعتَذِراً إليه مما جَناهُ، راغِباً إليه أن يغفِرَ له ويرحَمَه، مُستَعِدياً له على نفسِهِ الأمارَةِ بالسوءِ**.

وكان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يُكَرِّرُ الاسْتِغْفارَ في هذه القِعْدَةِ** ويُكثِرُ رغبَتَه إلى الله فيها، فمثِّلْ نفسَكَ بمنزِلَةِ غَريمٍ عليهِ حقٌّ لله وأنتَ كفيلٌ به، والغريمُ مماطِلٌ مخادِعٌ وأنتَ مطلوبٌ بالكَفالَةِ، والغريمُ مطلوبٌ بالحقِّ،

فأنتَ تَستَعدِي عليه حتى تستَخْرِجَ ما عليه من الحقِّ لتَتَخَلَّصَ من المطالَبَةِ، والقَلبُ شريكُ النَّفْسِ في الخيرِ والشرِّ، والثوابِ والعِقابِ، والحمدِ والذمِ، والنّفسُ مِنْ شَأنِها الإباقُ والخروجُ من رِقِّ العبوديةِ وتَضييعُ حقوقِ الله وحقوقِ العبادِ التي قِبَلَها، والقَلْبُ شريكُها إنْ قَوِيَ سُلْطانُها وأسيرُها، وهي شريكةٌ وأسيرةٌ إن قَوِيَ سلطانُه.

فشُرِعَ للعبدِ إذا رَفَعَ رأسَه من السجودِ أن **يَجْثُوَ بينَ يدي الله مُستَعدِياً على نفسِه**، مُعتَذِراً إلى ربِّه مما كان منها، راغِباً إليه أن يرحَمَه ويغفِرَ له ويهدِيَه ويَرْزُقَه ويُعافِيَه، **وهذه الخمسُ هي جماعُ خيرِ الدنيا والآخرةِ**؛ فإن العَبْدَ محتاجٌ بلْ مضطرٌّ إلى تحصيلِ مصالِحِه في الدنيا وفي الآخرةِ ودفعِ المضارِّ عنه في الدنيا والآخرةِ، وقدْ تَضَمَّنَها هذا الدعاءُ؛ **فإنَّ الرِّزْقَ يَجلِبُ له مَصالِحَ دنياه، والعافيةَ تدْفَعُ مَضارَّها، والهدايةُ تجلِبُ له مصالحَ أخراه، والمغفرةُ تدفَعُ عنه مضارَّها، والرحمةُ تجمَعُ ذلِكَ كلَّه.**

وشُرِعَ له أن يعودَ ساجِداً كما كانَ، ولا يُكتَفى منه بسجدةٍ واحدةٍ في الركعةِ كما اكتُفِيَ منه بركوعٍ واحدٍ؛ **لفَضلِ السجودِ وشَرَفِه ومَوقِعِه من الله**، حتى إنه أقربُ ما يكونُ إلى عبدِه وهو ساجدٌ، وهو أدخَلُ في العبوديةِ وأعْرَقُ فيها مِن غيرِهِ، ولهذا جُعِلَ خاتمةَ الركعةِ وما قَبلَه كالمقدّمَةِ بينَ يديهِ، **فمَحَلُّه من الصلاةِ محلُّ طوافِ الزيارَةِ**، وما قَبلَه من التعريفِ وتوابعه مُقَدَّماتٌ بينَ يديهِ، وكما أنّه أقْرَبُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجِدٌ، **فكذلِكَ أقربُ ما يكون منه في المناسِكِ وهو طائفٌ**، ولهذا قالَ بعضُ الصحابةِ لمنْ كلَّمَه في طوافِه بأمْرٍ مِن أمورِ الدنيا: أتقولُ هذا ونحنُ

نتَراءَى لله في طوافِنا؟ ولهذا ـ واللهُ أعلمُ ـ **جُعِلَ الركوعُ قبلَ السّجودِ تَدريجاً وانْتِقالاً منَ الشيءِ إلى ما هو أعلى منه.**

وشُرِعَ له تَكريرُ هذه الأفعالِ والأقوالِ إذْ هِيَ غِذاءُ القَلبِ والرُّوحِ التي لا قِوامَ لهما إلا بها، فكان تكريرُها **بمنزِلَةِ تَكريرِ الأكلِ حتى يشبَعَ والشربِ حتى يَروَى،** فلو تَناوَلَ الجائِعُ لقمةً واحدةً وأقْلَعَ عن الطعامِ ماذا كانت تُغْني عنه؟

هذا وفي إعادَةِ كلِّ قولٍ أو فِعلٍ مِن العبوديَّةِ والقربِ، وتَنزيلِ الثانيةِ منزِلَةَ الشكرِ على الأولى، وحصولِ مَزيدٍ منها، ومعرفةٍ وإقبالٍ وقوةِ قلب، وانشراحِ صدر، وزوالِ دَرَنٍ ووسخٍ عنِ القلبِ؛ بمنزلةِ غسلِ الثوبِ مرةً بعدَ مرةٍ، فهذه حكمةُ الله التي بهرتِ العقولَ في خلقِه وأمرِه، ودلّتْ على كمالِ رحمتِه ولُطْفِه).

أسألُ اللهَ تعالى أن يُعينَنا على ذكرِه وشُكرِه وحُسنِ عِبادَتِه.

الوقفةُ التاسعةَ عشرةَ

الجلوسُ للتّشَهّدِ

سبقَ معنا ـ أحِبّتي في الله ـ في معاني الصّلاةِ العَظيمةِ التي شرَعَها لنا ربُّنا جلَّ وعلا لنتَقَرَّبَ بها إليه ونزدادَ خُضوعاً بينَ يدَيْهِ، كيفَ أنَّ العبدَ **إذا انْتَصَبَ قائِماً في الصّلاةِ شاهَدَ بقلبِه قَيُّومِيَّةَ الله تعالى**، وتذكَّرَ قيامَه بينَ يديه، فإذا قالَ (اللهُ أكبرُ) **شاهدَ كبرياءَه وعظَمَتَه، فإذا اسْتَفْتَحَ شاهَدَ كمالَه وسلامَتَه مِن كلِّ عيبٍ ونقصٍ**، ورأى بالمقابِلِ عُيوبَه ونقائِصَه ومعاصِيَه، فسألَ اللهَ تعالى أن يُبعِدَها عنه ويغْفِرَها له، **فإذا اسْتعَاذَ أَوَى إلى رُكْنِه الشّديدِ** واعْتَصَمَ بحولِه وقوَّته مِن عَدُوِّه، **فإذا قَرأَ الفاتحةَ رأى فيها مِن عَجائِبِ الأسماءِ والصِّفاتِ والأفْعالِ ما يَزيدُ في معرِفَتِه بالله والثناءِ عليهِ وحمدِه وتمجيدِه.. فإذا رَكَعَ عظَّمَ الربَّ خاضِعاً له**، ثم عادَ إلى هَيْئَتِه حامِداً ربَّه، ثمَّ كَبَّرَ ساجِداً لله متقرِّباً إليه مُتذَلِّلاً بينَ يديهِ متذكِّراً عبودِيَّتَه وفقرَه وأصلَه وحاجَتَه، ويكرِّرُ هذا السجودَ **فاصِلاً ذلِكَ بجلسَةٍ** يسألُ فيها ربَّه المغفرَةَ والرَّحمةَ والهدايَةَ والعافِيَةَ والرِّزْقَ، ثمَّ يكَرّرُ هذه العبودياتِ مَرّةً بعدَ مَرّةٍ إلى أنْ يُتِمَّ صَلاتَه؛ لأنّه أبلَغُ في حُصولِ المقصُودِ وأدْعى إلى الاسْتِكانَةِ والخضوعِ.

۞ الجلوسُ الأخيرُ وحِكَمُه:

فلـمّا كَمَّـلَ العبـدُ ركـوعَ الصّـلاةِ وسُـجودَها وقِراءَتَهـا وتَسْـبيحَها وتكبيرَها، **شُـرِعَ له أنْ يَجْلِـسَ في آخِـرِ صَـلاتِه جِلسَـةَ المتَخَشِّـعِ المتَـذَلِّلِ المستَكينِ**، كما يَقْعُدُ العبدُ الذَّليلُ بينَ يَدَيْ سيِّدِهِ جاثِياً على رُكبَتَيْـهِ، ويـأتي في هذه الجِلْسَةِ بأكمَلِ التَّحِياتِ وأفْضَلِها، وذلكَ أنّه داخِلٌ على الله تعالى، **ولا بدَّ حالَ الدُّخولِ مِن تحيةِ المدْخولِ علَيْه، وتحيةِ مَنْ يُواجِهُه ويقِفُ بـينَ يدَيْهِ**، عِوَضاً عنْ تَحِيّةِ المخلوقِ للمَخْلوقِ إذا واجَهَهُ أو دَخَـلَ عَليـه؛ فـإنَّ الناسَ يُحَيُّونَ مُلوكَهم وأكابِرَهُم بأنواعِ التَّحِيّاتِ التي يُحْيُونَ بهـا قلـوبَهم، فبعضُهُم يقولُ: أنعِـمْ صـباحاً، وبعضُـهم يقـول: لـكَ البقـاءُ والنعمـةُ، وبعضُهم يقولُ: أطالَ اللهُ بقاءَكَ.. وبعضُهم يسـجُدُ للمُلـوكِ، وبعضـهم يُسَلِّمُ.. **فتحيّاتُهم بينَهم تتَضَمَّنُ ما يُحِبُّه المُحَيَّى مِنَ الأقْوالِ والأفْعالِ.**

ولما كانَ الملِكُ الحقُّ المبينُ الذي كلُّ شـيءٍ هالِـكٌ إلا وجهَـه سـبْحانَه أولى بكلِّ تحيّةٍ مِن جميعِ خَلقِهِ ـ بل التّحيّاتُ له بالحقيقَـةِ؛ ولهـذا فُسِّـرَتْ التّحياتُ بالمُلْكِ، وفُسِّـرَتْ بالبَقـاءِ والـدّوامِ، والله جـلَّ وعـزَّ هـو الملِـكُ الحقُّ، وهو الحيُّ الذي كلُّ شـيءٍ هالكٌ إلا وجهَه، فكانَ سبحانه وتعـالى أوْلى بهذه التّحياتِ مـن غـيرِه ـ شَـرعَ لنـا ربُّنـا أنْ نجْعَـلَ أطيَـبَ تِلـكَ التَّحِيّاتِ وأزْكاها وأفْضَلَها وأكْمَلَها له سبحانَه وتعـالى، تحِيّـةً مِـنَ العَبْـدِ للحَيِّ الـذي لا يَمـوتُ، فنقـولُ: «التَّحيّـاتُ لله والصَّـلواتُ والطَّيبـاتُ، السّلامُ عليكَ أيُّها النّبيُّ ورحمةُ الله وبركاتُه، السّلامُ علَيْنـا وعـلى عِبـادِ الله الصالحينَ، أشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه».

۞ من معاني التحياتِ وأسرارِها:

-(**التحِيّاتُ**): جَمْعُ تَحِيَّةٍ، وهِي تَفعِلَةٌ من الحياةِ، وأصْلُها (تحيِيَة) بوزن تَكْرِمَة، ثم أُدْغِمَ أَحَدُ المِثْلَيْنِ في الآخَرِ فصارَتْ (تحِيّة)، **فأصْلُها إذاً مِن الحياةِ، والمطْلوبُ لَمَنْ يُحَيّا بِها دَوامُ الحياةِ والبَقاءِ**، وكانوا يَقولونَ لُملوكِهِم وعُظَمائِهِم: لكَ الحياةُ الباقيةُ ولكَ الحياةُ الدائمةُ، واشْتُقَّ منها: أدامَ اللهُ بقاءَكَ، وأطالَ اللهُ بقاءَكَ، ونحوُ ذلِكَ مما يُرادُ به دوامُ الحياةِ والمُلْكِ، ولما كانَ ذلِكَ لا يَنْبغي إلا للحَيِّ الذي لا يموتُ وللمَلِكِ الذي كلُّ مُلكٍ زائلٌ غيرُ مُلكِهِ، **كانَ اللهُ سُبْحانَه أولى بهذِهِ التّحِيّاتِ مِنْ كلِّ ما سِواهُ**، فلا يَستَحِقُّ هذه التّحِياتِ إلا الحيُّ الباقي الذي لا يموتُ ولا يزولُ مُلْكُه جلَّ وعلا.

فكلُّ تحيةٍ يُحيّى بها مَلِكٌ مِن سُجودٍ أو ثَناءٍ أو بَقاءٍ ودوامٍ فهيَ لله ﷻ على الحقيقةِ، ولهذا جيءَ بها **مجموعةً مُعرَّفةً باللّامِ لتَدُلَّ على العُمومِ والكَمالِ**، أي: جميعُ أنواعِ التّحِياتِ مِن جميعِ الوجوهِ في جميعِ الأوقاتِ مِن جَميعِ الأَجْناسِ، لله وحدَه لا لسِواهُ. ثمّ عَطَفَ عليها (**الصلواتُ**) بلَفْظِ الجَمْعِ والتّعريفِ، **ليَشْمَلَ أيْضاً كلَّ ما أُطلِقَ عليه لفظُ الصلاةِ**، فكلُّ ذلِكَ لله وحدَه لا ينبغي إلا لَه، **فالتّحِياتُ له مِلْكاً، والصّلَواتُ له عُبودِيّةً واسْتِحْقاقاً، فالتّحِياتُ لا تكونُ إلا به، والصّلواتُ لا تَنبغي إلا له**، بلِ الصلاةُ لغيرِه مِنْ أعظَمِ الكُفْرِ والعياذُ باللهِ.

وأما (**الطّيّباتُ**) **فهِيَ صِفَةٌ لموصوفٍ محذوفٍ يَدُلُّ حَذْفُه على العُمومِ**،

أيْ: **الطّيّباتُ مِنَ الأفْعالِ والأقْوالِ والأسْماءِ والصِّفاتِ لله وحدَه**، فهو سبحانَه طيِّبٌ، وأفْعالُه طَيّبةٌ، وصِفاتُه أطْيَبُ شيءٍ، وأسْماؤُه أطيَبُ الأسْماءِ، ومِن أسمائِه (**الطَّيِّبُ**)، فلا يَصْدُرُ عنه إلا طَيِّبٌ، ولا يصْعَدُ إليه إلا طيِّبٌ، ولا يَقرُبُ منه إلا طيّبٌ، ولا يُجاوِرُه في جنَّتِه دارِ الطّيّبينَ إلا طيّبٌ، بل لا يكونُ شيءٌ مِنَ الطّيّباتِ في شيءٍ إلا منهُ سبحانه وتعالى، **فالطّيّباتُ كلُّها له ومُضافةٌ إليه وصادِرَةٌ عنه ومُنتَهِيَةٌ إليه**، كما قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ طيبٌ لا يَقْبَلُ إلا طَيّباً**»، وهوَ في صَحيحِ مسلمٍ، وقالَ تعالى في بِشارَةِ الملائِكَةِ للمؤمنينَ يومَ القيامَةِ: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقالَ سبْحانَه: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢].

فإذا كانَ سُبْحانَه هوَ الطيِّبَ على الإطْلاقِ، **فالكَلِماتُ الطّيّباتُ والأفْعالُ الطّيّباتُ، والصّفاتُ الطيّباتُ، والأسْماءُ الطّيّباتُ، كلُّها له سُبْحانَه لا يَسْتَحِقُّها أحَدٌ سِواهُ**، بلْ ما طابَ شيءٌ قطُّ إلا بطِيبَتِه سبحانه، فكانت هذه التَّحِيَّةُ لا تَصْلُحُ إلا له سُبْحانَه وتعالى.

وأيضاً، فمَعاني الكلماتِ الطّيّباتِ لله وحدَه كما يقولُ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللهُ، فإنَّ الكلماتِ الطّيّباتِ تتَضَمَّنُ تَسْبيحَه وتَحْميدَهُ وتَكْبيرَه وتمْجيدَه والثناءَ عليه بآلائِه وأوصافِه، فهذه الكلماتُ الطيباتُ التي يُثنى عليه بها ومَعانيها له وحدَه لا يشارِكُه فيها غيرُه، مثلُ (سُبحانَكَ اللهم وبحمدِكَ وتبارَكَ اسْمُكَ وتَعالى جدُّكَ ولا إلهَ غيرُكَ) ونحو (سبحانَ الله والحمدُ لله ولا إله إلا اللهُ واللهُ أكبَرُ) ونحوُ (سبحانَ الله وبحمدِه سبحانَ الله العَظيمِ).

۞ مِنْ كلامِ ابنِ القيمِ :

قالَ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: (فكلُّ طيِّبٍ فلَهُ وعِنْدَه ومِنْه وإلَيْهِ، وهو طيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلا طَيّباً، وهو إله الطّيّبينَ ورَبُّهم، وجِيرانُه في دارِ كرامَتِه همُ الطّيّبونَ. فتأمَّلْ أطيَبَ الكَلِماتِ بعدَ القرآنِ كيفَ لا تنبَغي إلا لله، وهِيَ: سُبحانَ الله والحمدُ لله ولا إلـه إلا اللهُ واللهُ أكبرُ ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله، فإنَّ (سبحانَ الله) تتَضَمَّنُ تنزيهَه عن كلِّ نقصٍ وعَيبٍ وسُوءٍ، وعن خَصائِصِ المخلوقينَ وشِبْهِهِم، (والحمدُ لله) تتَضَمَّنُ إثباتَ كلِّ كمالٍ له قَولاً وفِعْلاً ووَصْفاً على أتَمِّ الوُجوهِ وأكمَلِها أَزَلاً وأَبَداً، و (لا إلـه إلا الله) تتَضَمَّنُ انْفِرادَهُ بالإلهيَّةِ، وأنَّ كلَّ معبودٍ سِواهُ فباطِلٌ، وأنّه وحْدَه الإلهُ الحقُّ، وأنه مَنْ تألَّهَ غيرَه فهو بمنزِلَةِ مَنِ اتَّخَذَ بيتاً مِن بُيوتِ العَنكبوتِ يأوي إليه ويسكُنُه مِنَ الحرِّ والبَرْدِ، فهلْ يُغني عنه ذلكَ شيئاً؟ و (اللهُ أكبرُ) تتَضَمّنُ أنّه أكْبَرُ مِنْ كلِّ شَيءٍ وأجَلُّ وأعظَمُ وأعَزُّ وأقْوى وأقْدَرُ وأعْلَمُ وأحْكَمُ، فهذه الكَلِماتُ الطيِّباتُ لا تَصْلُحُ هيَ ومَعانيها إلا لله وحدَه).

۞ مِن مَعاني السّلامِ :

ولما كانَ (السّلامُ) من أنْواعِ التّحِيّةِ يَدْعو به المسلِّمُ لِمَنْ يُحَيِّيهِ، وكان اللهُ سبحانَه **هوَ السّلامُ السَّالِمُ مِن كلِّ عَيبٍ ونَقصٍ، الْـمُسَلِّمُ لعِبادِه من العُيوبِ والنَّقائِصِ والآفاتِ**، شُرِعَ لنا أنْ نَطلُبَ منه **السّلامَ لخاصَّةِ عِبادِهِ الذين ارْتَضاهم لنَفْسِهِ واخْتَصَّهم بعبودِيَّتِه**، خاصةً في موقِفِ الصّلاةِ والحضورِ بينَ يديهِ، وشُرِعَ لنا أن نبدأ بأكرَمِ عِبادِهِ وأحبِّهم إليه وأقرَبِهِم منه منزِلَةً، فنُسَلِّمَ على رسولِه عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ، ثمّ نُعَمِّمَ السلامَ على

جَميعِ المؤمنينَ الصالحينَ، كما قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فإذا قالَ: السَّلامُ عَلَيْنا وعلى عِبادِ اللهِ الصّالحينَ أصابَتْ كُلَّ عَبدٍ صالحٍ في السّماواتِ والأرضِ**»، وهوَ في الصّحِيحَينِ وغيرِهما.

۞ الخَتمُ بالشّهادَةِ والسِّرُّ في ذلِكَ:

ثمّ شُرِعَ له بعدَ ذِكْرِ هذه التّحِيَّةِ والتّسْليمِ على مَنْ يستَحِقُّ التّسليمَ خُصوصاً وعُموماً، أنْ يَشهَدَ شهادَةَ الحقِّ التي بُنِيَتْ عليها الصّلاةُ، وهي حَقٌّ مِن حُقوقِها، ولا تنفَعُه إلا بها، وهِيَ شهادةٌ لرسولِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرّسالَةِ، التي هِيَ مِفْتاحُ الإسْلامِ، فَشُرِعَ أنْ نجعَلَ هذه الشهادةَ خاتِمَةَ الصلاةِ كما شُرِعَ أن تكونَ خاتمةَ الحياةِ، فـ«**مَنْ كانَ آخرُ كلامِه لا إله إلا اللهُ دخَلَ الجنةَ**»، كما في سُنَنِ أبي داودَ وغيرِه بإسنادٍ صحيحٍ، وكذلِكَ شُرِعَ للمتوضِّئِ أنْ يختِمَ وُضوءَه بالشّهادَتَينِ، **فكانتْ هذه الشّهادةُ آخرَ الصلاةِ** كما دخَلْنا فيها أوّلاً بالتّكبيرِ والحمْدِ والثّناءِ والتَّمْجيدِ والتّوحيدِ، **لتكونَ شَهادةً نابِعَةً مِن مَعْرِفَةٍ تامَّةٍ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ وما يليقُ به وينبغي له،** لا مجرَّدَ شَهادَةٍ مِنْ قلْبٍ لاهٍ لا يَعْرِفُ ربَّه ومَعبودَه، فكان **ما سَبَقَ مِنَ الذِّكْرِ والثّناءِ والتّسْبيحِ والحمْدِ والتّعظيمِ مقدِّمَةً توصِلُ العبدَ** إذا استَشْعَرَ معانِيَها وعلِمَ ما تدُلُّ عليه، **إلى أنّه لا إلهَ إلا هو سبحانَه،** ولا تنبغي هذه الشهادةُ بالعبودِيَّةِ والخضوعِ والطاعةِ إلا له جلَّ وعلا، لما تَفَرَّدَ بهِ مِن صِفاتِ الكمالِ والجلالِ والجمالِ والعَظَمَةِ سبحانه وتعالى.

وشُرِعَتْ هذه التّحِيّةُ في وَسَطِ الصّلاةِ إذا زادَتْ على الركعَتَيْنِ؛ كمِثْلِ شَرْعِيَّةِ الفَصْلِ بينَ السَّجدَتَينِ، وفيها معَ ذلِكَ راحَةٌ للمُصَلّي ليستَقْبِلَ

الركعَتينِ الآخِرَتَينِ بنَشاطٍ وقوةٍ، بخلافِ ما إذا وَالَى بينَ الركَعاتِ، ولهذا كان الأفْضَلُ في صَلاةِ النَّفْلِ أنْ تُصَلّى مَثنى مَثْنى، وإنْ تطوَّعَ بأربَعٍ جلَسَ في وَسَطِهِنَّ، والله أعلمُ وأحكَمُ.

وقد صَحَّ في صَحيحِ البُخاريِّ وغيرِه من حَديثِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في صِفَةِ التشَهُّدِ أنه قال: «**وهوَ ـ أي النبيُّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **ـ بينَ ظَهْرانَيْنا، فلمّا قُبِضَ قلنا: السلامُ يعني: على النَّبيِّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، هذا لَفْظُ البُخاريِّ، ورواه أبو بكرِ بنُ أبي شَيْبَةَ وأبو عَوانةَ وأبو نُعيمٍ وغيرُهم مِن طريقِ شيخِ البخاريِّ بلفْظِ: «**فلما قُبِضَ قُلْنا: السّلامُ على النبيِّ**»، وفيهِ أنَّ الصّحابةَ كانوا يقولون: «**السّلامُ عليكَ أيُّها النبيُّ**» بكافِ الخطابِ في حياتِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلمّا ماتَ ترَكُوا الخطابَ وذَكَروه بلَفْظِ الغَيْبَةِ فصاروا يقولونَ: «**السّلامُ على النبيِّ**». وصحَّ أيضاً عن عطاءٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهوَ مِنْ أئِمَّةِ التابعينَ أنَّ الصّحابَةَ كانوا يفعلونَ ذلكَ، رواه عبدُ الرزاقِ بإسنادٍ صَحيحٍ كما قالَ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، **فالتَّمَسُّكُ بذلِكَ حَسنٌ وهو الأفْضَلُ اقْتِداءً بفِعْلِ الصّحابةِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ**، ومَنْ تَمَسَّكَ باللَّفْظِ الأوَّلِ الذي علَّمَهُ النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصْحابِهِ فحسنٌ أيضاً. وقد ذَكَرَ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لذلِكَ فائدةً وهي: أنه **يُنَزِّلُ النبيُّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بِمَنْزِلَةِ الحاضِرِ معَ أنّه غائِبٌ بجسَدِهِ عنا**، وذلك لأنَّ المصَلّي قدِ استَحْضَرَ صورةَ هذا النبيِّ الكَريمِ في قلبِهِ وشاهَدَ فَضْلَه وبرَكَتَه والخيرَ الذي هو فيه بسَببِهِ فقالَ: السّلامُ عليكَ أيُّها النبيُّ ورحمةُ الله وبركاتُه، كأنّه يُشاهِدُه وهو حاضِرٌ بينَ يَدَيْهِ. **قلتُ**: وفيهِ إشكالٌ، واللهُ تعالى أعْلَمُ.

۞ مِن مَعاني الصّلاةِ على النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأسرارِها:

ثمّ شُرِعَ له بعدَ ذلِكَ الصلاةُ على النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأكمَلِ الألْفاظِ، وهو اللَّفظُ الذي علَّمَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصْحابِه عليهم رِضوانُ الله تعالى، فيقول: «**اللهم صلِّ على محمّدٍ وعلى آلِ محمّدٍ كما صلَّيْتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ إنكَ حميدٌ مجيدٌ، اللهم بارِكْ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما بارَكتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ، إنَّكَ حميدٌ مجيدٌ**».

وألْفاظُ هذِه الصّلاةِ كثيرةٌ مأثُورَةٌ، فبِأيِّ واحِدٍ أتى المُصَلِّي ممّا صَحَّ فلا بأسَ، **ويُستَحَبُّ التّنَوُّعُ فيها كما ذكرْنا في أدْعِيَةِ الاستِفْتاحِ، ولا يُستَحَبُّ التّأليفُ بينَ الألفاظِ لاسْتِخْراجِ لفْظٍ مِنها لمْ يَرِدْ في السنّةِ.**

۞ تَنبيهٌ:

ونُنَبِّهُ هنا على زِيادةِ لفْظِ (سَيّدِنا) في التّشَهُّدِ أو في الصّلاةِ على النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنّ هذهِ الزّيادةَ لمْ تَرِدْ في شيءٍ من الآثارِ الصّحيحةِ ولا غيرِ الصّحيحَةِ، معَ العِلْمِ بأنَّ **النبيَّ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ هو سيِّدُ ولَدِ آدمَ بلا شَكٍّ**، فهي صِفةٌ ثابِتةٌ له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **ولكِنَّ الواجِبَ التّقَيّدُ بما علَّمَناهُ مِنَ الأذكارِ خاصَّةً في الصلاةِ.**

وقد سُئِلَ الحافظُ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ عن هذه الزيادَةِ وجوازِها، فأجابَ بقولِه: (نَعَمْ، اتِّباعُ الألْفاظِ المأثورَةِ أرجَحُ، ولا يُقالُ: لَعَلَّه ترَكَ ذلِكَ تَواضِعاً منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمَّتُه مَندوبَةٌ إلى أنْ تقولَ ذلِكَ كُلَّما ذُكِرَ، لأنّا نَقولُ: لوْ كانَ ذلِكَ راجِحاً لجاءَ عنِ الصّحابَةِ ثمّ عنِ التّابعينَ، ولمْ نَقِفْ في

شيءٍ من الآثارِ عنْ أحَدٍ منَ الصّحابَةِ ولا التَّابعينَ، أنّه قالَ ذلِكَ معَ كثرَةِ ما ورَدَ عنهم مِن ذلِكَ، وهذا الإمامُ الشافِعِيُّ أعلى اللهُ درَجَتَه، وهوَ مِنْ أكثَرِ الناسِ تَعظيماً للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالَ في خُطبَةِ كِتابِه الذي هو عُمدَةُ أهلِ مذْهَبِهِ: اللهم صَلِّ على محمّدٍ) [نقلاً عنْ صِفَةِ صَلاةِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للألباني رَحِمَهُ اللهُ].

معَ التَّنبيهِ على ضَعْفِ الحدِيثِ الذي يُرَدِّدُهُ البَعْضُ هنا، وهو (لا تُسَيِّدوني في الصّلاةِ) فهذا حَديثٌ لا أصْلَ له كما قالَ السّخاويُّ رَحِمَهُ اللهُ، مع ما في لَفظِهِ مِنَ الخطأ، فإنَّ الصّوابَ أنْ يُقالَ (لا تُسَوِّدوني) وليسَ (لا تُسيِّدوني) فدَلَّ هذا على نَكارَةِ لفظِهِ معَ بُطلانِ سَنَدِه، ولو صَحَّ لكانَ دَليلاً على ما ذَكَرْنا، ولكنَّه لم يَصِحَّ، واللهُ أعلمُ.

ومعنى هذهِ الكلماتِ الطّيّباتِ:

- **اللهم**: كَلِمَةٌ جامِعَةٌ للدُّعاءِ بجَميعِ أسْماءِ الله تعالى كما سَبَقَ بيانُه في الوَقفَةِ السادسةِ.

- **صلِّ**: الصّلاةُ هي الثَّناءُ بذِكْرِ الأوصافِ الموجِبَةِ لهذا الثَّناءِ، وهيَ **مُوجِبَةٌ لرَحمَةِ الله تعالى لا أنّها هِيَ رحمَتُه** كما قالَ البَعْضُ، بدَليلِ قولِه تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾، فغَايَرَ بينَ الصّلاةِ والرّحمةِ بالإضافَةِ. ولكنْ لا رَيْبَ أنَّ مَنْ صَلّى اللهُ عليهِ فأثنى عليهِ وذَكَرَهُ بخيرٍ في الملأ الأعلى أنه مَرْحومٌ عِندَ الله، **فالرحمةُ لازِمَةٌ للصلاةِ وهِيَ غيرُها**، واللهُ أعلمُ، فالمصَلّي يسْأَلُ اللهَ أنْ يُثْنِيَ على رسولِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الملائكَةِ بما له مِنَ الصّفاتِ الجليلةِ التي خَصَّهُ بها ربُّه

جلَّ وعلا، وهذا مِن أوجَبِ ما يجبُ على المؤمنينَ لأداءِ بعضِ حَقِّ هذا الرسولِ الكريمِ عليهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ـ **محمّدٍ**: اسمٌ من أسْماءِ نبيِّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهوَ أكثرُ أسْمائِهِ شُهرَةً، كما أنَّ مِن أسمائِه (**أحمد**) كما سَمّاهُ الله تعالى في الإنجيلِ وكما ذَكرَ عن المسيحِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في سورةِ (**الصفِّ**)، ومن أسمائِه (**محمودٌ**) وكذلِكَ منها (**الحاشرُ والماحي والعاقِبُ ونبيُّ المرحمة ونبي الملحَمَةِ**) كما صحَّ عنه عليهِ الصلاة والسلام.

وأسماؤه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **دالّةٌ على أوصْافِهِ** التي خَصَّهُ بها ربُّه سبحانَه وتعالى، والذي يَعْنينا منها هنا (**محمَّدٌ**)، وهو (**مُفَعَّلٌ**) **مِنَ الحمدِ**، ومَعْناه: **مَنْ يُحمَدُ أكثرَ مِنْ غيرِه**، وسُمِّيَ به عليه الصّلاةُ والسّلامُ لِمَا لَهُ من **الصّفاتِ التي أوجَبَتْ له الحمدَ أكثرَ مِنْ غَيرِهِ من المخْلُوقينَ**، فحُمِدَ أكثَرَ مِنْ غيرِه وأفْضَلَ، وهو الذي يَحمَدُهُ أهلُ الدُّنيا وأهلُ الآخرةِ، ويَحمَدُهُ أهلُ السماءِ والأرضِ، لكَثرَةِ **فَضَائِلِه المحمودَةِ التي تَفوقُ عَدَّ العادِّينَ**؛ فهوَ الذي ملأ اللهُ به الأرضَ مِنَ الهدى والإيمانِ والعلمِ النافعِ والعملِ الصّالحِ، وفَتَحَ به القلوبَ وكَشَفَ به الظلمةَ عَنْ أهلِ الأرضِ واستَنْقَذَهُم مِنْ أسْرِ الشّياطينِ ومِنَ الشركِ والكفْرِ بالله؛ فإنَّ رِسالَتَه وافَتْ أهلَ الأرضِ أحْوَجَ ما كانوا إليها، فإنهم كانوا بينَ عُبَّادِ أوثانٍ وعُبَّادِ صلبانٍ وعُبَّادِ كواكبٍ ومَغْضوبٍ عليهم وحَيرانٍ لا يَعرِفُ رباً يَعْبُدُه، وقدْ صحَّ في صَحيحِ مسلمٍ عن نبيِّنا عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ أنَّ اللهَ تعالى نظرَ قَبلَ بِعثَتِه إلى أهْلِ الأرضِ فمَقَتَهُم عَرَبَهُم وعَجَمَهُم إلا بقايا

مِنْ أهلِ الكِتابِ..، **والمقْتُ: أَشَدُّ الغَضَبِ.**

فأغاثَ اللهُ به العِبادَ والبِلادَ، وكَشَفَ به الظّلماتِ، وأَحْيا بـه القلـوبَ، وهَدَى به من الضلالَةِ، وبصَّـرَ به بعدَ العَمى، وعلَّـمَ بـه بعـدَ الجهالـةِ.. فعَرَفَ الناسُ ربَّهم ومَعبودَهم غايةَ مـا يمْكِـنُ حتـى تمكَّنَـتْ معرِفتُـه في قلوبهم، وعَرَّفَهم الطريـقَ الموصِـلَ لهـم إلى ربِّهِـم ورِضـوانِه وجنَّتِـه دارِ كرامَتِه.. فأيُّ بَشـر أحقُّ بأنْ يُحمَدَ منه؟! صلى اللهُ عليهِ وجـزاهُ عـن أمَّتِـه أفضلَ الجزاءِ.

ومما يُحمَدُ عليهِ أيْضاً ما **جَبَلَه الله عليـهِ مِـنْ مَكـارِمِ الأخـلاقِ وكَـرائِمِ الشِّيَمِ التي ليسَ لها مثيلٌ في البَشـر** بشَهادَةِ الموافِقِ والمخـالِفِ، فإنّـه كـانَ أعلَمَ الخلقِ، وأعظَمَهُم أمانَةً، وأصْدَقَهم حَديثاً، وأجْـوَدَهم وأسْـخاهُم، وأشدَّهم احْتِمالاً، وأعظَمَهم عَفواً ومغفرةً.. وكانَ أرحـمَ الخلـقِ بـالخلقِ وأعظَمَهم لهم نفْعاً وأنصَحَهم لهم، وأوفاهُم بالعَهْدِ والذِّمَّـةِ، وأعظَمَهـم مكافأةً على الجميلِ وأشدَّهم تواضُعاً، وأعظَمَهم إيثاراً على نفسِه، وأقـومَ الخَلْقِ بما يَأْمُرُ به، وأتْرَكَهم لما يَنهى عنه، وأوْصَلَ الخلقِ لرحمه..

وهو صاحِبُ لواءِ الحمْدِ يومَ القِيامَةِ، وصاحِبُ المقامِ المحمـودِ؛ وهـو مَقامُ الشَّفاعَةِ العُظمى الذي يحسُدُهُ عليهِ جَميعُ النَّبيِّينَ والمرسلينَ..

فلمّا كان مُشتَمِلاً على ما يقتَضـي أنْ يُحمَدَ عليهِ مـرَّةً بعـدَ مَـرَّةٍ سُـمِّيَ محمداً، **وهو اسمٌ مُوافِقٌ لمسمّاه، ولفظٌ مطابِقٌ لمعناه** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ـ **وعلى آلِ محمدٍ: وهمْ خاصَّةٌ وعامّة**؛ لأنَّ القرابـةَ بـينَ النـاسِ حِسِّـيَّةٌ

ومَعنَوِيةٌ، فالحسيَّةُ هِيَ قَرابَةُ النَّسَبِ، وأما المعْنَوِيّةُ فهيَ قَرابةُ الدِّينِ، **وهيَ الأصلُ والأقوى مِنَ القرابَتَيْنِ**، ولذلِكَ في يومِ القِيامةِ تكونُ هـي المعتـبرةَ ويتِمُّ التَّزاوُجُ بينَ النُّفوسِ بحسَـبِ مُشـابَهَتِها لبَعْضِـها لا بحسَـبِ قرابـةِ النَّسبِ فيما بينها.

فالخاصَّةُ مِن آلِهِ: هُم أقارِبُه وأهلُ بيتِه الذين حُرِّمَتْ عليهم الصَّـدَقَةُ، ويدخُلُ فـيهم ذرِّيَّتُـه وأزْواجُـه نَصّـاً في القُـرآنِ والسّـنَّةِ، بخـلافِ قَـولِ الرافِضَةِ أخزاهُم اللهُ في إخراجِ أزواجِه مِنْ أهلِ بَيتِهِ، فقدَ قالَ تعـالى بعـدَ الأوامِرِ والتَّوجِيهاتِ التي وجَّهَها إلى أزواجِ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في سُـورَةِ الأحـزابِ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقالَ عليهِ الصّـلاةُ والسّـلامُ: «**اللهـم اجْعَـلْ رِزقَ آلِ محمّدٍ قُوتاً**» متّفَقٌ عليـهِ، وفي بعـضِ ألْفـاظِ التّشَـهُّدِ الصَّـحيحةِ: «**اللهم صَلِّ على محمدٍ وأزواجِهِ وذريَتِه**».

وأمّا القَرابَةُ العامَّةُ فهم جميعُ أتباعِه إلى يومِ القيامَـةِ؛ لأنَّ كلِمَـةَ **(الآلِ)** مِنَ آلَ يَؤولُ إذا رَجَعَ، ومَرجِعُ الأتْباعِ إلى مَتبـوعِهِم، ولهـذا قـالَ تعـالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ [القمر: ٣٤]، والمرادُ أتْباعُـه المؤمنـونَ بـه، وقـال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦].

وشُـرِعَتِ الصّلاةُ على آلِه مَعَ الصَّلاةِ عليهِ تَكْميلاً لقُرَّةِ عَينِهِ بإكْرامِ آلِهِ والصلاةِ عليهِم.

ـ **إبراهيمَ**: مَعناه بالسِّـريانِيةِ: أبٌ رَحيمٌ.

واللهُ سبحانَه جَعَلَ إبراهيمَ عليهِ السّلامُ الأبَ الثالِثَ للناسِ؛ فالأوَّلُ والثاني آدمُ ونوحٌ عليهما السّلامُ، والثالِثُ أبُ الأنبياءِ وإمامُ الحُنَفاءِ الذي اتخذَه الله خليلاً وجعلَ النبوةَ والكتابَ في ذرّيّتِهِ، ولمْ يأمُرِ اللهُ تعالى رسولَه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ يتَّبِعَ مِلَّةَ أحَدٍ إلا مِلَّةَ إبراهيمَ عليه السلامُ فقالَ: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النحل : ١٢٣] .

وكانَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوصي أصْحابَه أنْ يَقولوا إذا أصبَحُوا وإذا أمْسَوْا: «**أصْبَحْنا على فِطْرَةِ الإسلامِ، وعلى كلمةِ الإخلاصِ، وعلى دِينِ نَبيِّنا محمدٍ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وعلى مِلَّةِ أبينا إبراهيمَ حَنيفاً وما كانَ مِنَ المشركينَ**» وهو في المسندِ بسندٍ صحيحٍ، **فجَعَلَ المِلَّةَ لإبراهيمَ عليهِ السّلامُ فإنّه صاحِبُ المِلَّةِ، والدِّينَ لنبيِّنا عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ وهو دينُه الكامِلُ.**

ومِن فَضائِلِ إبراهيمَ عليه السّلامُ أنه **خَيْرُ الأنْبياءِ بعدَ نبيِّنا عليهِ الصلاةُ والسلامُ، وهوَ أوّلُ مَن ضافَ الضَّيفَ، وأوّلُ مَنِ اخْتَتَنَ، وأولُ مَن رأى الشَّيْبَ، وهو الذي استَسْلَمَ لأمْرِ ربِّه في ذَبْحِ وَلَدِه الوحيدِ ونجحَ في ذلِكَ البَلاءِ المبينِ، وأصبَحَتِ الذّبائحُ والقرابينُ سنّةً في أتْباعِهِ إلى يومِ الدّينِ، وهو الذي فَتَحَ بابَ مناظَرَةِ المشركينَ، وهو الذي بنى بيتَ الله الحرامَ وأَذَّنَ في الناسِ بحجِّهِ.. ومناقِبُه عليه السلامُ أجلُّ مِنْ أن يُحيطَ بها كلامُنا.**

ـ **اللهم بارِكْ..: البَرَكةُ: اجْتِماعُ الخيراتِ وكثْرَتُها وثُبوتُها واستِقرارُها ولُزومُها ودوامُها**، وقد سبَقَ معنا بيانُ ذلكَ بفضلِ الله تعالى في أدْعِيَةِ الاستفتاحِ، ولله الحمدُ والمنةُ.

وهذا سؤالٌ مِنَ المصلّي ودعاءٌ منه يتضمَّنُ إعطاءَ النبيِّ ﷺ **منَ الخيرِ مِثلَ ما أعْطاهُ لإبراهيمَ ولآلِ إبراهيمَ**، والأنبياءُ كلُّهم بعدَ إبراهيمَ مِنْ آلِه، فكانَ المطلوبُ لرسولِ الله ﷺ صلاةً مِثلَ الصلاةِ على إبراهيمَ وعلى جميعِ الأنبياءِ بعدَه وآلِه المؤمنينَ، **وأنْ يدومَ ذلِكَ ويَثْبُتَ له ويُضاعِفَه ويَزيدَه له**، فلهذا كانتْ هذه الصّلاةُ أكمَلَ ما يُصلّى بها على رَسولِ الله ﷺ وأفْضلَ.

ـ إنّكَ حميدٌ مجيدٌ:

حميدٌ: فَعيلٌ من الحَمْدِ بمَعْنى المحمودِ، **وجاءَ بلفْظِ (حميد) على وزْنِ فَعيلٍ ولم يقُلْ (محمودٌ)** ليَدُلَّ على أن **صِفاتِ الحمدِ التي يُحمَدُ عليها سبحانَه وتعالى ثابِتةٌ له وملازِمةٌ له**، وإنْ لمْ يحمَدْهُ أحَدٌ، فهو حَميدٌ في نفسِه، أما المحمودُ فهو مَنْ تعلَّقَ به حمدُ الحامِدينَ.

ـ والمجيدُ: من المجْدِ؛ وهيَ السَّعَةُ في الكرَمِ والجلالِ والعَظَمةِ، والمجيدُ الذي يُعطي عَطاءً واسِعاً، فالكَلِمَةُ راجِعَةٌ إلى مَعْنى السَّعَةِ، ولذلِكَ وَصَفَ اللهُ تعالى **القرآنَ بأنه مَجيدٌ لكثرَةِ ما يتضمَّنُ مِنَ المكارِمِ الدنيويةِ والأخرَوِيّةِ، ووَصفَ العرشَ بأنه مجيدٌ لسَعَتِهِ**، واللهُ تعالى **(مجيدٌ)** لسَعَةِ جَلالَتِه وكَرَمِهِ وعَطائِهِ وعَظَمَتِهِ سبحانه وتعالى.

والحمْدُ والمجْدُ يَرْجِعُ إليهما الكَمالُ كلُّه؛ فإنَّ الحمْدَ يستَلْزِمُ **الثّناءَ والمحبّةَ** للمَحمودِ النَّابِعَيْنِ مِن صفاتِ الكمالِ ونُعوتِ الجلالِ والإحْسانِ، وهي صِفاتُ الإكرامِ. وأما المجْدُ فهو **مُستلزِمٌ للعَظَمَةِ والسَّعَةِ والجلالِ**، ولهذا يُوصَفُ اللهُ بأنه ذو الجلالِ والإكرامِ.

وذِكْرُ هذَيْنِ الاسْمَينِ بعدَ الصلاةِ على النبيِّ ﷺ **وآلِه مُطـابِقٌ لقولِه تعالى:** ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود : ٧٣] ، فإنّه لما كانَتِ الصلاةُ على النبيِّ هِيَ ثناءَ الله تعالى عليهِ وتَكْريمَـه والتّنْويـهَ به ورَفْعَ ذِكْرِه وزِيادةَ حُبِّه وتقريبَه ـ كما تقدَّم ـ كانتْ مشتَمِلَةً عـلى الحمـدِ والمجدِ، **فكأنَّ المصَلّي يطلُبُ مِن الله تعالى أن يزيدَ في حمـدِه ومجـدِه**، فـذَكَرَ هَذيْنِ الاسمينِ المناسِبَينِ لذلك، كما تقدَّمَ معنا أنَّ الـداعيَ يُشْـرَعُ لـه أن يختِمَ دُعاءَهُ بما يناسِبُ مطلوبَه من الأسْماءِ الحسـنى أو يفتَـتِحَ بهـا دعـاءَه، وهذا كـما أمـرَ الله بقولـه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعـراف : ١٨٠] ، فلمّا كان المطلوبُ للرسولِ ﷺ حَمْداً ومَجْداً بصَلاةِ الله عليهِ خُـتِمَ هذا السّؤالُ باسْمَيِ الحميدِ والمجيدِ، واللهُ تعالى أعلم.

وهذه التّحِيّاتُ إنّما شُـرِعَتْ في **آخـرِ الصّـلاةِ بمَنْزِلَـةِ خُطبَـةِ الحاجَـةِ أمامَها**، فإن المصَلّي إذا فرَغَ مِن صَـلاتِه جَلَـسَ جِلْسَـةَ الراغِـبِ الرّاهِـبِ يَستَعْطي من ربِّه ما لا غِنى به عنه مِنْ خيراتِ الدنيا والآخرةِ، فشُـرِع لـه أمامَ سؤالِه وطلَبِه هذه التحياتُ، **مقدِّمَةً بينَ يَدَيْ سؤالِه**، ثـم يُتبِـعُ ذلِـكَ بالصلاةِ على مَن نالَ كلَّ خيرٍ على يديه، **فيكونُ المصـلي قـد توسَّـلَ إلى الله سبحانه بعبودِيَّتِه أولاً، ثم بالثّناءِ عليه والشّهادةِ له بالوحدانيـةِ ولرَسـولِه بالرسالَةِ ثانياً، ثم بالصّلاةِ على رسولِه** ﷺ، **وهُوَ وسيلَتُه إلى كـلِّ خَيرٍ ثالثاً، ثمّ يَختارُ مِنَ الدعاءِ ما شاءَ، فلا يَكادُ يُرَدُّ دعاؤُه**، والله أعلم.

الوقفةُ العشرونَ

الدّعاءُ قبلَ السّلامِ

إذا فَرَغَ المصَلّي مِن صَلاتِه جلَسَ جِلسَةَ الراغِبِ الرّاهِبِ يَستَعْطي من ربِّه ما لا غِنى به عنه من نَعيمِ الدنيا والآخرةِ، ويَعوذُ به مما يخافُه ويحذَرُه.

وشُرِعَتْ له التّحِياتُ أمامَ سؤالِه وطلَبِه مقدِّمَةً لدُعائِه بمَنْزِلَةِ خُطْبَةِ الحاجَةِ؛ فإنّ الداعي يُستَحَبُّ له أن يقدِّمَ بينَ يَدَيْ سؤالِه مِنَ الثّناءِ والحمدِ والتمجيدِ والتّعظيمِ للمسؤولِ ما يكونُ سبباً في قَبولِ دعائِه وإجابَتِه لما يُريدُ، كما شُرِعَ له أنْ يُقَدِّمَ فَقْرَهُ وحاجَتَه وضَرورَته وعُبودِيَّته وأنه لا غنى له عَن ربِّه طرفَةَ عَينٍ.

وذلِكَ كما علَّمَنا ربُّنا في سُورةِ الفاتحةِ، وقد سبقَ بيانُه بفضلِ الله.

فكانَتِ التَّحِيّاتُ مُقدّمةً لهذا الدّعاءِ، وأُتبِعَتْ بالصّلاةِ على مَنْ نالَتْ أمَّتُه هذه النعمَ العظيمةَ على يديهِ، اعْتِرافاً بفضلِه وأداءً لبعضِ حَقِّهِ.

والصلاةُ على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أعظَمِ الوسائِلِ بينَ يَدَي الدعاءِ كما في سُنَنِ أبي دوادَ وغيرِه بإسنادٍ صحيحٍ أنّ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**إذا صلّى أحَدُكم فليَبْدأْ بتمجيدِ ربِّه عَزَّ وَجَلَّ والثّناءِ عليه، ثمّ يصلّي على النبيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **ثم يدعو بما شاء**».

فكأنّ المصلّي توسَّلَ إلى الله سبحانَه بعبوديتِه ثم بالثّناءِ عليهِ والشّهادةِ

له بالوحْدانيّةِ ولرسولِه بالرّسالَةِ، ثمّ بالصّلاةِ على رسولِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي هو **الوَسيلةُ إلى الله، ولا يُمكِنُ الوصولُ إلى الله تعالى وجنَّتِه ورحمتِه ورضوانِه إلا مِن خِلالِه**، كما شُرِعَ لنا أن نصليَ عليه **بعدَ سَماعِ نداءِ الصلاةِ** وما فيه من التّوحيدِ والّدعوةِ إلى الفَلاحِ، **اعْترافاً بالجميلِ والنِّعمةِ التي حصَلَتْ لنا على يديهِ والتي مِن أهمِّها الصلاةُ**، ثم نسأَلُ له الوسيلةَ وهي الدرجةُ في الجنَّةِ التي لا تكونُ إلا لعبدٍ واحِدٍ، فحقَّتْ أن تكونَ له، ووَعَدَنا أنَّ مَنْ فعلَ ذلِكَ نالَتْه شفاعتُه يومَ القيامَةِ، **والجزاءُ مِن جِنسِ العَمَلِ**، فكما سألْتَ له الوسيلةَ كان وسيلةً لكَ وسبباً في رحمتِكَ يومَ القيامَةِ، جعلنا الله مِن أتباعِه وأحبابِه.

أهَمّيّةُ الدّعاءِ آخِرَ الصّلاةِ وحِكْمَتُه:

ثمّ بعدَ هذا الثّناءِ والتّوسُّلِ قيلَ للمصلّي: **اخْتَرْ مِنَ الدعاءِ ما شئتَ وتخيَّرْ أحَبَّه إليكَ، فقدْ أدَّيتَ الحقَّ الذي عليكَ وبَقِيَ أن تأخذَ الحقَّ الذي لكَ.**

فشُرِعَ له أن يستعيذَ بالله مِن جميعِ الشرورِ، فعنْ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا فَرَغَ أحدُكم مِن التشهُّدِ فلْيَتَعَوَّذْ بالله مِن أربَعٍ: مِن عَذابِ القبرِ، ومِن عذابِ جهنمَ، ومِن فتنةِ المحيا والمماتِ، ومِن شرِّ فِتنةِ المسيحِ الدجّالِ**» متفق عليه.

وعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنَّ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ يدْعو في الصلاةِ: «**اللهم إني أعوذُ بكَ مِنْ عذابِ القَبْرِ، وأعوذُ بك مِن فتنةِ المسيحِ الدَّجالِ، وأعوذُ بك مِن فتنةِ المحيا والمماتِ، اللهم إني أعوذُ بك من المأثمِ والمغرمِ**». فقالَ له قائِلٌ: ما أكثَرَ ما تَستعيذُ منَ المغرَمِ؟ فقال: «**إنَّ الرجُلَ**

إذا غَرِمَ حدَّثَ فكذَبَ، ووَعَدَ فأخلَفَ». متفق عليه.

ولم تُحَدِّدْ عائشةُ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا مكانَ هذا الدّعاءِ، وإنما جاءَ في رواياتٍ أخرى أنّه قَبْلَ السّلامِ وبعدَ التشهُّدِ كما في حديثِ أبي هريرةَ، ولذلِكَ بوَّبَ البخاريُّ لحديثِ عائِشةَ: (**بابُ الدُّعاءِ قبلَ السلامِ**)، وهذا مِن فِقهِه رَحِمَهُٱللَّهُ.

وقد ذهَبَ بعضُ الأئمةِ إلى وجوبِ هذا الدُّعاءِ لوُرودِ الأمرِ به دونَ سواهُ، وقد صحَّ في صحيحِ مسلمٍ أن طاووساً ـ وهو من أئمةِ التابعينَ ـ كان يأمُرُ ولَدَه بإعادَةِ الصلاةِ إذا لمْ يَدْعُ به. وعلى كلِّ حالٍ إذا لم يكنْ واجباً فهو من أهَمِّ الأدعِيَةِ المؤكَّدَةِ في الصلاةِ.

وهذا الدُّعاءُ يتضمَّنُ الاستعاذةَ بالله تعالى من جميعِ الشرورِ؛ فإنَّ الشرَّ إما عذابٌ في الآخرةِ وإما ما يُوصِلُ إليه، وهي أسبابُ هذا العذابِ.

وعَذابُ الآخِرَةِ نوعانِ: عذابٌ في البرزَخِ وعذابٌ في النارِ، وأسبابُه: الفتنةُ وهي نوعانِ:

ـ **كُبرى؛ وهي التي لا يمكنُ تداركُها بالتوبَةِ**، وهي فِتنةُ الدَّجّالِ وفتنةُ المماتِ.

ـ **وصُغرى؛ يمْكِنُ تداركُها بالتوبَةِ**، وهي فتنةُ الحياةِ.

وابتدَأَ بعذابِ القبرِ؛ لأنه أوَّلُ مَراحِلِ الآخرَةِ، وهو عذابٌ فَظيعٌ لا يُمكِنُ تحمُّلُه إلا لمن وفَّقَه اللهُ تعالى فمَنَعَه عنه، ومِن هذا العذابِ: أنه يُضَيِّقُ على الميتِ حتى تختَلِفَ أضلاعُه، ويُفتَحُ له بابٌ يرى مكانَه من النارِ فيُقالُ:

هذا مَقعَدُكَ حتى يبعَثَكَ اللهُ يومَ القِيامَةِ. هذا بالنِّسبَةِ للكافِرِ الفاجِرِ.

وأما المسيحُ الدَّجّالُ، فإنه سُمِّيَ بذلِكَ لأنه ممسوحُ العَينِ، ويُقَيَّدُ بالدَّجّالِ ليُمَيَّزَ عن المسيحِ عليهِ السلامُ. وفِتنَتُه أعظمُ فِتنَةٍ تمرُّ على وَجْهِ الأرضِ، وما مِن نبيٍّ إلا حذَّرَ أمَّتَه الدَّجالَ، ويأتي في وقتٍ تكونُ السماءُ قدْ منَعَتْ ماءَها والأرضُ منعَتْ نباتَها والناسُ في مجاعَةٍ شديدةٍ، فيُعطِيهِ اللهُ أنهاراً مِنْ ماءٍ عذْبٍ، ويأمُرُ السَّماءَ فتُمطِرُ والأرضَ فتُنبِتُ، ويَدعو الناسَ إلى أنه ربُّ العالمينَ، فمَنْ استَجابَ له وشرِبَ مِن مائِهِ شرِبَ من النارِ، ومَنْ وَقاهُ الله شرَّ هذه الفتنةِ وكفَرَ به يَكفيهِ التَّسبيحُ والتَّهليلُ عن الطعامِ والشرابِ ويُصبِحُ كأنه في الجنةِ لا يحتاجُ إلى طَعامٍ وشرابٍ؛ وذلِكَ لأنّه آمَنَ أعظَمَ الإيمانِ وأيقَنَ بالله ﷻ أيّما إيقانٍ.

وفتنةُ المحْيا والمماتِ هِيَ أنواعُ الابتلاءاتِ والاختِباراتِ التي تعتَرِضُ المؤمِنَ مِنْ حينِ بلوغِهِ إلى حينِ وفاتِه، وهي جميعُ فِتَنِ هذه الدنيا التي تكونُ في النفسِ والمالِ والأهلِ والوَلَدِ والدِّينِ، مِنْ سَراءٍ وضراءٍ ويُسْرٍ وعُسرٍ وفَقرٍ وغنىً..

والمحْيا مِنَ البُلوغِ إلى الموتِ، والمماتُ عندَ الموتِ؛ لأنَّ الشّيطانَ يُجهِّزُ ويُحضِّرُ نفسَهُ حتى يدفَعَهُ إلى الكُفرِ أو الضلالِ، **وقيلَ هي فِتنةُ القبرِ**، وعليه فلا تَكرارَ؛ **لأنَّ الفِتنةَ شيءٌ والعَذابَ شيءٌ آخَرُ**، وفي الحديثِ: «**إنكُم تُفتَنونَ في قُبورِكم قريباً أو مِثلاً مِن فِتنةِ الدَّجّالِ**» وهو في مسندِ الإمامِ أحمد بسندٍ صحيحٍ، وفي الآيةِ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

والمرادُ بالمأثَمِ والمغرَمِ في حَديثِ عَائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: الإثمُ والغُرمُ؛ **وهو الدَّيْنُ**، والمقْصودُ: **مِنَ الأمْرِ الذي يُوجِبُ الإثمَ**، والدَّيْنُ مِن أهمِّ ما يُوصِلُ لذلِكَ؛ وذلِكَ أنَّ الدَّينَ كثيراً ما يدْفَعُ بصاحِبه إلى الكذِبِ وإخلافِ الوَعْدِ كما بَيَّنَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَن استَغرَبَ مِن كَثْرَةِ دُعائِه بذلِكَ فقالَ: «**إن الرّجلَ إذا غَرِمَ حدَّثَ فكَذَبَ، ووَعَدَ فأخلَفَ**».

أقولُ: خاصَّةً إذا كانَ لا يُريدُ القَضاءَ أو لا يَستَطيعُه، واللهُ المستعانُ.

وبعدَ هذا الدّعاءِ يُشرَعُ للمصلّي أنْ يتخيَّرَ مِن الدُّعاءِ ما شاءَ من خَيرِ الدُّنيا والآخرةِ كما أمرَه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. **والدُّعاءُ في هذا الموضِعِ قبلَ السلامِ أفْضَلُ مِن الدُّعاءِ بعدَ السلامِ وأنفعُ للداعي**، وذلِكَ أن المصلي قد قَدَّمَ بينَ يَديْه جَميعَ أنواعِ الذّكرِ والثناءِ والتَّعظيمِ والخضوعِ والركوعِ والسجودِ واقتَرَبَ مِنْ ربِّه بسبَبِ ذلِكَ أعظَمَ القُرْبِ، فهو في محلِّ القُرْبِ والمناجاةِ، ولا ريبَ أنَّ سؤالَه في هذه الحالِ أقربُ إلى الإجابةِ من سؤالِه بعدَ انْصرافِه مِنْ بينِ يديْ ربِّه جلَّ وعلا، وقد سُئلَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أيُّ الدُّعاءِ أَسْمَعُ؟ فقالَ: «**جَوْفُ اللّيلِ الآخِرِ وأدْبارُ الصَّلواتِ المكتوبةِ**» كما في سنن الترمذي بسند حسن، ودُبُرُ الصّلاةِ هو جُزؤها الأخيرُ كدُبُرِ الحيوانِ، وقد يُرادُ به ما بعدَ انْقضائِها إذا كان هناكَ قَرينةٌ تدلُّ عليهِ.

وأكثَرُ أدْعِيَةِ نَبيِّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **كانتْ في الصلاةِ مِنْ أوَّلِها إلى آخرِها**، كما في الاستِفْتاحِ، والرّفْعِ منَ الرّكوعِ، وفي السّجودِ، وبينَ السَّجْدَتَينِ، وفي التشهُّدِ قَبْلَ التّسليمِ، وعَلَّمَ الصِّدّيقَ دعاءً يدْعو به في صلاتِه كما سيأتي، وعلَّمَ الحسَنَ بنَ عليٍّ دعاءً يدْعو به في قنوتِ الوِتْرِ، وكان إذا دعا

لقَومٍ أو على قَوم جعلَه في الصلاةِ بعدَ الركـوعِ، **مما يـدُلُّ عـلى أنَّ أفْضَـلَ أنواعِ الدّعاءِ وأقْرَبَه للإجابَةِ ما كانَ في الصّلاةِ بينَ يَدَيِ الله تعالى، وخاصّةً في السّجودِ وقبْلَ التّسليمِ**، فلا ينبغي أن نَغفَلَ عـن هـذا الأمـر أحبَّتـي في الله، ولنَسْأَلْ في هذه المواضِعِ ربَّنا جـلَّ وعـلا مـا نُريـدُه مـن خـيرِ الـدنيا والآخِرَةِ راغِبينَ راهِبينَ خَاشعينَ مُوقِنينَ بالإجابةِ منه سبحانه وتعالى.

۞ ومِنَ الأدْعِيَةِ المأثورةِ في هذا الموضِعِ قبلَ التَّسليمِ:

ـ ما رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ وغيرُهما أنّ أبا بكرٍ الصـديقَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قـالَ لرَسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَلِّمني دُعاءً أدْعو بـه في صـلاتي، قـال: «**قـلْ: اللهم إني ظلمْتُ نفْسـي ظُلْماً كثيراً، ولا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلا أنتَ، فـاغفِرْ لي مغفرةً من عِندِكَ وارْحمني، إنكَ أنتَ الغفورُ الرحيمُ**».

فتأمَّلْ ما في هذا الدُّعاءِ مِنَ المعارِفِ بالله وبالنَّفسِ، وما فيه مـن العبودِيَّـةِ لله تعالى، حيثُ أخبرَ عَن ظُلمِهِ لنفسِهِ مؤكِّداً له بـ(**إنَّ**) **المؤكِّدَةِ** ليُـدَلِّلَ عـلى تعدُّدِهِ وكثرَتِه، وأنّه **مهما عَمِلَ فلا يزالُ مُقَصِّـراً أعظَـمَ التقصـيرِ** ولـوْ كـانَ صِدّيقاً، وذلك أنَّ نِعَمَ الله على العَبدِ كَثيرةٌ جَليلةٌ لا تُعدُّ، وقُوةُ العبدِ لا تَقْدِرُ على أداءِ القَليلِ مِنْ حقِّها، بلْ شُكرُهُ هُو مِنَ النِّعَمِ التي تُوجِـبُ عليـه شُـكراً آخَرَ، وهكذا.. فما بَقِيَ أمامَه إلا الاعترافُ بالعَجْزِ والتقصيرِ الكَثيرِ.

ثم قالَ: (**فاغفِرْ لي مَغفِرَةً مِن عِندِكَ**) أي: لا ينالُها عَمَـلي ولا سَـعْيِي، بلْ عَمَلي يقصُـرُ عنها، وإنما هي مِـنْ فضـلِكَ وإحسـانِكَ لا بَكَسْـبي ولا باستغْفَاري وتوبتي.

ثم قالَ (**وارْحمني**) أيْ: ليس مُعَوَّلي إلا على مجرَّدِ رحمَتِكَ، فإنْ رَحِمْتَني وإلا فالهلاكُ لازمٌ لي.

وفي ضِمنِ هـذه الكلماتِ: **إنـه لـو عـذَّبْتَني لكـانَ هـذا عَـدْلاً فيَّ ولم تَظْلِمْني، ولا نجاةَ لي من ذلكَ إلا بعفوِكَ ورَحمتِكَ ومغفِرَتِكَ**. وقريبٌ من هذا المعنى قولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَنْ يُنجِيَ أحداً مـنكم عملُـه**» قـالوا: ولا أنتَ يا رسولَ الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يَتَغَمَّدَنِيَ الله برحمةٍ منه وفضلٍ**».

ولشيخِ الإسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ رسالةٌ مفردةٌ نافعةٌ جداً في شـرح هذا الدعاءِ.

ـ ما رواهُ مسلمٌ وغيرُه عـن عـليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسـولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ يقولُ من آخِرِ ما يقولُ بـينَ التشـهُّدِ والتسـليمِ: «**اللهـم اغفـرْ لي مـا قدَّمتُ وما أخَّرْتُ، وما أسـرَرْتُ وما أعلنتُ، ومـا أسـرَفْتُ، ومـا أنـتَ أعلمُ به مني، أنتَ المقدِّمُ وأنتَ المؤخِّرُ لا إله إلا أنتَ**».

قولُه (**أنتَ المقدِّمُ**) أي: **تُقَدِّمُ مَن تشاءُ إلى رحمتِكَ بتَوْفِيقِه إلى طاعَتِكَ**، و(**أنتَ المؤخّرُ**) **لمنْ تَشاءُ بعَـدَمِ تَوفِيقِـه فتُبعِـدَه عـن رحمتِـكَ بحكْمَتِـكَ سبحانكَ**.

ـ مـا رواهُ أحـمدُ وأبـو داودَ والنَّسـائيُّ بإسـنادٍ حَسـنٍ أنَّ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ رجلاً يقولُ في تشهُّدِهِ: (**اللهم إني أسـألُكَ يا اللهُ الواحدُ الأحدُ الصَّمدُ، الذي لم يلدْ ولم يولَدْ، ولم يكنْ له كُفواً أحـدٌ، أن تغفِرَ لي ذنوبي، إنكَ أنتَ الغفـورُ الـرحيمُ**)، فقـالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قَـدْ غُفِرَ له، قد غُفِرَ له**».

ـ مـا رواه أبـو داودَ والترمـذيُّ وغيرُهمـا بسـنَدٍ صَـحيحٍ أنَّ

رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمِعَ رجلاً يقول في تشهُّدِه: (**اللهم إني أسألُكَ بأنَّ لكَ الحمدَ، لا إله إلا أنتَ، وحدَكَ لا شريكَ لك، المنانُّ، يا بَديعَ السماواتِ والأرضِ، يا ذا الجلالِ والإكرامِ، يا حيُّ يا قيومُ، إني أسألكَ الجنةَ وأعوذُ بك من النارِ**) فقال لأصحابِه: «**تَدْرُون بما دعا**»؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ. قال: «**والذي نَفسي بيدِه؛ لقدْ دَعا اللهَ باسمِه العظيمِ (وفي روايةٍ: الأعظمِ) الذي إذا دُعِيَ به أجابَ وإذا سُئِلَ به أعطى**».

ـ ما رواه النسائيُّ بسنَدٍ جيِّدٍ عن عطاءِ بنِ السائِبِ عن أبيه قالَ: صلّى بنا عمارُ بنُ ياسرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ صلاةً فأوْجَزَ، فقالَ له بعضُ القومِ: لقدْ خَفَّفْتَ ـ أوْ أوْجَزْتَ ـ الصلاةَ، فقال: أمَا عَلَيَّ ذلِكَ، فقد دَعوتُ فيها بدعَواتٍ سمعتُهُنَّ مِنْ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلمّا قامَ تَبِعَهُ رجلٌ من القومِ، فسأله عنِ الدعاءِ فقال:«**اللهم بعِلمِكَ الغيبَ، وقُدرتِكَ على الخلقِ، أحْيِني ما علمتَ الحياةَ خيراً لي، وتوفَّني إذا علِمْتَ الوفاةَ خيراً لي، اللهم وأسألُكَ خَشيتَكَ في الغيبِ والشهادةِ، وأسألكَ كلِمَةَ الحقِّ في الرِّضا والغضَبِ، وأسألُكَ القَصْدَ في الفَقْرِ والغِنى، وأسألُكَ نَعيماً لا ينفَدُ، وأسألكَ قرَّةَ عَينٍ لا تنقَطِعُ، وأسألكَ الرِّضى بعدَ القضاءِ، وأسألكَ بَرْدَ العَيشِ بعدَ الموتِ، وأسألكَ لذةَ النَّظَرِ إلى وجْهِكَ والشّوْقَ إلى لقائِكَ في غيرِ ضَرّاء مُضرةٍ ولا فتنةٍ مضلَّةٍ، اللهم زيِّنا بزينةِ الإيمانِ واجعلنا هداةً مهتدينَ**».

قال ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: (فالشَّوقُ يحمِلُ المشْتَاقَ على الجدِّ في السَّيْرِ إلى محْبوبِه، ويقرِّبُ عليهِ الطّريقَ، ويَطوي له البَعيدَ، ويُهوِّنُ عليهِ الآلامَ

والمشاقِّ، وهوَ مِن أعْظَمِ نِعمَةٍ أنْعَمَ الله بها على عبْدِه. ولكن لهـذه النّعمَـةِ أقوالٌ وأعْمالٌ هما السَّبَبُ الذي تُنالُ به، والله سبحانه سَميعٌ لتلكَ الأقوالِ عليمٌ بتلكَ الأفعالِ، وهـو علـيمٌ بمـن يَصـلُح لهـذه ويشـكرُها ويعـرِفُ قدْرَها، ويُحِبُّ المنعِمَ عليه، فتَصْلُحُ عِنْدَه هذه النعمةُ ويصلُحُ لها، كما قـالَ تعــالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣]، **فإذا فاتَتِ العبدَ نِعمةٌ مِنْ نِعَمِ ربِّـه فليَقرأْ على نَفْسِهِ:** ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾).

الوقفةُ الحاديةُ والعشرون

التّسْليمُ

بعد أن ينتهِيَ المصلّي من صلاتِه وقِيامِه بينَ يـديْ ربِّـه، شُـرِعَ لـه أن يختِمَ صلاتَه ويخرُجَ منها بالتّسْليمِ فيقـولَ عـن يمينِـه ويسـارِه: (**السـلامُ عليكم ورحمةُ الله**).

مِن معاني التّسليمِ وحِكَمِه :

لمّا كانَ الخروجُ من الصّلاةِ لا بُدَّ له من فِعلٍ تنتَهي به، ويُباحُ به ما كـانَ قدْ حُرِّمَ بالدخولِ فيها بالتّكبيرِ، ولو لمْ يُضْبَطْ ذلِكَ لذَهبَ كـلُّ واحـدٍ إلى هَواهُ، **وَجَبَ أن يكونَ الخروجُ بكَلامٍ هوَ أحْسَنُ الكـلامِ**، ومتناسِـبٍ أتـمَّ مناسَبَةٍ مع المقامِ، **فجُعِلَ هذا التّسليمُ تَحليلاً لها، يخرجُ به المصلي كما يخـرُج بتَحْليلِ الحجِّ منه، وجُعلَ هذا التّحْليلُ دُعاءً من الإمامِ لمنْ وراءَه بالسّلامَةِ التي هي أصْلُ الخيرِ وأساسُهُ**، وشُـرِعَ لَمنْ وراءه أنْ يتَحَلَّلَ بمِثْلِ ما تَحلَّـلَ به الإمامُ، **فيكونُ التّحَلُّلُ بدُعاءِ جميـعِ المصَـلّينَ لجمـيعِهِم بالسّـلامَةِ**، ثـم شُـرِعَ ذلكَ لكلِّ مُصَلٍّ ولو كانَ منفَرِداً.

وكانَ الدعاءُ بالسّلامَةِ عندَ الخروجِ منَ الصلاةِ والانصـرافِ مِن بـينِ يديِ الله تعالى مُناسباً أعظمَ المناسبةِ، **وذلكَ أن المصلّي ما دامَ في صلاتِه بينَ يديْ ربِّه فهو في حِماهُ الذي لا يستَطيعُ أحدٌ أن يَخْفِرَهُ ويتَعَدّى عليه، بل هو**

في حمىً من الآفاتِ والشرورِ، فإذا انصرَفَ من بينِ يدَيْـهِ تبـاركَ وتعـالى ابتَدَرَتْه الآفـاتُ والبَلايـا والمِحَـنُ لـه مـن كـلِّ جانـبٍ، وجـاء الشـيطانُ بمصائِدِه وجُندِه، فالعَبْدُ أحوَجُ ما يحتاجُ أنْ ينْصَـرِفَ مَصحوباً بالسّـلامَةِ من الله، فلا يزالُ عليهِ مِنَ الله حافِظٌ إلى وقتِ الصلاةِ الأخرى، فكانَ مِـن تمامِ النّعمةِ وكمالِ الشـرعِ أنْ يكونَ انصـرافُه مِـن بَـينِ يَـدَيْ ربِّـه بسـلامٍ يستَصحِبُه ويدومُ له ويبقى معه، وكان من تَمـامِ الإحْسـانِ إلى المـؤمنينَ أنْ يدْعُوَ لهم بهذه السّلامةِ ليَشْعُرَ برابِطَةِ الإيمانِ التي تربِطُه بهم.

فتأمَّلْ أخي كيفَ افْتُتِحَتِ الصلاةُ بالتكبيرِ الجامِعِ لإثباتِ كلِّ كَمالٍ لله تعالى، **وهوَ يتَضَمَّنُ تفاصيلَ أفعالِ الصَّلاةِ وأقوالها وهيآتها**، فالصلاةُ مـن أوَّلها إلى آخرِها تفصيلٌ لمضمونِ (**اللهُ أكبرُ**)، فأيُّ تحريمٍ أحسَنُ من هـذا التحريمِ المتضَمّنِ للإخلاصِ والتّوحيـدِ؟ وأيُّ تحليـلٍ أحسَـنُ مـن هـذا التحليلِ المتضمِّنِ للإحسانِ إلى إخوانِه المـؤمنينَ، **فافتُتِحَـتْ بـالإخلاصِ وخُتِمَتْ بالإحْسانِ.**

بالإضافَةِ إلى ما في البَـدءِ والخَـتمِ بأسـماءِ الله تعـالى مـن الخـيرِ والبرَكـةِ، فخُتِمَتِ الصلاةُ باسمٍ من أسمائِه تباركَ وتَعالى كما افتُتِحَتْ باسمه، مَعْ مـا في هذه الأسْماءِ مِنَ المعاني المناسِبَةِ للابْتداءِ والانتهاءِ، فكـانَ الابْتِـداءُ بـالتَّعظيمِ والإجلالِ كدُخولِ العَبيدِ على الملوكِ، وأمـا الانْتِهـاءُ فكـانَ بالاسْـمِ الـذي يتضَمَّنُ مَعْنى السّلامَةِ والعافِيَةِ للمُصَلّي وجَميعِ إخْوانِه المصَلّينَ.

فكانَ للابْتِداءِ والانتِهاءِ مِنَ الحِكَمِ البَديعَةِ البالغـةِ التـي يَفهَمُهـا مَـنْ عَقَلَ عنِ الله تعالى وألزَمَ نفسَهُ بتأمُّلِ محاسِنِ هـذا الـدِّينِ العَظـيمِ وسـافَرَ

بِفِكرِهِ في اسْتِخراجِ حِكَمِهِ وأسْـرارِه وبَدائِعِـه، وتَغَـرَّبَ عَـن عـالَمِ العـادَةِ والإلفِ، فلمْ يقْنَعْ بمجَرَّدِ الأشباحِ حتى يعلَمَ ما يقـومُ بهـا مـن الأرواحِ، فإنَّ اللهَ لم يشـرَعْ شيئاً سُدىً ولا خُلْواً مِن حِكْمَةٍ بالغَـةٍ، بـلْ في طوايـا مـا شَـرعَهُ وأمرَ به من الحِكَمِ والأسْـرارِ التي تَبهَرُ العُقولَ مَا يستَدِلُّ به النَّاظرُ فيه على ما وراءَهُ، فيسجدُ القلبُ خضوعاً وإذْعاناً.

نسألُ اللهَ تعالى أن يمنَّ علينا بفَهمِ أسْمائِه وأسْـرارِ أحْكامِـهِ وحِكَمِـهِ، وأنْ يجعَلَ ذلِكَ حياةً لقلوبِنا، ولـذَّةً لنفوسِـنا، وراحـةً لأبْـدانِنا، وسَـبيلاً لدخولِ الجنانِ، حيثُ نتمَتَّعُ بلذَّةِ النظرِ إلى وجهِهِ الكريمِ في أعظَـمِ نَعـيمٍ معَ خيرِ العالمينَ، إنه سميعٌ مجيبٌ، والحمدُ لله ربِّ العالمينَ.

ولابْنِ القيِّمِ كلامٌ جميلٌ جامِعٌ مختَصَـرٌ أذكُرُه إتْماماً للفائِدةِ، وهـوَ مِـن كتابِ السَّماعِ له، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وسِـرُّ الصّلاةِ ولبُّها هوَ **إقْبـالُ العَبْـدِ عـلى اللهِ بكُلِّيَّتِه**، فكما أنّه لا ينبَغي لـه أن يَصْــرِفَ وجهَـه عـن قِبلَـةِ الله يمينـاً وشمالاً، فكذلِكَ لا ينبغي له أن يصـرِفَ قلبَه عن ربِّه إلى غـيرِه، **فالكعْبَـةُ التي هيَ بَيْتُ الله قِبْلَةُ وجْهِهِ وبَدَنِه، وربُّ البيتِ تبـارَكَ وتعـالى هـو قبلـةُ قلبِه وروحِه**، وعلى **حَسَبِ إقبالِ العبدِ على الله في صَلاتِه يكـونُ إقبـالُ الله عليه**، وإذا أعرَضَ أعرَضَ اللهُ عنه، وكما تَدينُ تُدانُ، وللإقبالِ في الصـلاةِ ثلاثُ منـازِلٍ: **إقبـالٌ عـــلى قلبِـه** فيحفَظُـه مِـن الشـهواتِ والوسـاوِسِ والخَطَراتِ المبْطِلَةِ لثَوابِ صَلاتِه، أو المنْقِصَةِ له، **وإقبالٌ عـلى الله بمُراقَبَتِـه** حتى كأنه يراهُ، **وإقبالٌ على مَعاني كلامِه** وتفاصيلِ عُبوديّةِ الصّلاةِ ليُعْطِيَها حقَّها من الخشوعِ والطمأنينَةِ وغيرِ ذلِكَ، فباستِكْمالِ هذه المراتِبِ الثّلاثِ

تكونُ إقامَةُ الصّلاةِ حقاً، ويكونُ إقبالُ الله على عبدِه بحسَبِ ذلِكَ.

فإذا انتَصَبَ العبدُ قائِماً بينَ يديهِ فإقبالُه على قَيّومِيَّتِه وعَظَمَتِه، وإذا كَبَّرَ فإقبالُـه عـلى كِبرِيائِـه، فـإذا سـبَّحَه وأثنـى عليـه فإقْبالُـه عـلى سُـبُحاتِ وجهِه،وتنزيهِه عمّا لا يَليقُ به، والثّناءِ عليهِ بأوصافِ جَمالِه، فإذا استعاذَ به فإقْبالُه على رُكنِهِ الشّديدِ، وانتصارِه لعَبْدِه ومَنْعِه له وحِفْظِـه مِـن عـدوِّه، فإذا تلا كلامَه فإقبالُه على معرِفَتِه مِن كلامِه، حتى كأنه يراه ويشـاهِدُه في كلامِه، فهو كما قال بعضُ السلَفِ: لقدْ تَجَلّى اللهُ لعبادِه في كلامِـه، فهـو في هذه الحالِ مقبلٌ على ذاتِه وصِفاتِه وأفعالِه وأحكامِه وأسـمائِه، فـإذا رَكَـعَ فإقبالُه على عَظَمَتِه وجَلالِه وعِزِّه، ولهذا شُـرِعَ له أن يقـولَ: سـبحانَ ربي العظيمَ، فإذا رفعَ رأسَه من الركوعِ فإقبالُه على حمدِه والثناءِ عليه وتمْجيدِه وعبوديَّتِه له وتفرُّدِه بالعَطاءِ والمنْعِ، فإذا سَجَدَ فإقبالُه على قُربِه والدنُوِّ منه والخضوعِ له والتذلُّلِ بينَ يديهِ والانكسارِ والتمَلُّقِ، فإذا رفَعَ رأسَه وجثـا على ركبَتيهِ فإقبالُه على غَنائِه وجُودِه وكَرَمِه وشدةِ حاجتِه إليه وتضـرُّعِه بينَ يديه والانكسارِ أن يغفِرَ له ويرحَمَه ويعافِيَه ويهدِيَه ويرزُقَه.

فإذا جلَسَ في التّشَهّدِ فله حالٌ آخرُ وإقبالٌ آخـر شِـبْهُ حـالِ الحـاجِّ في طوافِ الوداعِ، وقد استشعَرَ قلبُه الانصـرافَ من بينِ يديْ ربِّـه، ومُوافـاةَ العلائِقِ والشّواغِلِ التي قَطعَها الوقـوفُ بـينَ يَدَيْـه، وقـدْ ذاقَ تَـألُّمَ قلْبِـه وعذابَـه بهـا، وباشَـرَ روحَ القُـرْبِ، ونَعـيمَ الإقبـالِ عـلى الله وعافِيَتِـه وانقِطاعِها عنه مدةَ الصلاةِ، ثمّ استَشْعَرَ قلبُه عَوْدَهـا إليـه بخروجِـه مـن حمى الصّلاةِ، فهو يحمِـل هـمَّ انقضـاءِ الصـلاةِ وفراغِهـا، ويقـولُ ليتَهـا

اتَّصلَتْ بيومِ اللقاءِ، ويعْلَمُ أنه ينصـرِفُ مِن مناجاةِ مَـن كـلُّ السّـعادةِ في مناجاتِه، إلى مُناجاةِ مَنِ الأذى والهمُّ والغمُّ والنكَدُ في مُناجاتِه، ولا يشعُر بهذا إلا قلبٌ حيٌّ معمورٌ بذكرِ الله ومحبّتِه والأنْسِ به).

الوقفةُ الثانيةُ والعشرونَ

الذِّكرُ بعدَ الصَّلاةِ

بعدَ أن يخرجَ المصلّي من صَلاتِه ويتَحَلَّلَ منها بالتّسليمِ، شُرِعَ له بعدَها أنواعٌ منَ الأذكارِ قبلَ انْصرافِه مِنْ بينِ يَدَيْ ربِّه سبحانه وتعالى إلى مشاكِلِ هذه الدّنيا وهُمومِها ومُنَغِّصاتِها، فأوّلُ ما يبدأ به الاستِغْفارُ ثلاثاً بقولِه: (**أستَغْفِرُ الله**).

والاستِغفارُ هو: طلبُ المغفرةِ. **والمغفِرَةُ** هي: سَتْرُ الذَّنبِ والحمايةُ منه.

۞ والاستِغفارُ هنا له فوائدُ جليلةٌ وحِكَمٌ عظيمةٌ، منها:

ـ **إظْهارُ العَجْزِ والتّقصيرِ عن إكْمالها**؛ فإنَّ المصليَ لا بدَّ له من التقصيرِ في فِعلِ الصلاةِ وأداءِ حقِّ الله فيها كامِلاً مهما اجتَهَدَ، فهو يستغفِرُ اللهَ عن هذا التّقصيرِ البَشَريِّ، كما شُرِعَ له هذا الاستِغْفارُ بعدَ الحجِّ في قولِه تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩ ﴾ [البقرة: ١٩٩].

ـ **خروجٌ مِن مَرَضِ العُجْبِ**، وعَدَمُ الالْتِفاتِ إلى العَمَلِ، بلْ يُشاهِدُ بقَلبِه مِنَّةَ الله تعالى عليه بتَوْفيقِه لهذه العبادةِ مَعْ تَقصيرِه في أدائِها على الوجهِ اللائِقِ به سبحانه، كما يُشاهِدُ بقلْبِه عَظَمَةَ الله تعالى وجلالَه معَ ملاحَظَةِ حقارَةِ نفسِه وعَمَلِه، فيزدادُ تضرُّعاً واستِغْفاراً كلَّما ازدادَ عمَلاً،

وقد مَدَحَ اللهُ تعالى مَن كانَ هذا حالُه كما مَدحَ المستغفِرينَ بالأسحارِ بعدَ قِيامِهم بينَ يَدَيِ الله تعالى في جوفِ الليلِ، واللهُ أعلم.

ثم يُبَيِّنُ المصلّي عُذْرَه في هذا التّقْصيرِ فيقولُ: (**اللهم أنْتَ السّلامُ ومِنكَ السلامُ، تبارَكْتَ يا ذا الجلالِ والإكرام**)، كما ثَبَتَ في صَحيحِ مسلِمٍ عنْ ثوبانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: كانَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا انْصَرَفَ مِن صَلاتِهِ استَغْفَرَ ثَلاثاً وقالَ: «**اللهم أنْتَ السّلامُ ومنكَ السّلامُ، تبارَكْتَ يا ذا الجلالِ والإكرام**». وقدْ سَبَقَ معنا معنى اسمِ (**السّلامِ**) **وأنّه يَدُلُّ على أنه تعالى السّالِمُ مِن كلِّ عيبٍ ونقصٍ في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، فذاتُه سَلِمَتْ مِن كلِّ عيبٍ ونقصٍ، وأسماؤه سلِمَتْ مِن كلِّ ذمٍّ، وصِفاتُه سلِمَتْ مِن مُشابَهَةِ المخْلوقِينَ، وأفعالُه سلِمَت من العَبَثِ والظُّلمِ وخلافِ الحكمَةِ، فلَهُ الكَمالُ المطْلَقُ مِن جميعِ الوُجوهِ جلَّ وعلا، وهو معنى (سبحانَ الله والحمدُ لله). ويَلْزَمُ مِن ذلكَ أنْ يُفْرَدَ بالألوهِيَّةِ فلا يُعبَدَ إلا هو سبحانه، وأنْ يُفرَدَ بالتّعظيمِ فلا يُعظمُّ ولا يُخْضَعَ إلا له جلَّ وعلا، وهذا معنى (اللهُ أكبرُ، ولا إله إلا الله). فتضَمَّنَ اسمُ (السّلامِ) الباقياتِ الصالحاتِ التي هي أفضلُ ما يُثْنى بها على الله سُبحانَه وتعالى.**

وهوَ سبحانَه المسَلِّمُ لعبادِهِ مِنَ العُيوبِ والنّقائِصِ والآفاتِ، فلا كَمالَ للعبدِ، ولا صلاحَ له، ولا أمْنَ له، ولا سلامَةَ له في نفسٍ ولا مالٍ ولا دِينٍ ولا عملٍ إلا إذا سلَّمَه اللهُ تعالى. فكأنَّ المصلي يقولُ هنا: (اللهم إنك أنتَ السّالِمُ مِنْ كلِّ عيبٍ ونقصٍ وهذا مقتضى ربوبِيَّتِكَ وكمالِكَ سبحانك، وأما أنا فمُقْتَضى كوني مخْلوقاً أنْ أكونَ ناقِصاً مُقَصِّراً، وكلُّ كمالٍ أفعَلُه

فهوَ منكَ أنتَ سبحانَكَ، فمِنكَ السلامُ وحدَكَ كما أنَّكَ أنتَ السّلامُ وحدَكَ، فأسألُكَ ربي أن تعفُوَ عن تَقصيري في أداءِ صَلاتي على الوجْهِ الكامِلِ، كما أسألُكَ أن تُكَمِّلَني وتُسَلِّمَني، فمِنْكَ الخيرُ كلُّه ولكَ الحمدُ كلُّه، وأنتَ الذي تعالى وتقدَّسَ عَنْ كلِّ عيبٍ ونقصٍ يا مَنْ له الجلالُ والعَظَمَةُ والمجدُ، ومنه الإكرامُ والخيرُ والبركةُ والإحسانُ.

ثم بَعدَ بيانِ هذا العُذْرِ وتَضمِينِه سؤالَ السّلامَةِ والكَمالِ، يسألُ اللهَ ذلِكَ صراحةً، فيقولُ ما علَّمَه النبيُّ ﷺ لمعاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنْ يقولَ دُبُرَ كلِّ صلاةٍ: «**اللهم أعِنِّي على ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عِبادَتِكَ**»، كما في سنن أبي داود والنسائي بإسناد صحيح.

فيسألُ اللهَ تعالى أنْ يُعينَه على أداءِ بَعضِ الحقِّ الذي عليه فيُيَسِّرَ له الذكرَ ـ والصلاةُ مِن أعظَمِ الذكرِ ـ وكذا أنْ يُيَسّرَ له شكْرَه على نِعَمِهِ التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، وأخصُّها نعمةُ الإيمانِ والقرآنِ والصلاةِ، وأيْضاً أنْ يُعينَه على أداءِ عبادَتِه على أحسَنِ الوُجوهِ وأكمَلِها.

ثم يُثْني على الله تعالى بما هو أهْلُه متبَرِّئاً من حَوْلِه وقوَّتِه وأنّه لا مانِعَ لما أعطاه سبحانَه ولوْ اجْتَمَعَ مَن بأقطارِها كما أنه لا مُعطي لما مَنَعَ ولو اجتَمَعَ كلُّ الخلقِ على ذلِكَ، ولا ينفَعُ أحداً يومَ القِيامَةِ تَعَبُهُ ولا حَظُّهُ مِن هذه الدُّنيا ولا اجْتهادُه، وإنما ينَفَعُه إيمانُه وعمَلُه الصالحُ فيَقولُ ما كانَ يقولُه ﷺ إذا فَرَغَ مِن صَلاتِه كما ثبتَ في الصحيحينِ مِن حَديثِ المغيرةِ: «**لا إله إلا اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ، وهو على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ، اللهم لا مانِعَ لما أعطيتَ، ولا مُعطِيَ لما مَنَعْتَ، ولا ينفَعُ**

ذا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ». وقدْ سبَقَ معنا بيانُ معناه في وقفاتٍ سابقةٍ.

وإنْ قالَ: «**لا إله إلا اللهُ وحْدَه لا شريكَ له، له المُلْكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ، لا إله إلا اللهُ ولا نعبُدُ إلا إياهُ، له النّعمةُ وله الفَضْلُ وله الثَّناءُ الحسنُ، لا إله إلا اللهُ مخلِصينَ له الدينَ ولو كَرِه الكافرونَ**» فحَسَنٌ أيضاً، وقد ورَدَ في صَحيحِ مُسلمٍ مِن حَديثِ عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيرِ.

وفيه البراءةُ مِنَ الحَوْلِ والقوَّةِ؛ والحَوْلُ مِنَ التَّحوُّلِ، أي: لا تَحَوُّلَ مِنْ حالٍ إلى حالٍ إلا باللهِ سبحانه وتعالى، والقُوّةُ مَعلومَةٌ. والمعنى: **لا يُمكِنُني التَّحوُّلُ مِن حالٍ إلى حالٍ ولا أقْوى على ذلِكَ إلا بمَعونَةٍ منَ اللهِ سبحانه.**

وقولُه (**له النِّعمةُ وله الفَضْلُ وله الثّناءُ الحَسَنُ**) اعْتِرافٌ للهِ تَعالى بأنَّ **له النّعمةَ كلَّها**، فلا يتَفَضَّلُ بها على العبدِ إلا هو سبحانَه. **كما له الفَضْلُ كلُّه**، وهوَ التَّفَضُّلُ بالنِّعَمِ والإكْرامِ، **وله الثّناءُ الحسَنُ**، وهو الذّكرُ الجميلُ النّابعُ مِن مَعرفَةِ أوصافِ كَمالِهِ وجَلالِه وجمالِه سبحانه وتعالى. ولأجْلِ تفرُّدِه سبحانه بهذه الأمورِ عَبدْناه وحدَه وأخلَصْنا له عبادَتَنا، فلَمْ نجعَلْ شيئاً منها لغَيرِه تعالى، ولو كَرِه ذلكَ الكافِرونَ.

۞ السِّرُّ في التّسبيحِ والتّحميدِ والتّكبيرِ:

ثم يُسبِّحُ اللهَ ثلاثاً وثلاثينَ ويحمَدُه ويُكَبِّرُه كذلِكَ، فهذه تِسعٌ وتِسعونَ، ويختِمُ المائةَ بقولِه: (**لا إله إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ**).

وقدْ جاءَ في فَضْلِها أنّه يُغفَرُ له خطاياهُ وإنْ كانتْ مثلَ زبَدِ البَحرِ، كما

في صحيحِ مسلمٍ من حديثِ أبي هريرةَ. وجاءَ من حَديثِه أيضاً في الصّحيحَينِ أنَّ مَنْ قالها أدْرَكَ مَن سَبَقَهُ بالجهادِ والصّدَقاتِ وجاءَ بأفْضَلِ ما يمْكنُ فلا يُدرِكُه إلا مَن فَعَلَ مثلَه وزيادة.

وقد سَبَقَ معنا أهميّةُ هذا الذكرِ ومَعناه في الوَقفَةِ السابِعةِ مِن أدعيةِ الاستِفْتاحِ، وذكرْنا أنه يَجمَعُ الثناءَ على الله بجَميعِ أسمائِه تعالى الحسنى التي تنقَسِمُ إلى أقسامٍ ثلاثةٍ، كلُّ قِسمٍ منها يُوجِبُ مَعرِفتُه نوعاً من هذه الأذكارِ، ثمّ يَكونُ الخَتْمُ بنَتيجَةِ هذه المعرفةِ العَظيمَةِ بالله تعالى، فيشهدُ بيقينٍ شَهادةَ الحقِّ والإخلاصِ، ولهذا كان هذا الذِّكرُ قليلاً في الكلامِ ولكنه كفّارةٌ لجميعِ الذُّنوبِ والآثامِ، ويرفَعُ العبدَ في أعلى الدّرَجاتِ، **شرطَ أن يَخرُجَ مِنَ القَلْبِ لا مِنْ مجرَّدِ اللسانِ**، خُروجاً نَابِعاً من معرِفَةٍ بالله مع استِحضارِ معاني أسمائِه وصفاتِه سبحانَه وتعالى.

سِرُّ قِراءةِ آيةِ الكرسيّ:

ثمّ يقرأُ آيةَ الكُرسِيِّ، وقدْ وَرَدَ في فَضْلِ ذلِكَ ما رواهُ أبو أمامةَ الباهليُّ عن النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما عندَ النسائي وابنِ السُّنِّيِّ بسَنَدٍ حسَنٍ لغيرِه أنه قال: «**مَن قرأ آيةَ الكُرسيِّ في دُبُرِ كلِّ صَلاةٍ لم يَحُلْ بينَه وبينَ الجنةِ إلا الموت**»، أي: إنْ ماتَ دخلَ الجنةَ، فلا يوجَدُ ما يمنَعُه من الجَنّةِ إلا أنْ يَموتَ. **والسبَبُ في ذلِكَ واللهُ أعلمُ، أنَّ الذي يحولُ بينَ العبدِ وبينَ الجنَّةِ أمرانِ هما: حياتُه في الدّنيا، والشرّكُ بالله، فآيَةُ الكرسيِّ تُحقِّقُ التّوحيدَ الخالِصَ لله تعالى وتطهِّرُ القلبَ من الشركِ لِمَن قَرأها صادِقاً مُوقِناً مخلِصاً؛ لما تضَمَّنَتْه من صِفَةِ الرحمنِ سبحانه وتعالى، ولهذا كانتْ أعظَمَ آيةٍ في**

القرآنِ، وهي تُساوي في معناها التسبيحَ والحمدَ والتكبيرَ الذي يُغفَرُ بهم جميعُ الذنوبِ كما سبقَ، فلا يبقى هناك مانعٌ من دخولِ الجنةِ إلا أن يموتَ العبدُ ويُغادِرَ هذه الدّنيا ويذهبَ إلى الله تعالى.

وبمعنى هذا ما صحَّ عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ **مَن قالَ لا إله إلا الله صدقاً من قلبِه مؤمِناً مخلِصاً بها دخَلَ الجنّةَ**؛ لأنّها كلمَةُ التّوحيدِ والإخلاصِ. والله أعلمُ.

۞ سِرُّ قراءةِ المعوّذَتَينِ:

ثمّ يَقرأُ المعوِّذَتَينِ، وقد وردَ في ذلكَ الحديثُ عن عقبةَ بنِ عامرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندَ أبي داودَ والنَّسائيِّ وأحمدَ وابنِ حِبانٍ، وهو حَديثٌ صحيحٌ.

واختلفَ أهلُ العلمِ في المرادِ بالمعوِّذاتِ هل هنَّ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فقط، أم يدخلُ معها ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ على قولَينِ، رجَّحَ ابنُ حجرٍ وغيرُه أنّها السُّورَ الثلاثةُ.

وممّا يساعِدُ على هذا التّرجيحِ ما ثبتَ عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حديثِ عائشةَ أنه كانَ إذا أوى إلى فراشِه كلَّ ليلةٍ جمعَ كفَّيْهِ ثم نفثَ فيهما فقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثم يمسَحُ بهما ما استَطاعَ من جسَدِه. وفي لفظٍ عنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كانَ إذا أخذَ مَضْجَعَه نفثَ في يديْه، وقرأ بالمعوّذاتِ، ومسحَ بهما جسدَه. فسَمَّتِ السورَ الثلاثةَ بالمعوِّذاتِ. واللهُ أعلمُ.

والسِّرُّ في قراءتها واللهُ أعلمُ: **أنَّ الصّلاةَ مِنْ أعظَمِ النِّعَمِ على العَبْدِ بعدَ**

الإيمانِ، وهي نِعمَةٌ لا يعْرِفُ قَدْرَها إلا مَن عاشَ في لذَّتِها ونَعيمِها، وقَرَّتْ عينُه بفِعْلِها والوقوفِ بينَ يدَيْ ربِّه جلَّ وعلا، **وهذهِ النّعمَةُ متَعَرِّضَةٌ لآفاتٍ تُذهِبُها؛ مِن وَسوَسةِ نفْسٍ وشَيطانٍ، وكيدٍ مِن شياطينِ الإنسِ والجنِّ**، ومن أخطَرِ ما يخافُه المؤمِنُ على النِّعَمِ التي يتفَضَّلُ بها عليه ربُّه آفةُ الحسَدِ والعَينِ، **فيحتاجُ العبدُ أن يلتَجِئَ إلى ربِّه ومولاهُ ليَحْفَظَه مِن هذهِ الآفاتِ حتى تدومَ عليه هذهِ النِّعَمُ إلى المماتِ**، فَشُرِعَ له أن يقرأَ السُّورتَينِ اللَّتَينِ ما تَعوَّذَ المتعوِّذونَ بمِثْلِهما، كما ثبَتَ عَنْ نبيِّنا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وقدْ تضَمَّنَتا الاستِعاذةَ مِن جميعِ الشرورِ الظاهِرَةِ والباطنةِ، التي تُصيبُ العبدَ مِنْ داخِلِه وخارِجِه، **كما فيهما بِشكْلٍ خاصٍ الاستعاذةُ من شرِّ الحاسدِ إذا حسدَ.**

۞ فائدةٌ في خَتمِ القُرآنِ بالمعوِّذتَين:

ولعَلَّ هذا هو السِّرُّ - واللهُ أعلمُ - في خَتْمِ القُرآنِ بهما ليكونا حمايةً للعبدِ وإيمانِه وقِراءتِه، يختِمُ بهما هذه النِّعمةَ العَظيمةَ التي لا تُعادِلها نعمةٌ، ألا وهيَ نِعْمَةُ القُرآنِ.

وهذا أحَدُ المعاني في قولِه تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨ ﴾ [النحل: ٩٨] وهوَ أنّ الاستِعاذةَ تكونُ بعدَ القِراءَةِ كما ذهَبَ إليه بَعضُ السَّلَفِ، وهو لا يُنافي القولَ الآخِرَ المشهورَ بالاستِعاذَةِ قبلَ القراءةِ، فلكُلِّ قولٍ وجهٌ صَحيحٌ، وهذا يَدُلُّ على مَدى فَهمِ سَلَفِنا رَحِمَهُمُٱللَّهُ لأسْرَارِ هذا القُرآنِ وسنّةِ رَسولِنا عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ.

وتأمَّلْ كيفَ كان قبلَهما سورةُ الإخلاصِ التي تُعادِلُ في مَعناها آيةَ

الكرسيِّ، والتي تُعادِلُ من وجهٍ آخرَ التَّسبيحَ والتَّحميدَ والتكبيرَ، **لتَعْلَمَ أنَّ المرادَ أمرٌ واحدٌ، وهو الاعترافُ إلى الله تعالى بالتّوحيدِ والإخْلاصِ والمتابَعَةِ والخضوعِ، وصِدقُ اللُّجوءِ إليه والتوكُّلِ عليه، معَ البراءةِ مِنَ الحولِ والقوةِ والاعتِمادِ على النّفْسِ، وهذه حقيقةُ العبوديةِ لله ربِّ العالمينَ.**

وإنْ دَعا بعدَ ذلكَ بما يريدُه مِن خَيرِ الدّنيا والآخرةِ فحَسَنٌ، فهذا الموضِعُ مِن مواضِعِ الإجابةِ كما سَبَقَ، مع ما فيه من رجاءِ رفْعِ الدُّعاءِ مَعَ العملِ الصالحِ الذي قدَّمَهُ، فقدْ قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

تَنبيهٌ:

معَ التّنبيهِ على أمْرٍ يفعَلُه أكثَرُ الأئِمَّةِ اليومَ، إمّا لِعادَةٍ أو لجهْلِهِم بالسنَّةِ، وهو أنَّ **الدُّعاءَ بعدَ السَّلامِ جماعةً مِن الإمامِ والمأمومينَ لم يكنْ من هَدْيِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ، ولمْ يفعَلْه لا هو ولا خلفاؤه مِن بعدِهِ، ولا أمَرَ بذلِكَ في شيءٍ من السُّنَن الصحيحةِ أو الحسنةِ**، وهذا أمْرٌ واضِحٌ لكلِّ مَن تأمَّلَ صِفَةَ صلاتِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فليسَ مِنَ السّنّةِ أنْ يجلِسَ الناسُ بعدَ الصلاةِ لقراءةِ شيءٍ من الأذكارِ والأدعِيَةِ المأثورَةِ أو غيرِ المأثورةِ**، بِرَفْعِ صَوْتٍ وهَيْئَةِ الاجْتِماعِ، ولأجْلِ ذلكَ ترَكوا الأذكارَ الثابتةَ الصحيحةَ الواردةَ عنه عليه الصلاةُ والسلامُ، كما هو الحالُ في كَثيرٍ من البِلادِ، حتى أصبحَ عندَ كثيرٍ من العامّةِ مِن شَعائرِ الدِّينِ التي يُنكَرُ على مَنْ تركَها،

والخيرُ كلُّه في اتِّباعِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وكلُّ زيادةٍ على سنَّتِه وشَرعِهِ بدعةٌ وضلالَةٌ كما ذكرَ عليه الصلاةُ والسلامُ في قولِه: «مَن عَمِلَ عَمَلاً ليسَ عليه أمرُنا فهوَ ردٌّ» وهو في صحيحِ مسلمٍ،** ولوْ كانَ فعلُ هذا من الخَيراتِ والأعمالِ الصّالِحَةِ التي يُرجَى منها الأجْرُ والثّوابُ والتّقرُّبُ من الرّحيمِ الرّحمنِ، لفَعَلَه أعلَمُ الخلقِ بربِّه وأحرصُهم على فعلِ الخيرِ وتعليمِه لأمّتِه، وهو نبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي علَّمَنا كلَّ ما نحتاجُ إليه في سيرِنا إلى الله تعالى، وترَكَنا على البيضاءِ ليلُها كنهارِها لا يَزيغُ عنها إلا هالكٌ. وممّا يؤكّدُ هذا أنّه لم يفعَلْه أحدٌ من صحابَتِه الأبرارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أو منَ التّابعينَ لهم بإحسانٍ، وهم أعلَمُ الأمّةِ بهديِ محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومرادِه من كلامِه وفعلِه، جعلَنا الله من أتباعِهم ومن اهتَدى بهديِهم، آمين.

الوقفةُ الثالثة والعشرونَ

صفةُ صلاةِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتّنبيهُ على أهمِّ الأخطاءِ التي يقعُ فيها الناسُ

بعد أن ذكَرْنا ما تيسَّرَ مِنْ أَسْرارِ الصّلاةِ ومَعانيها وحِكَمِها، نذكُرُ في هذه الوقْفَةِ سياقَ صلاتِه عليهِ الصّلاةُ والسلامُ مِنْ أوَّلها إلى آخرِها، لنكونَ على بينَةٍ من ذلِكَ ونلتَزِمَ بها لا بغيرِها مستَجِيبينَ لأمرِهِ القائِلِ: «صلُّوا كما رأيتُموني أصلّي».

۞ القِيامُ وما يُفْعَلُ فيه :

كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا قامَ إلى الصَّلاةِ واستَقْبَلَ القِبْلَةَ ووَقَفَ في مصلاّهُ، رفَعَ يديْهِ حَذْوَ مَنكِبَيْه أو إلى فُروعِ أُذُنَيْهِ، واستَقْبَلَ بباطِنِ كَفَّيْهِ القبلةَ ونَشَر أصابِعَهُ وقالَ: (اللهُ أكبرُ)، ولمْ يكنْ يقولُ قبلَ ذلكَ: **نَوَيْتُ أنْ أصلِّيَ كذا وكذا مُستَقبلَ القبلةِ أربَعَ ركعاتٍ فريضةً لله تعالى** كما يفعَلُه أكثرُ العامَّةِ اليومَ، بلْ ما كان يقولُ كلمةً واحدةً من ذلِكَ إلى نهايةِ صلاتِه، ولو قالَ هذا مرةً واحدَةً لنَقَلَهُ إلينا أصحابُه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وهم قدْ نقلوا إلينا أقلَّ من ذلكَ بكثيرٍ مِنْ هَيْئاتِ صَلاتِه، حتى وَصَفوا لنا اضْطرابَ لِحيَتِه في الصلاةِ، فكيفَ يخفى عليهِم ذلكَ أو كيفَ يمكنُ أن يتَّفِقُوا على إخْفائِه

وهو شِعارُ الدُّخولِ في الصّلاةِ؟

فالحذَرَ مِنَ الابْتِداعِ في ذلكَ وزيادةِ ما لم يكنْ مِن هَدْيِ رسولِ الله ﷺ.

التّنبيهُ على خَطأ ما نُسِبَ إلى الشافعيِّ في مسألةِ الجهرِ بالنّيّة:

وقدِ اتَّفَقَ علماءُ المسلمينَ مِن جميعِ المذاهبِ على أنَّ الجَهْرَ بالنّيّةِ في الصلاةِ ليسَ مُستَحَباً، بلْ هو بِدْعَةٌ مَكروهةٌ، ومَنْ نَسَبَ إلى الشافعيِّ أنه قال بوُجوبِه فقدْ أخطأَ، كما بَيَّنَ الإمامُ النوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ وهوَ مِن أكابرِ أئمَّةِ الشافعيةِ ـ في المجْموعِ حيثُ قال: (قالَ أصحابُنا: غَلِطَ هذا القائِلُ، وليسَ مُرادُ الشافعيِّ بالنُّطْقِ في الصّلاةِ هذا، بل مُرادُه التكبيرُ).

وقال ابنُ **القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكان ﷺ إذا قامَ إلى الصّلاةِ قالَ: «اللهُ أكبرُ» ولم يقُلْ شيئاً قَبْلَها، ولا تلفَّظَ بالنّيّةِ ألبَتَّةَ، ولا قالَ: أصلي لله صلاةَ كذا مُستَقْبِلَ القِبْلَةِ أربَعَ ركعاتٍ إماماً أو مأموماً، ولا قالَ: أداءً ولا قضاءً ولا فَرْضَ الوقْتِ، وهذِه عَشْر بِدَعٍ، لمْ يَنقُلْ عنه أحَدٌ قطُّ بإسْنادٍ صَحيحٍ ولا ضَعيفٍ، ولا مُسْنَدٍ ولا مُرسَلٍ لفظةً واحدةً منها ألبتةَ، بل ولا عن أحدٍ من أصحابِه، ولا اسْتَحْسَنَه أحدٌ من التّابعينَ، ولا الأئِمّةُ الأربعةُ، وإنما غَرَّ بعضَ المتأخِّرينَ قولُ الشافعيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في الصّلاةِ: إنّها ليسَتْ كالصِّيامِ، ولا يدخُلُ فيها أحدٌ إلا بالذّكرِ، فظَنَّ أنَّ الذكْرَ تَلَفُّظُ المُصَلّي بالنّيّةِ، وإنّما أرادَ الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالذكرِ: تكبيرةَ الإحرامِ ليسَ إلا، وكيفَ يستَحِبُّ الشافعيُّ أمراً لمْ يفعَلْه النبيُّ ﷺ في صَلاةٍ واحِدَةٍ، ولا أحَدٌ مِن خلفائِه وأصحابِه، وهذا هَدْيُهم وسِيرتُهم، فإن

أَوْجَدَنا أحدٌ حَرفاً واحداً عنهم في ذلك قَبلْناه، وقابَلناهُ بالتسليمِ والقَبولِ، ولا هَديَ أكمَلُ مِنْ هديِهم، ولا سنةَ إلا ما تلَقَّوْه عن صاحِبِ الشَرعِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

وقدْ أطلْتُ قليلاً في هذا الأمرِ بسببِ ما يُلِيَ به الكثيرُ من المسلمينَ اليومَ مِن هذه البِدعَةِ، وأصبَحوا يُنكِرونَ على مَن أنكَرَ عليهم، وينسِبونَ ذلكَ إلى الشافعيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، فكانَ لا بدَّ من بيانِ ذلكَ وتَوضِيحِه، واللهُ المستعانُ.

تنبيهات:

ـ مِن الأخطاءِ الشّائعةِ هنا **أنَّ كَثيراً مِنَ المصَلِّينَ لا يلتَزِمونَ برفْعِ اليَدينِ عندَ التكبيرِ كما وردَ في السنةِ،** فتَجِدُهُم يرفَعونها رَفْعاً خَفيفاً لا يجاوِزَ بُطونَهم أو صُدورَهم، وهذه مخالَفةٌ للسّنّةِ، معَ أنّه لا صُعوبَةَ في التَّمسُّكِ بما صَحَّ، ولكنَّها العادةُ، والله المستعان.

ثمّ كانَ يُمْسِكُ شِمالَه بيَمِينِه فيضَعُها عليها فوقَ المَفْصِلِ، ثمّ يَضَعُها على صدرِه، أو يضعُ اليمْنى على الكفِّ والرُّسْغِ والسّاعِدِ مِنَ اليُسْرى على صَدْرِه لا على غيرِه من البَطْنِ أو أسفلَ منه أو على السُّرَّةِ كما قالَ البَعْضُ، ثم يقولُ مِنْ أدْعِيَةِ الاستِفْتاحِ ما سبَقَ ذِكرُ بَعْضِه، ثمّ يقولُ: (**أعوذُ بالله من الشّيطانِ الرجيمِ**) وربما قال: (**أعوذُ بالله من الشيطانِ الرجيمِ مِن نَفْخِهِ ونَفْثِهِ وهَمْزِهِ**).

ـ **ونَنبّهُ أحِبّتي في الله على عادَةٍ مُنتَشِرةٍ بينَ الناسِ حالَ القيامِ في الصلاةِ، ألا وهي كثرةُ الحرَكاتِ والعَبَثِ إما بالثَّوبِ أو الغُترةِ أو اليَدينِ**

أو غيرِ ذلك مِن غيرِ حَاجَةٍ، بحيثُ تجدُ المصلّي لا يكادُ يَعرِفُ مَن يراهُ مِن بعيدٍ أنه يُصلّي، وهذا أمرٌ مخالِفٌ للخُشوعِ ويؤدي إلى بطـلانِ الصـلاةِ إن كثُـرَتِ الحرَكـاتُ وزادَتْ، **فالحـذرَ مِـنَ هـذا، ولْنَحْـرِصْ عـلى سُـكونِ الأعْضاءِ والجوارحِ الذي يدلُّ على خشوعِ القلبِ**، ولنَتذكَّرْ أنّنا بينَ يـدَي الله تعالى وأنَّ كثْرةَ العَبَثِ واللَّعِبِ لا يليقُ بمَنْ يَقِفُ بينَ يدَيْ مُلوكِ الدّنيا فكيفَ بمَلِكِ الملوكِ جلَّ وعلا؟

ـ **وتَنبيهٌ آخَرُ**: وهوَ أنّه **قدْ كَرِه جماعـةٌ مـن العلـماءِ مـنهم الإمـامُ أحمـدُ وغيرُه تَغميضَ المصلّي عينَيه في الصّلاةِ**، وأباحَه جماعةٌ ولم يكرَهوه.

ولا ريبَ أنَّ النبيَّ لم يكنُ مِن هدْيِـه إغـماضُ عينَيـه في الصـلاةِ، وقـد دلَّتْ على ذلِكَ أحاديثُ كثيرةٌ ذكرَها ابنُ القـيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في زادِ المعـادِ، ثـم قالَ ما معناه: إنْ كانَ تفتيحُ العينِ لا يُخِلُّ بالخُشوعِ، فهو أفضلُ، وإنْ كـانَ يحولُ بيْنَه وبينَ الخشوعِ لِما في قبْلَتِه مِنَ الزَّخرَفَةِ والتّزويقِ أو غيرِ ذلكَ ممـا يشوِّشُ على قَلبِه، فعِنْدَها لا يُكرَهُ التغميضُ قطْعاً، **بلِ القَولُ باستِحبابِه في هذه الحالِ أقربُ إلى أصولِ الشـرعِ ومقاصِدِه**؛ لما يـؤدّي إليـه مـن تحقُّـقِ الخشوعِ المقْصودِ مِنَ الصّلاةِ، والله أعلَم.

۞ القِراءةُ والسّنّةُ فيها :

ثمّ كانَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يَقْرأُ بفاتحَةِ الكِتابِ يجهَرُ بها في الجهريَّـةِ ولا يجهَـرُ بِبسمِ الله الرحمنِ الرحيمِ**، وكانتْ قِراءتُه مَداً، ويُقطِّعُها آيةً آيةً، فيقِـفُ عـلى آخِرِ كلِّ آيَةٍ، ويَمُدُّ بها صَوْتَه، بتَرَسُّلٍ وتمَهُّلٍ وترتيلٍ، فإذا خَتَمَ السورةَ قـال

(آمينَ) يجهَرُ بها ويمُدُّ بها صوتَه، ويجهرُ بها مَنْ خلْفَه حتى يرتَجَّ المسجِدُ.

والأرجَحُ أنه ما كانَ يسكُتُ بعدَ قِراءةِ الفاتحةِ، وإنّما يبْدأ بقِراءةِ ما يتيَسَّرُ من القرآنِ، ولم يكنْ يسْكُتُ هنا ليقرأَ مَن خَلفَه الفاتحةَ كما يفعَلُه كثيرٌ من الأئمَّةِ اليومَ، ولو فَعَلَه لما خَفِيَ على أصْحابِه ولنَقَلوه إلينا بالضّرورةِ.

ثم يقرأ بعْدَ ذلكَ سورةً طَويلةً تارةً، وقَصيرةً تارةً، ومتوسطةً تارةً، كما تقدَّمَ، على حسبِ الصّلاةِ والظروفِ المحيطةِ بها، **ولم يكنْ يبتَدِئُ مِن وسَطِ السّورةِ ولا مِن آخرِها**، وإنّما كان يقرأ مِنْ أوَّلها فتارةً يُكْمِلُها وهو الأغْلَبُ، وتارةً يقتَصِرُ على بعْضِها ويُكمِلُها في الركعَةِ الثانيةِ، ولم ينقُلْ أحَدٌ عنه أنه قرأ بآيةٍ من سورةٍ أو بآخرِها إلا في سنَّةِ الفَجْرِ كما يأتي معنا إن شاءَ اللهُ تعالى.

وقدْ كَرِهَ قومٌ القراءةَ بالبَعْضِ منَ السُّوَرِةِ، وهو رِوايةٌ عن أحمدَ، وفي روايةٍ ثانيةٍ عنه أنه كرِهَ ذلك في الفَرضِ، وله روايةٌ ثالثةٌ أنه يُكرَهُ المداوَمةُ على ذلك. قال شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومِن أعْدَلِ الأقوالِ قولُ مَن قالَ: **يُكرَهُ اعْتِيادُ ذلكَ دونَ فِعْلِه أحياناً**؛ لئَلّا يخرُجَ عمّا مَضَتْ به السنّةُ وعادةُ السّلَفِ مِنَ الصحابةِ والتابعينَ.

والجمهورُ على عَدَمِ كراهَةِ ذلِكَ، واللهُ أعلمُ.

وكان ربما قرأ بالسورةِ في ركعَةٍ وأعادَها في الركعةِ الثانيةِ.

فهذه ثلاثةُ أنواعٍ: أنْ يقرأَ بالسّورةِ كامِلةً ثم يُعيدُها في الركعةِ الثانيةِ،

وأنْ يقرأ بالسورةِ يُفرِّقُها في الركعَتَينِ، وأنْ يقرأ بسورَتينِ في رَكعتينِ.

وكان يُطيلُ الفَجرَ أكثرَ مِن غيرِها، وأقصَرُ ما حُفِظَ عنه فيها في الحَضَر سورةُ (ق) ونحوها.

وكان يجهَرُ بالقِراءةِ في الفَجْرِ والأُولَيَيْنِ من المغْربِ والعِشاءِ ويُسِرُّ فيما سوى ذلكَ، **وربما كان يُسمِعُ مَن خَلْفَه الآيَةَ في قِراءةِ السرِّ أحياناً.**

والحكْمَةُ في ذلكَ، والله أعلم، أنَّ النّهارَ مَظِنَّةُ الصَّخَبِ واللَّغَطِ فشُرِعَ فيه السرُّ كونُه أدعى إلى الخشوعِ وحضورِ القلبِ، وأما الليلُ فوقْتُ هُدوءِ الأصْواتِ، والجهرُ فيه أقْرَبُ إلى التذكُّرِ والاتِّعاظِ.

وكان يقرأ في فَجْرِ الجمُعَةِ بسورةِ السّجْدةِ والإنسانِ كامِلَتينِ، **ولم يقتَصِرْ على واحدةٍ منهما أوعلى بعضِ الآياتِ منهما كما يفعَلُه الكثيرُ من الأئمةِ اليومَ.**

وليس هذا لتَخصيصِ هذه الصلاةِ بسجْدةٍ زائدةٍ كما يظنُّه كثيرٌ مِمَّنْ لا عِلمَ عندَه، حتى إذا لم يقرأ أحدُهم هذه السورةَ، قرأ سورةً أخرى فيها سجدةٌ، وإنما السِّرُّ في قراءةِ هاتينِ السّجدَتَينِ كما يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **أنهما تضمَّنَتا ما كانَ ويكونُ في يومِها**، فإنهما اشْتَمَلَتا على خَلقِ آدمَ، وعلى ذِكرِ المعادِ وحَشْرِ العِبادِ، وذلِكَ يكونُ يومَ الجمعةِ، فكانَ في قراءةِ هاتينِ السورَتينِ في هذا اليومِ تذكيرٌ للأمةِ بما كانَ وما يكونُ في هذا اليومِ، والسَّجْدَةُ جاءتْ تَبَعاً ليستْ مقصودةً حتى يقصِدَ المصلّي قراءتَها حيثُ اتَّفَقَتْ.

وكانَ يقرأُ في صلاةِ الجمعةِ بسُورةٍ (الجمعةِ) و (المنافقونَ) أو بـ (الأعلى) و (الغَاشيةِ) كاملَةً ولم يقتَصِرْ على بعضِها، وكانَ يقرأ في العيدَينِ بالأعلى والغاشيةِ أو بسورةِ (ق) و (اقتربَتْ الساعةُ) كاملةً أيضاً.

والسرُّ في هذه السُّوَرِ، **أنها مشتَمِلَةٌ على التَّوحيدِ، وذِكْرِ المبْدأ والمعادِ،** وقَصَصِ الأنبياءِ مع أمَمِهم، وما عامَلَ اللهُ به مَن كذَّبهم وكفَرَ بهم من الهلاكِ والشَّقاءِ، ومَنْ آمنَ بهم وصدَّقَهم مِنَ النَّجاةِ والعَافيةِ، ولذلِكَ كان يقرأُ بها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المجامِعِ الكِبارِ مثلِ الجمعةِ والعِيدَينِ.

وأما القِراءةُ بسورةِ (الجمعةِ) و (المنافقونَ) في صلاةِ الجمعةِ أحْياناً، فَلِما **تضَمَّنَتْه سورةُ الجمعَةِ مِنَ الأمْرِ بهذه الصلاةِ وإيجابِ السَّعْيِ إليها،** وتركِ العائقِ عنها، والأمرِ بإكثارِ ذكرِ الله ليحصُلَ لهم الفلاحُ في الدارَيْنِ.
وأما سورةُ (المنافقون) **فكانَ يقرأ فيها تحذيراً للأمَّةِ مِن النِّفاقِ، وتحذيراً لهم أنْ تَشغَلَهم أموالُهم وأولادُهم عن صلاةِ الجمعةِ، وعن ذكرِ الله،** وأنهم إن فَعَلوا ذلك خَسِروا ولا بدَّ، وحَضاً لهم على الإنفاقِ الذي هو مِن أكبرِ أسبابِ سعادَتِهم، وتحذيراً لهم مِنْ هُجومِ الموتِ وهم على حالَةٍ يطلُبونَ الإقالَةَ، ويتَمَنَّونَ الرَّجعةَ، ولا يُجابُوْنَ إليها، وكذلكَ كان يفعَلُ عندَ قُدومِ وفدٍ يُريدُ أن يُسمِعَهم القرآنَ، وكان يُطيلُ الصّلاةَ الجهرِيّةَ لذلكَ، كما صلّى المغربَ بالأعرافِ وبالطُّورِ وق، كما ذكرَ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ.

وكان يقرأ في صَلاةِ السِّرِّ بالسّجْدَةِ أحياناً فيَسجُدُ للسجْدةِ ويسجدُ معه مَنْ خلفَه، وكان يقرأ في الظهرِ قَدْرَ سورةِ السجدةِ نحوَ ثلاثينَ آيةً، وأحياناً كان يقرأ فيها بالأعلى والغاشيةِ والبروجِ والطارقِ، ونحوِها منَ

السُّوَرِ، ومرةً بلقمانَ والذارياتِ ونحوِ ذلك..

وكان يُطيلُ الركعةَ الأولى مِنْ كلِّ صلاةٍ على الثانيةِ، وكانتْ قِراءتُـه في العصـرِ على قَدْرِ نِصفِ القراءةِ في الظهرِ، فيقرأ في كلِّ ركعةٍ من الأُولَيَـيْنِ مقدارَ خمسَ عشـرةَ آيةً.

وكان يقرأ في المغربِ بالأعرافِ تارةً وبالطورِ تارةً وبالمرسَـلاتِ تـارةً وبالدّخانِ تارةً ونحوِها.

وكان يقرأ في العشـاءِ بـالتِّينِ والزّيتـونِ، والانْشـقاقِ ويسـجدُ فيهـا، وبالشمسِ وضحاها، ونحوِ ذلك من السُّـوَرِ.. وقـد تقـدَّمَ تقريـرُ ذلـكَ والحمدُ لله.

وكان إذا فَرَغَ من القِراءَةِ سَكَتَ هُنَيْهَةً ليرجِعَ إليه نَفَسُهُ.

الرّكوعُ والسّنّةُ فيه:

ثم كانَ يرْفَعُ يدَيه على الهيْئَةِ الأولى كما رفعَهُـما في الاسـتفتاحِ، وصـحَّ ذلكَ عنه من رواياتٍ أَكْثرَ من رواياتِ التّكبيرِ، فلا يَصِحُّ تركُ الرفْـعِ هنـا أبداً، **فالحذرَ مِنْ تركِ ذلكَ كما يفعلُه كثيرٌ من الناسِ اليومَ**، ثـمّ يقـولُ مـعَ الرفعِ (**اللهُ أكبرُ**) وينحني راكعاً واضِعاً يديـه عـلى رُكبَتَيْـهِ فيُمَكِّـنُهما مِـن ركبَتَيْه، مفرِّجاً بينَ أصابِعِه مُجافياً ـ أيْ: مُبعِداً ـ مِرفَقَيْه عن جَنْبَيْه، **ويعتَدِلُ في رُكوعِه** فيجْعَلُ رأسَه حِيالَ ظَهرِه فلا يرفَـعُ رأسَـه ولا يُصَـوِّبُه، ويمـدُّ ظهرَه ولا يجمَعُه ثم يقولُ (**سبحانَ ربيَ العظيمَ**)، ويمكثُ قَدْرَ ما يقـولُ القائلُ عشـرَ مراتٍ، وربما مكثَ فوقَ ذلكَ ودونَه، وربما قالَ بقيَّةَ ما سبقَ ذكرُه من الأذكارِ في وقفةِ الركوعِ، وكان ركوعُه مناسباً لقيامِه في التَّطويلِ

والتَّخفيفِ، كما سبق بيانُه من الأحاديثِ في الوَقفاتِ السابقةِ.

۞ الرفعُ من الركوعِ والسنةُ فيه :

ثم كان يرفَعُ رأسَه قائِلاً (سمعَ اللهُ لمن حمدَه) ويرفَعُ يديه كما يرفَعُهما عند الرُّكوعِ، **ولمْ يُنقَلْ عنه عدَمُ الرَّفْعِ هنا ولا مَرّةً واحدةً**، فإذا اعْتَدَلَ قائِماً قالَ (**ربَّنا لكَ الحمدُ**) وربما قال (**اللهمَّ ربَّنا ولكَ الحمدُ، ملءَ السماواتِ**).. إلى تمام ما سبقَ بيانُه.

وكان يُطيلُ هذا الرُّكْنَ حتى يَقولَ القائلُ قد نَسي.

۞ تنبيهٌ :

ونُنبِّهُ هنا على خطأٍ يقعُ فيه أكثرُ العامَّةِ، فتراهُم يرفَعونَ رؤوسَهم عندَ الرفعِ مِنَ الرّكوعِ حتى يرتَفِعَ النَّظَرُ إلى السّماءِ، وهذا أمرٌ قد ثَبَتَ النَّهيُ عنه عن رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهدَّدَ مَنْ يرفَعُ بصرَه إلى السّماءِ في الصّلاةِ سواءٌ هنا أو حالَ القيامِ أو في غيرِ ذلِكَ بأَنَّ اللهَ يُذهِبُ بصرَه، **وذلِكَ أنَّ المصَلّي واقِفٌ بينَ يدَيْ ربِّه مُتَذَلِّلاً خاشِعاً راغِباً راهِباً معظِّماً، فلا يناسِبُ حالَه أنْ ينظرَ إلى ناحيةِ مَن يدْعوهُ ويسألُه ويُعَظِّمُه، بلْ يُناسِبُه الإطْراقُ وخَفْضُ البَصَرِ أمامَه، فخَفْضُ البَصَرِ هذا مِن تَمامِ الخشوعِ**، وهو كحالِ العَبيدِ بينَ يدي الملوكِ، فلْنَتَنَبَّهْ لذلِكَ أحبّتي في الله ولا نُعرِّضْ أنفُسَنا لسَخَطِ الله ونحنُ بَينَ يَدَيْه.

۞ النّزولُ إلى السّجودِ والسّنّةُ فيه :

ثمّ كانَ يُكبِّرُ ويَخِرُّ ساجِداً، **ولا يَرْفَعُ يَدَيهِ هنا**، واختُلِفَ هلْ يَضَعُ

رُكبَتَيْهِ على الأرضِ قَبْلَ يدَيْهِ أوْ يَضَعُ يدَيْهِ قَبْلَ رُكبَتَيهِ، وعلى كلِّ حالٍ **فلا ينبَغي أن يُشابِهَ بُروكَ البَعيرِ حالَ نزولِه للسُّجودِ**، فقدْ ثبَتَ النّهيُ عن ذلِكَ، وعليه فينزِلُ على اليَدَيْنِ أو الركبَتَينَ بشَرطِ عَدَمِ مُشابَهَةِ البَعيرِ جمعاً بينَ الأقوالِ، وهو أولى مِنْ رَدِّ أَحَدِ القَولَينِ، واللهُ أعلَمُ بالصوابِ.

ويتبيَّنُ هذا إذا تأمَّلْنا ارتباطَ السّجودِ في القرآنِ بلفظةِ (**الخرور**) كقولِه تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝١٥ ﴾ [السجدة: ١٥]، **والخُرورُ: هوَ السّقوطُ بسُرْعَةٍ**، بخِلافِ بُروكِ البَعيرِ؛ فإنّه ـ كما هو مَعلومٌ ـ **يَنزِلُ ببُطءٍ شَديدٍ مُتَمايِلاً** حتى يتِمَّ بُروكُه، وعليهِ فإنَّ المطلوبَ مِنَ السّاجِدِ أنْ **يَنزِلَ المصَلّي إلى السّجودِ بسُرْعَةٍ دفْعَةً واحِدَةً ولا يَنزِلُ كنُزولِ البَعيرِ مُتَمايلاً ببُطءٍ، سواءٌ وضَعَ يَدَيْه على الأرْضِ أوّلاً أو وَضَعَ رُكبَتَيْهِ على الأرضِ أوّلاً**.

وكأنَّ المصَلّي إذا وَصَلَ إلى هذِه المرْحَلَةِ بَعدَ قِيامِهِ وقراءَتِه وحُضورِ قلْبِه وشُهودِ عَظَمةِ ربِّه في الرُّكوع بعدَ ذلك.. **لا يتحمَّلُ أنْ يَبْقى واقِفاً** لشِدّةِ ما دَخلَ في قلْبِه مِنَ التّعظيمِ والخشوعِ لله؛ فيَخِرُّ إلى الأرضِ ساجِداً لله كحالِ مَنْ يَسْقُطُ فَجأةً لحالَةٍ عرَضَتْ له.

وتأمّلْ كيفَ أخبرَ اللهُ ﷻ عن موسى عليهِ السّلامُ لمّا سألَ ربَّه الرُّؤيَةَ فأراه آيةً؛ وهو ما حَدَثَ للجَبَلِ لمّا تجَلّى له الرّبُّ جلّ وعلا كاشِفاً طرَفَ إصبُعِه فأصْبَحَ دَكّاءَ، **فلمْ يتَحَمَّلْ موسى أمامَ هذه الآيَةِ نفْسَه فسَقَطَ مَغْشِياً عليه**، وقدْ عبَّرَ الله تعالى عن سُقوطِه هذا بأنَّه (خَرَّ صَعِقاً)، وذلِكَ في قولِه سبحانه: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾

[الأعراف : ١٤٣].

وكذا تأمّلْ ما أخبرَ اللهُ تعالى عنْ حالِ المؤمنينَ الصّادِقينَ إذا سَمِعوا آياتِ الله تُتلى عليهم أنهم يَخِرّونَ للأذْقانِ سُجّداً كما قالَ تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الإسراء : ١٠٧] ، وفي غيرِ ذلِكَ مِنَ الآياتِ، يَتبَيّنُ لك الأمْرُ، والله أعْلَمُ بالصوابِ.

۞ كَيفِيّةُ السّجودِ وما يُفْعَلُ فيه :

ثمّ كانَ يسجُدُ على جَبْهَتِه وأنْفِه ويَديه ورُكبَتَيْهِ وأطْرافِ قَدَمَيْهِ، ويستَقْبِلُ بأصابعِ يدَيهِ ورْجلَيْهِ القِبلَةَ مُثْنِياً أطْرافَ أصابِعِه إلى القِبلَةِ، وكان يَعتَمِدُ على باطِنِ كَفَّيهِ ويَرْفَعُ مِرفقَيه ويُباعِدُ عضُدَيْهِ عن جنبَيْهِ حتى يَبدُوَ بَياضُ إبْطَيهِ، ويرْفَعُ بطْنَه عن فَخِذَيْهِ، وفَخِذَيهِ عنْ ساقَيْهِ، ويعتَدِلُ في سجودِه ويُمَكِّنُ وجهَهُ من الأرضِ مباشِراً به الأرضَ لا يجعَلُ بينَه وبينَ الأرضِ شيئاً.

۞ تَنبيهاتٌ :

والحذرَ هنا من افْتِراشِ الأرضِ باليَدينِ ووضْعِ الذّراعَينِ على الأرضِ، فقد وردَ النهيُ عن ذلكَ، وشبَّهَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلكَ بافْتراشِ الكَلْبِ، فينبغي رفعُ الذّراعَينِ عن الأرضِ على الهيْئَةِ التي سَبَقَ ذكرُها من حالِ النبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ.

كما نُنبِّهُ على أنه لا يجوزُ رَفْعُ القَدَمَيْنِ أو إحْداهما عنِ الأرضِ حالَ السُّجودِ كما يفعلُه الكثيرُ، وبعضُهم يجعلُ واحدةً على الأخرى، فهذا قد

يؤدّي إلى بطلانِ صَلاتِه؛ لأنّه لمْ يسجُدْ على الأعضاءِ السّبْعَةِ التي أُمِرَ بالسّجودِ عليها، فالحذَرَ مِنْ ذلكَ أحبّتي في الله، وتنبَّهُوا أيضاً إلى صفةِ أصابعِ القَدَمَيْنِ في السُّجودِ فلا بُدَّ مِنْ ثَنْيِها وتَوجِيهِها إلى القِبلَةِ.

وكانَ يقولُ في سُجودِه (**سبحانَ ربيَ الأعلى**) وربما زادَ وجاءَ بما سبقَ بيانُه مِنَ الأذكارِ في هذا الموضِعِ، وكان يجعلُ سجودَه مناسِباً لقيامِه.

وننبِّهُ إخواني على ما يتوَهَّمُه أكثرُ العامَّةِ مِنْ أنَّ مِقدارَ التّسبيحِ في الركوعِ والسُّجودِ هو ثلاثُ تسبيحاتٍ، فهذا مما لم يصحَّ عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بلْ صحَّ أنّه كانَ يُسبِّحُ بمِقدارِ عشرِ تسبيحاتٍ كما سَبَقَ بيانُه.

۞ الجلوسُ بينَ السّجدَتَينِ والسّنّةُ فيه :

ثم يرفعُ رأسَه قائِلاً (**اللهُ أكبرُ**) غيرَ رافعٍ يدَيْهِ، ويَجلِسُ على رِجْلِه اليسرى مفْتَرِشاً إياها وينْصِبُ اليُمنى على أطرافِ أصابعِه مُثْنياً الأصابعَ جِهةَ القِبلةِ، ويضعُ يدَيه على فخِذَيْهِ حتى تحاذيَ أطرافُ الأصابعِ رُكبَتَيْهِ ثم يقولُ (**ربِّ اغفِرْ لي**) ويقولُ (**اللهم اغفِرْ لي وارْحمني واجْبُرْني وعافِني واهدِني وارزُقْني**) وكان يُطيلُ هذه الجِلْسةَ حتى يَقولَ القائلُ قد أوهَمَ أو قَدْ نَسِيَ.

۞ القِيامُ إلى الركْعَةِ الثانيةِ :

ثمّ يكبِّرُ ويسجدُ غير رافعٍ يَدَيهِ ويصنَعُ في الثانيةِ مثلَ ما صَنَعَ في الأولى، ثم يرفَعُ رأسَه مُكبِّراً وينهَضُ على صدورِ قَدَمَيْهِ مُعتَمِداً على ركبَتَيْه وفَخِذَيْه، وذهبَ بعضُ أهلِ العِلمِ إلى أن المصلِّيَ يعتَمِدُ على يديهِ

ثم يقومُ إلى الركعةِ الثانية الثانية **اسْتِدلالاً بما ورَدَ من أن النبيَّ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **كان يَعْجِنُ في صلاتِه**، أي: يفْعَلُ مثلَ ما يفْعلُ العاجِنُ مِن ضمِّ يَديهِ والقِيامِ على قبضَتَيْهِ، وهو قولٌ قويٌّ أيضاً.

ومِنَ السُّنَنِ هنا أيضاً أن يجلِسَ المصلي جِلْسَةً خَفيفةً قبْلَ قِيامِه إلى الرّكعةِ الثانيةِ؛ لِمَا رواهُ البخاريُّ وغيرُه من حديثِ مالكِ بنِ الحوَيْرِثِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **أنَّ الرسولَ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **إذا كانَ في وِتْرٍ مِن صَلاتِه لمْ ينهَضْ حتى يستَوِيَ جالِساً**، ولا ريبَ أنه فعلَ ذلكَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكنْ اختَلَفوا هلْ فعلَ ذلكَ لأنه مِنْ سُنَنِ الصلاةِ، أم فَعلَه لحاجةٍ مِنْ ضَعْفٍ وكِبَرٍ؟ هُما قَوْلانِ للسَّلَفِ والخلَفِ، واللهُ أعلمُ.

ولم يكن يرفَعُ يديهِ في هذا القيامِ إلا أحياناً، وكانَ إذا استَتَمَّ قائِماً أخذَ في القراءةِ ولم يسْكُتْ، وافتَتَحَ قراءَته بـ (الحمدُ لله ربِّ العالمينَ).

الجلوسُ للتّشَهّدِ والسّنّةُ فيه:

وكان إذا انتَهى من الركعتَينِ وجلَسَ للتّشَهُّدِ الأوَّلِ جلسَ مُفتَرِشاً كما يجلِسُ بينَ السجدَتينِ، ويضعُ يدَهُ اليُسرى على فخِذِه اليُسرى بحيثُ تكونُ أطرافُ أصابِعِها على ركبَتِه، ويضعُ اليمنى على فخذِه اليمنى ويضعُ إبهامَه على إصبَعِه الوسطى مثلَ الحلَقَةِ ويُشيرُ بإصبَعِهِ السبَّابَةَ ويجعلُ بصرَهُ إلى موضِعِ إشارَتِه، وكان يحرِّكُ السبَّابَةَ يرفعُها ويحنِيها قليلاً يوَحِّدُ بها ربَّه ويدعوهُ بها كما وَصَفَ وائلُ بنُ حُجْرٍ في صِفَةِ صَلاتِه عليه الصلاةُ والسلامُ.

تحريكُ الأُصبَعِ والحِكْمَةُ منه :

ورفْعُ الإِصْبَعِ فيهِ دلالَةٌ على التّوحيدِ، ويتضمَّنُ الدعاءَ بالإشارَةِ، فيُشرَعُ مع الدّعاءِ في الصلاةِ **لِيَتَوافَقَ القولُ معَ الِفعلِ في الدُّعاءِ**، ويدلُّ عليه أن النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كان إذا دَعا على المنبرِ يومَ الجمعةِ رفَعَ إصبَعَهُ لا يزيدُ على ذلِكَ، كما صحَّ في صحيحٍ مسلم، وكما ذكرَ مَن وصفَ صلاةَ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عندما ذكرَ رفعَ الإصبعِ وتحريكَها أنه كانَ «يدْعو بها» وهو في سننِ النّسائيِّ بإسنادٍ صحيحٍ ، فعُلِمَ مِن هذا أنَّ الإشارةِ بالإصبعِ في الصلاةِ هو دعاءٌ من المصلّي بفعلِه ، ليتوافقَ القولُ مع الفعلِ .

وأما تحْريكُ الإصبَعِ؛ فهوَ ـ والله أعلمُ ـ مرتَبِطٌ بالدعاءِ، فيرْفَعُ معَ الدّعاءِ ويخفِضُ مع انتِهائِه، فيكونُ الرفعُ معَ بِدايةِ الدُّعاءِ لِيَتوافَقَ القَولُ مع الفِعلِ، ويكونُ الخفضُ مع انتهائِه.

وننبِّهُ هنا أنّه لمْ يَصِحَّ عنه رفعُ الإصبَعِ عندَ الشَّهادةِ فقط كما يفعَلُه أكثرُ الناسِ، وإنّما الثابتُ أنه كان يضمُّ أصابعَ يدِه اليمنى ويرفعُ السبَّابَةَ من أولِ جلوسِهِ للتّشَهُّدِ حتى ينتَهِيَ منه، فهذه سُنَّتُه عليهِ الصلاةُ والسّلامُ التي لا ينبَغي العدولُ عنها ومخالفتُها.

وكان صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ **يخفِّفُ الجِلْسَةَ الأولى** هذه حتى كأنّه جالِسٌ على الرَّضْفِ وهي الحِجارةُ المحَمّاةُ، ثم يُكَبّرُ وينْهَضُ فيصَلّي الثالثةَ والرابعةَ ويخفِّفُهما عن الأُولَيَيْن، وكان يقرأ فيهما بفاتحةِ الكتابِ، وربما زادَ عليها أحياناً كما وردَ في صلاةِ الظّهْرِ، وفيه دلالةٌ على جَوازِ الزّيادةِ على الفاتحةِ في الركعتينِ الأخيرتينِ.

الجلوسُ الأخيرُ والسنّةُ فيه:

وكانَ يجلِسُ للتّشَهُّدِ الأخيرِ مُتَوَرِّكاً؛ يجلِسُ على إلْيَتِه منَ الجانِبِ الأيسَرِ وينصِبُ قدَمَه اليُمْنى مُثْنياً أصابِعَها جهةَ القِبلةِ ويجْعَلُ ساقَه اليُسرى تحتَ اليُمنى من جِهَةِ يَمينِه، ويجعلُ يَدَيْهِ على هَيئَةِ التشهُّدِ الأوَّلِ.

وهذا التّوَرُّكُ يكونُ في الصّلاةِ التي فيها تشهُّدانِ، أي: في الثُّلاثيّةِ والرباعيَّةِ، **والحكْمَةُ منه واللهُ أعلمُ كما ذكرَ ابنُ القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **التّفريقُ بينَ التّشَهّدِ الأولِ الذي يُسَنُّ تخْفيفُه ويكونُ الجالسُ فيه مُتَهيِّئاً للقيامِ، وبينَ الجلوسِ في التّشَهّدِ الثاني الذي يكونُ الجالسُ فيه مُطمَئِناً، وأيضاً لتكونَ هيئةُ الجلوسَيْنِ فارقةً بينَ التشهُّدَيْنِ تُذَكِّرُ المصلّي بحالِه فيهما.**

ثم يأتي بالتَّشهُّدِ مع الصلاةِ عليهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ويتَعَوَّذُ باللهِ من أربَعٍ، ويدعُو بما سَبَقَ بيانُه من الأدْعِيَةِ الوارِدةِ عنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

التّسليمُ والخروجُ منَ الصّلاةِ:

ثمّ يُسَلِّمُ عن يَمينِه ويَسارِه بلَفْظِ (**السّلامُ عليْكُم ورحمةُ الله**)، وربما زادَ عن يَمينِه أحياناً (**وبركاتُه**) كما صحَّ عنه عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ.

فهذه صِفَةُ صلاتِه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مِنْ حينِ استِقْبالِه القِبلةَ وقولِه (**اللهُ أكبرُ**) إلى حينِ سَلامِه كأنّك تُشاهِدُه عَياناً، فاحْرِصْ على التّمَسُّكِ بذلكَ واجتَهِدْ في الاقْتداءِ به في صلاتِكَ مَعَ الخشوعِ وحُضورِ القلْبِ لتكونَ الصلاةُ أدْعى للقبولِ عندَ الله، وتكونَ لذةً ونَعيماً لك في هذهِ الدنيا، وسبباً لقربِكَ من الله تعالى في الجنانِ.

الوقْفةُ الرابعةُ والعِشرونَ

صلاةُ الجماعةِ

هذه الوقفةُ أحبتي، جعلناها للتَّنْبيهِ على مُنكَرٍ عظيمٍ قد شاعَ بينَ المسلمينَ في هذا العصرِ، وهو التّخَلُّفُ عن صلاةِ الجماعةِ غالِباً، خاصةً الفجر، حتى أصبحَ الكثيرُ لا يَرى في التخلُّفِ بأساً ولا مُنكَراً، ولا يرَوْنَ أن شهودَ الجماعةِ أمرٌ واجبٌ مَطلوبٌ، بل وصَلَ الحالُ ببعضِ مَن ينتَسِبُ لطلَبِ العِلمِ أن يُبَرِّرَ ذلكَ ويُفتي بعدَمِ وُجوبِه، وأنه لا بأسَ في تركِ الجماعَةِ، ففَشا بذلكَ مُنكَرٌ عظيمٌ نسألُ اللهَ السلامةَ.

فأُوَجِّهُ الخطابَ هنا إلى جميعِ هؤلاءِ المتخلِّفينَ الذين فَقَدْناهم للأسفِ في رِحابِ بيوتِ الله مع رجالٍ لا تُلهيهِم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكرِ الله وإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ، يخافون يوماً تتقلَّبُ فيه القلوبُ والأبصارُ.. إلى أولئكِ الذين يسمَعونَ نداءَ الله تعالى يُنادي عليهم بنداءِ (**حيَّ على الصّلاة.. حيَّ على الفَلاح**) يدْعو إلى مُناجاةِ الله والوقوفِ بينَ يدَيهِ في بيوتٍ أَذِنَ اللهُ أن تُرفَعَ ويُذكَرَ فيها اسمُه، لينالوا بذلكَ الفلاحَ يومَ لقائِه، وهم مع ذلك يَغطّونَ في سباتٍ عميقٍ وكأنهم زَهِدوا في هذا الفَلاحِ والخيرِ، وواحدُهم لو نادى عليه مَلِكٌ من ملوكِ الدنيا أو أميرٌ، بل أدْنى من ذلكَ بكثيرٍ، لو نادى عليه صَاحبٌ له لِرحلَةٍ أو غيرِ ذلك لَهَبَّ مِن

فراشِه مُلبِّياً، واللهُ المستعانُ.

وإلى أولئكَ المبرِّرينَ الذين غرَّتْهم نفوسُهم الأمّارةُ بالسوءِ، واجْتَهَدوا في استخراجِ الأدلَّةِ التي ظنّوا أنها تؤيِّدُ كلامَهم بدَلَ أن يجتَهِدُوا في الأدلَّةِ التي تَزيدُ في إيمانِهم وأعمالِهم وثَوابِهم، فكانوا سَبَبَ فِتنَةٍ بدَلَ أنْ يكونوا سبَبَ دعوةٍ إلى الخيرِ..

إلى جميعِ هؤلاءِ أوجِّهُ الكلامَ ناصِحاً لهم ومُشفِقاً عليهم سائِلاً اللهَ جلَّ وعلا لنا ولهم السلامةَ والعافيةَ والمغفرةَ والهدايةَ لأقوَمِ السُّبُلِ وأقربِها إلى الله وجنتِه.. فأقولُ وبالله التوفيقُ:

حُكْمُ صَلاةِ الجماعةِ:

إنّ صلاةَ الجماعةِ في المساجِدِ هي إحْدى شعائِرِ الإسْلامِ الظّاهرةِ، وفِعلُها واجبٌ مِن واجِباتِ هذا الدِّينِ المتَحَتِّمَةِ، لا يُعذَرُ في تركِه إلا مَن عُذِرَ شرْعاً بسبَبِ مرضٍ أو خوفٍ أو سفَرٍ، كما دلَّ عليه كتابُ الله وسنةُ رسولِه عليه الصلاةُ والسلامُ وأقوالِ الصحابةِ ومَنْ تَبِعَهم مِن أهْلِ العِلْمِ المدقِّقينَ.. وهاكَ بيانُ ذلكَ.

الأدِلَّةُ مِنَ القُرآنِ الكريمِ:

١ـ قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢].

أمرَ اللهُ تعالى المسلمينَ في هذهِ الآيَةِ إذا كانُوا في مُواجَهَةِ العَدُوِّ أنْ يُقيموا

الصّلاةَ فيُصَلُّوا جماعةً ولم يُرَخِّصْ لأحَدٍ منهم في تَرْكِها، بل أمَرَ الطائِفَةَ التي تحرُسُ الجيشَ وقتَ الصلاةِ أنْ تُصلِّيَ جماعةً بعدَ أن تُنْهِيَ الفرقةُ الأولى صلاتَها، **فدلَّ هذا على وُجوبِها؛ لأنَّه لو كانتْ سنةً لكانَ أولى الأعذارِ بسُقوطِها عُذْرُ الخوفِ هذا والعدوُّ متربِّصٌ**، ولو كانتْ فرضَ كِفايَةٍ لسَقَطَتْ بفعلِ الطائِفَةِ الأولى، **فهذِهِ ثلاثةُ وجوهٍ في الآيَةِ تدُلُّ على الوجوبِ**:

الأمرُ بها أوَّلاً، والأمْرُ بها ثانِياً للطائفةِ الثانيةِ، وعَدَمُ الترْخيصِ في تَرْكِها حالَ الخوفِ.

٢ ـ قالَ تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم: ٤٢، ٤٣].

ذكَرَ اللهُ تعالى أنّه عاقَبَهُم يومَ القِيامَةِ بأنْ حَالَ بينَهُم وبينَ السُّجودِ بسَبَبِ أنه دعَاهُم إلى السُّجودِ في الدُّنيا وهم سالِمُونَ، فأبَوْا أنْ يُجيبُوا الداعِيَ، **وإجابَةُ الدّاعي تكونُ بفِعْلِها في المساجِدِ لا في البيوتِ، كما فسَّرَ ذلكَ النبيُّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففي صَحيحِ مُسلِمٍ في حدِيثِ الأعمى ـ وسيأتي بلفْظِهِ ـ أنه قالَ له: «**هلْ تَسمَعُ النِّداءَ**»؟ قالَ: نعمْ، قال: «**فأجِبْ**»، فلمْ يَجْعَلْه مُجيباً له بصَلاتِهِ في بَيْتِه إذا سَمِعَ النداءَ، **فدلَّ على أنّ الإجابَةَ المأمورَ بها هِيَ إتيانُ المساجِدِ للجَماعَةِ.**

وهذا هو الذي فَهِمَهُ أعلَمُ الأمَّةِ وأفْقَهُهُم؛ **وهمُ الصَّحابةُ** رضوان الله عليهم، فقال ابنُ مسعودٍ وأبو موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: (**مَنْ سَمِعَ النداءَ ثم لم يُجِبْ فإنَّه لا تُجاوِزُ صلاتُه رأسَه إلا مِن عُذْرٍ**). وقالتْ عائشةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا:

(**من سمعَ النداءَ فلمْ يُجِبْ لمْ يُرِدْ خيراً ولمْ يُرَدْ به**). وقال أبو هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (**لأنْ تمتلئَ أُذُنا ابنِ آدمَ رَصاصاً مُذاباً خيرٌ له مِن أن يسمَعَ المنادي ثمّ لا يُجيبُه**). وكلُّ هذه الأقوالِ ذكرَها ابنُ المنذِرِ في الأوسَطِ، وقدْ دلَّتْ على أنَّ الإجابةَ عندَ الصّحابَةِ هي حُضورُ الجماعةِ، وأنَّ المتخلِّفَ عنها غيرُ مُجيبٍ للداعي فيكونُ داخلاً في الآية.

٣ـ قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٣].

أمَرَ اللهُ تعالى في هذهِ الآيَةِ بالصّلاةِ مُعُبِّراً عنها برُكْنٍ مِنْ أركانها وهو الركوعُ فقالَ: (**اركَعوا**)، ثمّ قيَّدَ الأمرَ فقالَ: (**معَ الراكعينَ**)، ولا بدَّ لهذا القَيْدِ مِنْ فائدةٍ، وهيَ فِعْلُها معَ جَماعَةِ المصَلّينَ، **فإنَّ المعيَّةَ تُفيدُ ذلكَ**، ولو كان المرادُ مجرَّدَ الصّلاةِ لوحْدِه لَمَا كانَ في هذا التَّقْييدِ فائدةٌ، **فإنَّ المقيَّدَ بصِفَةٍ لا يَتِمُّ الامْتِثالُ به إلا بالإتْيانِ به على تلكَ الصفةِ.**

الأدِلّةُ مِنَ السّنّةِ:

٤ـ ما رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ مِن حديثِ أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**أثْقَلُ صَلاةٍ على المنافقينَ: صلاةُ العِشاءِ وصلاةُ الفَجرِ، ولوْ يعلَمُونَ ما فيهما لأتَوْهما ولَوْ حَبْواً، ولقدْ هَمَمْتُ أنْ آمُرَ بالصّلاةِ فتُقامُ، ثم آمرَ رجلاً فيصلّي بالناسِ ثم أنطَلِقَ برجالٍ معَهم حُزُمٌ مِنْ حَطَبٍ إلى قومٍ لا يشهَدونَ الصلاةَ فأحَرِّقَ عليهم بيوتَهم بالنّارِ**». وفي روايةٍ لأحمدَ: «**لولا ما في البُيوتِ من النّساءِ والذرّيّةِ لأمَرْتُ أنْ تُقامَ الصلاةَ..**» وذكرَ الحديثَ.

وفي حَديثٍ آخرَ أنّه همَّ بذلكَ فيمَنْ يتخَلَّفُ عنِ الجمُعَةِ، ولا تَنافي بينَ ذلك، فكلاهُما حقٌّ، وهو وَعيدٌ في حقِّ مَن تخلَّفَ عن الجمعةِ والجماعةِ، بلْ ذِكْرُهُ هذا الوعيدَ في التّخَلُّفِ عن هذينِ الصّلاتينِ يدُلُّ على أنَّ حُكْمَهُما واحدٌ، واللهُ أعلَمُ.

ولا مجالَ للقولِ بأنه هَمَّ بذلِكَ لنِفاقِهم؛ **لأنّه صرَّحَ بأنَّ السبَبَ هو التّخَلُّفُ لا النّفاق**، مع أنّه لمْ يُؤمَرْ أنْ يعاقِبَ المنافِقينَ على نفاقِهم، بلْ كان يقبَلُ منهم علانِيَتَهم ويَكِلُ سرائِرَهم إلى الله.

٥ـ ما رواهُ مسلمٌ في صَحيحِه أنَّ رجلاً أعمى قال: **يا رسولَ الله، ليسَ لي قائدٌ يقودُني إلى المسجدِ**، فسأَلَ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ يُرَخِّصَ له فيصلّي في بيتِه، فرخَّصَ له، فلما ولّى دعَاه فقالَ: «**هلْ تسْمَعُ النِّداءَ بالصَّلاةِ**»؟ فقالَ: نعم، قالَ: «**فأجِبْ**».

وفي روايَةٍ لأبي داودَ: «**إني ضَريرُ البَصَر شاسِعُ الدارِ**..».

فالأمْرُ بالإجابَةِ هنا صَريحٌ، **وهو يدُلُّ على الوجوبِ قَطْعاً**؛ فإنّه مُوَجَّهٌ لضَريرٍ بَعيدِ الدارِ وليسَ له قائدٌ يقودُه، فلو كانَ يجوزُ تركُها لأحَدٍ لكانَ هذا العبدُ الأعمى أولى بذلِكَ من أيِّ أحدٍ.

قال ابنُ المنذِرِ بعدَ أن ذَكَرَ الحديثَ: (ويدُلُّ ذلكَ على أن شهودَ الجماعةِ فرضٌ لا ندْبٌ، وإذا قالَ لابنِ أمِّ مكتوم وهو ضريرٌ: «**لا أجِدُ لكَ رخْصَةً**» فالبَصيرُ أولى أنْ لا تكونَ له رخصةٌ).

٦ـ ما رواه أبو داودَ وابنُ حِبانَ عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**مَنْ سَمِعَ**

النّداءَ فلَمْ يَمْنَعْهُ مِنِ اتِّباعِه عُذْرٌ لمْ تُقبَلْ منه الصّلاةُ التي صَلّاها»، قالوا: **وما العُذْرُ**؟ قال: «**خوفٌ أو مرضٌ**». والحديثُ حَسَنٌ.

وهوَ واضِحٌ في الوُجوبِ.

٧ـ ما رواهُ مُسْلِمٌ في صَحيحِهِ عن عبْدِ الله بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: (**مَنْ سرَّهُ أن يَلقى اللهَ غداً مُسلِماً فلْيُحافِظْ على هؤلاءِ الصّلَواتِ حيثُ يُنادَى بهنَّ، فإنَّ اللهَ شَرعَ لنَبيِّكُم سننَ الهدى، وإنّهُنَّ مِن سُنَنِ الهدى، ولو أنّكم صلَّيْتُم في بيوتِكُم كما يصلّي هذا المتخَلِّفُ في بَيْتِه لتركْتُم سُنّةَ نبيِّكم، ولو تركْتُم سنّةَ نبيِّكُم لضلَلْتُم.. ولقد رأيتُنا ومايتخلَّفُ عنها إلا مُنافِقٌ مَعْلومُ النِّفاقِ، ولقد كانَ الرّجُلُ يؤتى به يُهادَى بينَ الرّجُلَينِ حتى يُقامَ في الصفِّ**).

فجعلَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ التّخَلُّفَ عنِ الجماعةِ مِنْ علاماتِ المنافِقينَ المعلومِ نِفاقُهم، **وعلاماتُ النِّفاقِ لا تكونُ بتَركِ مُسْتَحَبٍّ ولا بِفِعْلِ مَكروهٍ، بل إمّا بتَركِ فَريضةٍ أو فِعْلِ محرَّمٍ**، وقدْ أكَّدَ هذا المعنى بقولِه: (**مَن سَرَّهُ أنْ يَلْقى اللهَ غداً مُسْلِماً فليُحافِظْ**..) وسَمّى تارِكَها الذي يصلّي في بيتِه تارِكاً للسنةِ التي هي طريقُ الرسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشَريعَتُه التي شرَعَها لأمَّتِه، **وليسَ المرادُ السّنّةَ المستَحَبَّةَ؛ لأنَّ تَرْكَها لا يكونُ ضلالاً ولا مِن علاماتِ النّفاقِ** كمَنْ تركَ الضُّحى وقيامَ الليلِ..

ثمّ تأمَّلْ ما كان عليه الصّحابةُ من الحرصِ عليها حتى إنَّ المريضَ الذي لا يستَطيعُ المشي يَحرِصُ عليها حتى يُحْمَلَ بينَ الرجلَينِ ليَقِفَ في الصفِّ، أفلا يَدُلُّ هذا على شيءٍ؟

٨ـ ما رواه مُسلِمٌ أيضاً عن النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قالَ: «**إذا كانوا ثلاثةً فليؤمُّهُم أكبرُهُم..**».

وهوَ أمْرٌ بالجماعَةِ، والأمْرُ يدلُّ على الوجوبِ.

٩ـ ما رواه الإمامُ أحمدُ وأهلُ السننِ وحسَّنَه الترمذيُّ: «**أنَّ النبيَّ** صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **رأى رجلاً يصلّي خلفَ الصفِّ وحدَه فأمَرَه أن يُعيدَ الصّلاةَ**».

فأبطَلَ هنا صَلاةَ المنْفَرِدِ عنِ الصفِّ وهو في جماعَةٍ معَ أنّه لمْ ينفَرِدْ إلا في المكانِ خاصَّةً، **فصلاةُ المنفَرِدِ عن الجماعةِ والمكانِ أولى بالبطلانِ.**

١٠ـ ما رواه أبو داودَ والإمامُ أحمدُ عن النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قالَ: «**ما مِنْ ثلاثةٍ في قَرْيَةٍ ولا بَدْوٍ لا تُقامُ فيهِمُ الصّلاةُ إلا قَدِ اسْتَحوَذَ عليهِمُ الشّيطانُ، فعليكَ بالجماعةِ فإنّما يأكُلُ الذّئبُ منَ الغَنَمِ القاصِيَةِ**».

فأخبرَ أنَّ الشّيطانَ يَستَحْوِذُ عليهِمْ بتَرْكِ الجماعَةِ، **ولو كانَتِ الجماعَةُ نَدْباً يُخَيَّرُ الرجُلُ في فِعْلِها وتَرْكِها لَمَا اسْتَحْوَذَ الشّيطانُ على تارِكِها.**

الإجماعُ:

١١ـ إجْماعُ الصّحابَةِ:

أجمعَ الصّحابةُ رَضِيَاللَّهُعَنْهُمْ على أنَّ حُضورَ الجماعَةِ واجِبٌ على مَنْ سمِعَ النّداءَ إلا مِنْ عُذْرٍ، وهذا وَحْدَه دليلٌ لو لمْ يرِدْ شيءٌ في الكتابِ والسنّةِ، فكيفَ وقدْ تضافَرَتِ الأدلّةُ على هذا الأمرِ؟ وهاكَ بعضُ نُصوصِهم في ذلِكَ:

ـ قال ابنُ مسعودٍ رَضِيَاللَّهُعَنْهُ: (**وما رأيْتُنا يتخَلَّفُ عنها إلا مُنافِقٌ مَعلومُ**

النِّفاقِ)، وقدْ تقدَّمَ.

ـ قال أبو موسى الأشعريُّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (**مَنْ سَمِعَ المنادي فلَمْ يجِبْ بغَيرِ عُذْرٍ فلا صلاةَ له**)، وقدْ تقدَّمَ أيضاً.

ـ قالَ عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (**لا صَلاةَ لجارِ المسْجِدِ إلا في المسجدِ، قيلَ: ومَنْ جارُ المسْجِدِ؟ قالَ: مَنْ سَمِعَ النِّداءَ**)، وهوَ في سنن البيهقيِّ وغيره.

ـ قالَ الحسَنُ بنُ عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (**مَنْ سَمِعَ النّداءَ فلمْ يُجِبْ لمْ تَجاوِزْ صلاتُه رأسَه إلا مِنْ عُذْرٍ**)، وهو عندَ سَعيدِ بنِ مَنصورٍ.

ـ قال أبو هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (**لأنْ تَمْتَلِئَ أُذُن ابْنِ آدمَ رَصاصاً مُذاباً خيرٌ له من أن يسمَعَ المنادي ثم لا يُجيبُه**)، وهو في مصنف ابنِ أبي شيبةَ.

ـ قالتْ عائِشةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: (**منْ سَمِعَ المنادي فلَمْ يُجِبْ مِن غَيرِ عُذْرٍ لمْ يُرِدْ خَيراً ولمْ يُرَدْ به**)، وقدْ تقدَّمَ أيضاً.

ـ قال مجاهِدٌ: سأَلَ رجُلٌ ابنَ عباسٍ فقال: رجلٌ يَصومُ النّهارَ ويقومُ الليلَ لا يشهدُ جمعةً ولا جماعةً؟ فقال ابنُ عباسٍ: (**هوَ في النّارِ**)، ثمّ جاءَ في الغَدِ فسَألَه عنْ ذلِكَ فقالَ: (**هوَ في النّارِ**) قالَ مجاهِدٌ: واختلَفَ إليه قَريباً مِن شَهْرٍ يسْألُه عن ذلكَ ويقولُ ابنُ عباسٍ: (**هوَ في النارِ**)، وهو في سنن الترمذيِّ وغيره.

ـ قال ابنُ عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (**كنّا إذا فَقَدْنا الإنسانَ في صلاةِ العِشاءِ والصّبْحِ أسَأْنا بهِ الظنَّ**) وهوَ في صَحيحِ ابنِ خُزيمةَ.

فهذه بعضُ نصوصِ الصّحابةِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وهي واضِحَةٌ صَحيحةٌ

مَشهورةٌ منتَشِرةٌ، **ولمْ يجئْ عنْ واحِدٍ منهم خِلافُ ذلكَ، فكان هذا إجماعاً منهم على وجوبِ الجماعَةِ**، وهو كما قُلنا دَليلٌ بنفسِه، فكيفَ وقد تضافَرَتِ الأدلَّةُ على ذلكَ؟

ـ أقوالُ فُقهاءِ الأمّةِ:

وأمّا أهلُ العِلْمِ منَ الفُقهاءِ فقد قالَ بوجوبِ صلاةِ الجماعةِ منهم: عطاءُ بنُ أبي رباحٍ والحسنُ البصريُّ والأوزاعيُّ وأبو ثورٍ، وهم فُقهاءُ الناسِ في زَمانِهم، وهو مذْهبُ الإمامِ أحمدَ، وكذلِكَ نصَّ عليه الشافعيُّ فقالَ كما نقَلَ عنه المزنيُّ في مختَصَره: (**وأما الجماعَةُ فلا أرخِّصُ في تركِها إلا مِن عُذْرٍ**).

وقال ابنُ المنذِرِ بعدَ أن ذكرَ حديثَ الأعمى: (**فدَلَّتِ الأخْبارُ التي ذكرْتُ على وجوبِ فَرضِ الجماعَةِ على مَن لا عُذْرَ له..**).

وقالتِ الحنَفِيَّةُ والمالكيّةُ: هي سُنّةٌ مؤكَّدةٌ.

۞ تَنبيهٌ مهِمٌّ:

ولكنْ لا بُدَّ مِن فَهمِ معنى هذه الكلمَةِ عندَهم، **فالسنّةُ المؤكَّدَةُ عنْدَ العُلَماءِ يأثَمُ تارِكُها، ولا يجوزُ تعمُّدُ تَركِها كما لا يجوزُ تركُها غالباً**، فهيَ أقْوى من السنّةِ العاديةِ وأقَلُّ منَ الفَرْضِ، ومعنى هذا: أنه مَن تَرَكَها عَمْداً كثيراً فهو آثِمٌ، **أما مَن تَرَكها مَرّةً مَثَلاً أو نادراً فلا يأثَمُ ولكنْ يَفوتُه الأجْرُ، وهذا هو الفَرْقُ عندَهُم بينَ السنّةِ المؤكّدةِ والواجبِ، فاتَّفقَ بذلكَ الجميعُ على تأثيمِ مَنْ يَتركُ الجماعةَ لغيرِ عُذْرٍ**، والخلافُ بينَ العُلَماءِ

المتأخِّرينَ في ذلكَ هو خِلافٌ لفْظيٌّ نتيجتُه واحدةٌ، واللهُ أعلم.

ومختَصَـر ما تحصَّلَ معنا من هذهِ الأقوالِ: **أنَّ الجماعةَ إما شَـرْطٌ للصّلاةِ لا تَصِحُّ الصّلاةُ بِدونِها، وإمّا واجِبَةٌ يستَحِقُّ تاركُهـا العقوبـةَ وإنْ صـحَّتْ صلاتُه، وإما سنّةٌ مؤكَّدةٌ يأثَمُ تاركُها ويُقاتَلُ عليها**،كما قالَ ابنُ القيمِ.

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (مَنِ اعتَقَدَ أنَّ الصّـلاةَ في بيتِـه أفْضَلُ مِنْ صَلاةِ الجماعةِ في مَسْجِدِ المسْلِمينَ، فهـو ضـالٌّ مُبتَـدِعٌ باتِّفـاقِ المسلمينَ، فإنَّ صلاةَ الجماعَةِ إما فَرضٌ على الأعْيانِ، وإمّـا عـلى الكِفايَـةِ، واللازِمُ مِنَ الكِتابِ والسنّةِ أنها واجِبَةٌ على الأعْيانِ).

۞ مِن فَوائِدِ صَلاةِ الجماعَةِ:

واعْلَمْ أخي أنَّ لِصلاةِ الجماعةِ فوائدَ وفَضائلَ عظيمةً، منها:

ـ **أنّها تَفْضُلُ صلاةَ الواحِدِ بسَبْعٍ وعِشـرينَ درجةً**، فهل يُفَرِّطُ في هـذا الأجْرِ العظيمِ معَ كلِّ صلاةٍ عاقلٌ حريصٌ على نجاةِ نفسِهِ والإكثـارِ مـن الحسناتِ؟

ـ **أنّها طاعةٌ لله ولرسولِه**، وكفى بهـذا فَضْـلاً وخـيراً، فـلا خـيرَ إلا في طاعةِ الله والرسولِ واتباعِ ما جاءَ به، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧١] .

ـ **أنّ فيها مُفارَقَةً للمُنافِقِينَ**، ولا يجوزُ لمسْلِمٍ أنْ يتشبَّهَ بأهْـلِ النِّفـاقِ في شـيءٍ فكيفَ بأخصِّ علاماتِهم؟

ـ **أنّها سبَبٌ للمَوَدَّةِ والأُلْفَةِ بَينَ المسـلِمينَ**، يتعرَّفـونَ عـلى بعضِـهِم في

المسجدِ ويتواصلونَ خمسَ مراتٍ يومياً يعيشونَ همومَ بعضِهم وأفراحَهم وأحزانَهم.

وإذا كانَ التّقصيرُ في تَسْوِيَةِ الصّفوفِ يؤدّي إلى تَنافُرِ القُلوبِ واخْتلافِها، فكانَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقولُ قبْلَ أنْ يُكَبّرَ في صَلاتِه وهو يسوّي الصفوفَ: «**اسْتَوُوا ولا تختَلِفوا فتختَلِفَ قلوبُكم**»، فما ظنُّكُم بمَنْ لا يُصَلّونَ الجماعةَ أصْلاً؟ **وهذه الفائدةُ مِن أهَمِّ الأسْرارِ التي شُرِعَتْ من أجْلِها الجماعةُ**، وذلكَ أنَّ تآلُفَ المسلمينَ وترابطَهم واجتِماعَهم على كلِمَةٍ واحدَةٍ أمرٌ مفروضٌ عليهم يحبُّه اللهُ تعالى وأمرَ به، وحذَّرَ مِنْ كلِّ ما يؤدّي إلى ضدِّه، فحرَّمَ كلَّ ما يُوصِلُ إلى العداوةِ والشّحْناءِ والبَغْضاءِ بينَ المسلمينَ مهما كانَ يَسيراً، وذلكَ أنَّ القلوبَ إذا ارتَبَطَتْ بالإيمانِ ارتبطتْ بأعظَمِ رابِطَةٍ وأوْثَقِ قَرابةٍ، فلا يَليقُ بها التفرُّقُ والتّباغُضُ أبداً، وهذا أمرٌ يحتاجُ بيانُه وتفْصيلُه إلى وقفَةٍ طويلَةٍ نكتَفي هنا بالإشارَةِ إليهِ.

- **أنَّ فيها إرْغاماً للشّيطانِ** الذي يَحْرِصُ كثيراً على زَرْعِ العَداوةِ والبغضاءِ بينَ المسلمينَ وإبعادِهم عن جميعِ أسبابِ الخيرِ، خاصةً الصلاة والسّجود الذي لُعِنَ بسبَبِ تَركِهِ، فمَنْ تركَ الجماعَةَ فقدِ اسْتَحْوَذَ عليه الشيطانُ كما سَبَقَ.

- **أنّها سبَبٌ لدَفْعِ الملَلِ والسّآمَةِ** التي قد تعتَري الفردَ مِنَ الصلاةِ، مما يؤدّي إلى تركِها والتّكاسلِ في أدائها، خاصةً عندَ ضعفاءِ الإيمانِ ومَنْ صارَتِ الصلاةُ في حقِّهم مجرَّدَ عادةٍ ورَسمٍ، بدَلَ أنْ تكونَ عِبادَةً وزِيادةَ إيمانٍ وطمأنينةَ قلبٍ، فكان الأوفَقُ في حقِّ هؤلاءِ أن يُكَلَّفوا بطاعَةِ الله

على أعْيُنِ الناسِ ليتشَجَّعوا على أدائِها، ويتميَّزَ بذلكَ فاعلُها مـن تارِكِهـا، وراغِبُها من الزاهِدِ فيها.

ـ **أنّها سبَبٌ لتَعَلُّمِ الناسِ أمورَ دينِهم والتّفَقُّهِ في ذلكَ**؛ حيثُ إنّ الجماعةَ تجمَعُ العالمَ والجاهِلَ، وتكونُ الصـلاةُ مـنهم مَعروضـةً واضِـحَةً، فيُنكَـرُ المنْكَرُ منها، ويُعرَفُ المعروفُ منها، ويَتَعَلَّمُ جاهِلُها من عالمِها.

ـ **أنّها إظْهارٌ لشَعائِرِ الدِّينِ والتّوحيدِ**؛ فإنَّ مُرادَ الله تعالى من هذه الأمّـةِ أنْ تكـونَ كلمـةُ الله هـي العُليـا، وألا يكـونَ في الأرضِ ديـنٌ أعـلى مِـنَ الإسلامِ، فكانَ اجتِماعُ الصّغيرِ والكَبيرِ والحاضِـر والبادي والخاصِّ والعامِ لهذه الشـريعةِ التي هي مِن أعْظَمِ شَعائِرِه إظهاراً لهذا المعنى، والله أعلمُ.

ــ **أنّهـا سـبَبٌ لتكثـيرِ الحسَـنَاتِ بغَـيْرِ تَعَـبٍ ومَشَـقَّةٍ**، وهـذِهِ بعـضُ الأحاديثِ في ذلك:

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ غَدا إلى المسْـجِدِ أوْ راحَ، أعـدَّ اللهُ لـه في الجنـةِ نُزُلاً كلَّما غدا أو راحَ**». وهو في الصَّحيحينِ.

وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن صلّى العِشاءَ في جماعةٍ فكأنما قامَ نصفَ الليلِ، ومَنْ صلّى الفجرَ في جماعةٍ فكأنما قامَ الليلَ كلَّه**». وهو في صَحيحِ مُسْلِمٍ.

وقالَ عليه الصلاةُ والسلامُ: «**لو يعْلَمُ النـاسُ مـا في النِّـداءِ والصّـفِّ الأوَّلِ ثم لم يجدوا إلا أن يستَهِموا لاسْتَهَموا..**» وهو في الصحيحينَ.

وفيه أهمّيّةُ الصلاةِ في الصفِّ الأولِ، والتّبكيرِ إلى المسْـجِدِ عنـدَ سـماعِ النداءِ، والتّرغيبُ في ذلكَ بأنَّ الناسَ لو عَلِموا ما أعدَّ اللهُ تعالى لذلِكَ مِنَ

الأجرِ لاسْتَهَمَ الناسُ للوصولِ إليه، أي فَعَلوا قُرْعَةً مِـن شِـدَّةِ المنافَسَـةِ. فإياك أخي أن تزهَدَ في هذا الخيرِ الذي غَفَلَ عنه الكثيرُ حتى أصبَحْنا نرى مَن هو في المسجدِ ينتَظِرُ الصلاةَ فإذا أقيمَتِ الصلاةُ يَتكاسَلُ عن الصـفِّ الأوَّلِ ويُصلّي وراءَه ففاتَه بذلِكَ مِنَ الخيراتِ ما اللهُ به عليمٌ.

وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**بَشِّـرِ المَشّائينَ في الظُّلَمِ إلى المساجِدِ بـالنّورِ التـامِّ يومَ القيامَةِ**». رواه أبو داودَ والترمذيُّ. **وفيهِ أنَّ الجزاءَ مِن جـنسِ العَمَـلِ**، فلما مَشـى المصَـلّونَ إلى المسـاجِدِ في ظلُـماتِ اللّيـلِ لأداءِ صـلاةِ الفَجـرِ والعِشاءِ، أعطاهم اللهُ النورَ التامَّ يومَ القِيامـةِ أحـوجَ مـا يحتـاجونَ إليـه، جَعَلَنا الله منهم.

ـ أنها سبَبٌ لتكْفيرِ الذنوبِ والسّيّئاتِ كـما في حـديثِ اختصـامِ المـلأ الأعلى في ذكرِ الكفاراتِ التي يكفِّـرُ اللهُ بهـا الـذنوبِ: «**نَقْـلُ الأقْـدامِ إلى الجماعاتِ**» وفي روايةٍ «**إلى الجُمُعاتِ**»، ولمعناهُ شـواهِدُ كثـيرةٌ، لا سـيَّما إنْ توضَّأَ الرجلُ في بيتِهِ ثم خرجَ إلى المسجدِ لا يريدُ بخروجِه إلا الصلاةَ فيه كما في الصحيحينِ عـن النبـيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنّـه قـالَ: «**صَـلاةُ الرجـلِ في الجماعةِ تَضْعُفُ على صلاتِه في بيتِـه وفي سـوقِه خمسـةً وعشـرينَ ضـعفاً، وذلكَ أنه إذا توضَّأَ فأحسنَ الوضوءَ ثـم خـرجَ إلى المسـجدِ لا يُخرجُـه إلا الصلاةُ لمْ يخْطُ خطوةً إلا رُفِعتْ له بها درجةٌ وحُطَّ عنـه بهـا خطيئـةٌ، فـإذا صلّى لم تَزَلِ الملائِكَةُ تُصَلّي عليه ما دامَ في مصلاّهُ..**».

وفي صَحيحِ مُسلمٍ عنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قـالَ: «**مَـنْ تَطَهَّـرَ في بيتِـه ثـم مشى إلى بيتٍ مـن بيـوتِ الله ليقْضـيَ فريضـةً مـن فـرائِضِ الله، كانـتْ**

خُطوَتاهُ إحْداهما تحطُّ خطيئةً والأخرى ترفعُ درجةً».

فتأمَّلْ أخي كَمْ نُضَيِّعُ علَيْنا من الحسَناتِ والخَيْراتِ، وكمْ نحْمِلُ على رؤوسِنا من الآثامِ والأوْزارِ بسبَبِ التّكاسُلِ عنْ صَلاةِ الجماعةِ. ووالله لو عَلِمَ واحِدُنا أنه سيَنالُ شيئاً من عَرَضِ هذه الدنيا أو سيَلْتَقي بمَلِكٍ من الملوكِ أو غير ذلك لاجتَهَدَ في المجيءِ، فكيفَ نفرِّطُ في لقاءِ مَلِكِ الملوكِ سبحانه ونزهَدُ في أعظَمِ الأجورِ؟ واللهُ المستعانُ.

الوقفةُ الخامسةُ والعشرونَ

السّننُ الرّواتبُ وصلاةُ التّطوع

لما كانتْ أحوالُ الناسِ تتفاوَتُ من حيثُ الهمـةُ وعـدَمُها، ومِـن حيـثُ المشاغِلُ وكَثْرَتُها وقِلّتُها، ومِن حيثُ الحِرْصُ على الخيْراتِ وغيرِ ذلك.. كانَ مِنْ رحمَةِ الله تعالى أنْ شَـرَعَ للأمّةِ صلواتٍ يَتَنَفَّلُونَ بها ليأخُذَ كلٌّ واحـدٍ ما يستَطيعُ ويرغَبُ فيه مِنَ الخيرِ، ولهذه الصلواتِ فوائدُ كثيرةٌ، من أهمِّها:

مِن فَوائدِ صَلاةِ السُّنَنِ الرّواتِبِ:

ـ **أنّها تَكمِلَةٌ لما يقَعُ في الفَرْضِ مِنَ النَّقصِ**، كما في مسنَدِ أحمدَ وسنَنِ أبي داودَ والترمذيِّ بإسنادٍ صحيحٍ عن رسولِ الله عليه الصلاةُ والسلام أنه قالَ: «**أوّلُ ما يُحاسَبُ بهِ العبْدُ بصَلاتِه، فإنْ صَلَحَتْ فقدْ أفلَحَ وأَنْجَحَ، وإنْ فسدَتْ فقد خابَ وخَسِرَ، وإنِ انتَقَصَ مِن فريضَتِه شيئاً، قالَ تعالى: انظُروا هل لِعَبدي مِن تطوُّعٍ، فيكمِلُ به ما نَقَصَ مِنَ الفريضةِ، ثم يكونُ سائرُ عملِه على نحوِ ذلكَ**».

وعليهِ، فلا ينبغي إهْمالُ ذلكَ أبداً خاصةً مع ما في صلاتِنا من النَّقصِ نَسألُ اللهَ السَّلامةَ.

ـ **أنْ يُهَيِّئَ العبْدُ نفْسَه وقَلْبَه بذلِكَ لصَلاةِ الفَريضةِ بإبْعادِها عن**

الشواغِلِ قبلَ فترةٍ لتسْتَعِدَّ للوقوفِ بينَ يَدَيِ الله تعالى بخشوعٍ وخضوعٍ؛ وذلِكَ أنَّ الأشْغالَ الدنيويةَ تُنسي العبدَ ذكرَ الله وتصُدُّهُ عن تدَبّرِ الآياتِ وتحصيلِ ثَمَرَةِ الطاعاتِ، فكانتِ النوافلُ مطهِّرَةً لهذه الأكْدارِ ومُهيِّئةً للقلبِ للوقوفِ بينَ يدَيْ ربِّه العليِّ القهارِ بكلِّ تعظيمٍ وإجلالٍ وإكبارٍ، قد جمع هِمّتَه على الله، وطهَّرَ قلبَه منَ التّعَلُّقِ بغيرِ ربِّه ومولاهُ، خاصةً صلاة السنةِ القَبليَّةِ. **أما البَعْدِيَّةُ فتكونُ لجبْرِ النَّقصِ الواقِعِ في الصلاةِ،** حيثُ إنَّ أكثرَ المصَلّينَ لا يُؤدّونَ حقَّ الصلاةَ ولا يستَوْفُونَ فَوائِدَها، فكانَ لا بدَّ مِنْ تَكميلِ النَّقصِ الواقِعِ فيها، واللهُ أعلمُ.

- **اتّباعُ النبيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هَدْيِه وسُنَّتِه، وكفى بهذا فَضْلاً.

- **الاسْتِزادَةُ مِنَ الحسناتِ ورِفعةُ الدَّرجاتِ** بِفِعْلِ هذه الصلواتِ التي شَرَعَها اللهُ تعالى، حيثُ إنّ الصلاةَ مِن أهمِّ العباداتِ التي تَزيدُ في إيمانِ العبدِ ويَقينِه وتَعظيمِه لله تعالى.

ومنْ تأمَّلَ أنَّ الصلاةَ كانَتْ أوّلَ ما فرَضَها اللهُ تعالى خمسينَ صَلاةً كما في حَديثِ الإسراءِ، عَلِمَ أن اللهَ تعالى يُريدُ مِنَ العَبدِ أنْ يكونَ دائِماً كأنه في صَلاةٍ مِنْ حُضورِ قلبٍ وكثرَةِ تَعظيمٍ لله ذي الجلالِ والإكرامِ، ثم خفَّفَ عنا هذا العدَدَ رَفْعاً للحَرَجِ والمشقَّةِ.

وفي صَحيحِ مسلمٍ عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه قالَ: «**ما مِنْ عبْدٍ مُسْلمٍ يُصَلّي لله تعالى كلَّ يومٍ ثنتيْ عشرةَ ركعةً تطوُّعاً غيرَ الفَريضةِ إلا بنى اللهُ له بيتاً في الجنةِ أو: إلا بُني له بيتٌ في الجنةِ**».

وفي صحيح البخاريِّ وغيره مِن حديثِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «**حَفِظْتُ عنْ رسولِ الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **عشْرَ ركَعاتٍ: رَكعتَينِ قبْلَ الظُّهْرِ، ورَكعتينِ بعدَها، ورَكعتينِ بعدَ المغْربِ في بيْتِه، وركعتينِ بعدَ العشاءِ في بيتِهِ، وركعتينِ قبلَ صلاةِ الصبحِ وكانتْ ساعةً لا يُدْخَلُ على النبيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فيها..**».

فهذه آكَدُ ركَعاتِ السّنَّةِ معَ الفَريضةِ، وهيَ عَشْر ركَعاتٍ أو اثنتا عشَرةَ ركعةً مُوَزَّعة على اليومِ والليلةِ.

والسِّرُّ في هذا العدَدِ، واللهُ أعلمُ، أنَّ الشارِعَ أرادَ أنْ يجعَلَ صلاةَ السنةِ الراتِبَةِ بعدَدِ الركَعاتِ الأصليَّةِ وهي إحدى عشرةَ ركعةً كما سيأتي، ولكنه أرادَها شَفْعاً لتُخْتَمَ بالوِتْرِ في النّهارِ والوتْرِ في الليلِ، فاختارَ أحدَ العدَدَيْنِ: العَشرةَ أو الثنتي عشرةَ، واللهُ أعلم.

وسنذكرُ في هذه الوقْفَةِ إن شاءَ اللهُ تعالى هذه السنَنَ التي شُرِعَتْ للعبدِ في اليومِ والليلةِ مع بيانِ أهمِّ النَّوافِلِ التي شُرِعَتْ بعدَها من غيرِ الرواتِبِ، وبيانِ بعضِ ما يتعلَّقُ بهذه السُّنَنِ مِنَ الفَوائِدِ، فنقولُ وبالله التوفيقُ:

السّنَنُ الرّواتِبُ:

كانَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحافِظُ على صَلواتٍ يُصَلّيها معَ الفرائِضِ يُسمّيها العُلماءُ (السننَ الرواتِبَ) وهذه الصلواتُ هِيَ:

١ـ سنّةُ الفَجْرِ:

وهما ركعتانِ قبْلَ الفَجرِ،كانَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يدَعُهُما في سفَرٍ ولا

حضَـر، وصحَّ عنه في صحيحِ مسلمٍ أنه قـالَ: «**رَكعتـا الفَجْـرِ خـيرٌ مـن الدُّنيا وما فيها**»، وفي روايةٍ: «**لهـما أحـبُّ إليَّ مـن الـدنيا جميعـاً**». وقالـتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كما في الصحيحينِ: «**لم يكنِ النبيُّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **على شـيءٍ منَ النَّوافِلِ أشدَّ تعاهُداً منه على ركعَتَيْ الفجرِ**».

والسنَّةُ في هاتَيْنِ الركعَتينِ التَّخفيفُ كما ثَبتَ عَن رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانَ يقرأ فيهما بسورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وأحياناً يقرأ فيهما بالآيةِ التي في البقرةِ: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)﴾ وآيةِ آلِ عمرانَ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾.

وقد ذكرَ القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ **الحِكمةَ في هذا التَّخفيفِ ليُبادِرَ إلى صَلاةِ الفَجْرِ في أوَّلِ الوقتِ**، وذكَرَ الحـافظُ في الفَـتحِ وكـذا العراقـيُّ في شَــرحِ الترمذيِّ أنَّ ذلكَ **لِيستَفْتِحَ صَلاةَ النّهارِ برَكعَتينِ خَفيفتَيْنِ كما كان يصـنَعُ في صَلاةِ الليلِ ليدخُلَ في الفَرضِ أو ما يُشبِهُه بنَشاطٍ تامٍّ**.

وأمّا السِّـرُّ في ما وَرَدَ في القراءةِ فيهما فقدْ قالَ شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: (سـنّةُ الفجْـرِ تَجـري مجـرى بدايـةِ العَمَـلِ، والـوِتْرُ خاتِمَتُـه، ولـذلِكَ كـان النبـيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلّي سنةَ الفَجرِ والوترِ بسورَتَي الإخـلاصِ، **وهمـا الجامِعَتـانِ لتَوحيدِ العِلْمِ والعَمَلِ، وتَوحيدِ المعرِفَةِ والإرادَةِ، وتوحيدِ الاعتِقادِ والقَصدِ**).

فسورةُ الإخلاصِ متَضَمِّنَةٌ لتَوحيدِ العِلْمِ والمعرِفَةِ، وما يجبُ لله جلَّ وعلا من صفاتِ الكمالِ التي تَوَحَّدَ بها ولم يشارِكْه فيها غيرُه سبحانَه، والتي دلَّ عليها اسْمُه (**الصمدُ**)؛ فإنَّ معناه **إثباتُ جميعِ صفاتِ الكمالِ التي ليسَ فيها نقصٌ بوجهٍ من الوجوهِ**، مَعْ نَفْيِ الولَدِ والوالِدِ عنه، وهو مِنْ كَمالِ صَمَدِيَّتِه سبحانَه، وكذلِكَ يتضَمَّنُ نَفْيَ الكُفءِ المتضمّنَ لنَفْيِ الشبيهِ والمثيلِ والنَّظيرِ، **فتضمَّنَتْ هذه السورةُ إثباتَ كلِّ كَمالٍ لله، ونفيَ كلِّ نقصٍ عنه سبحانَه، وإثباتَ توحُّدِه بتِلكَ الصِّفاتِ معَ نفْيِ مُطلَقِ الشريكِ والمثيلِ والشَّبيهِ له تعالى، وهذه الأصولُ هي أصولُ التوحيدِ العلميِّ الذي يَخرُجُ به صاحِبُه منَ الضَّلالِ والشّركِ**، ولذلِكَ كانتْ تعدِلُ ثلثَ القرآنِ؛ فإنَّ القرآنَ إما خبرٌ عنِ الله، وإما قَصَصٌ، وإما أحكامٌ، وهذه السورةُ جَمَعَتِ الخَبَرَ عنِ الله تعالى فعَدَلَتْ ثُلُثَ القرآنِ كما ثبتَ هذا مُتواتِراً عن نبينا عليهِ الصلاةُ والسلامُ.

وأما سورةُ الكافرونَ فهي المتضمِّنَةُ للتَّوحيدِ العَمَلِيِّ، ومَنْ تمَسَّكَ بها خرجَ منَ الشركِ العمليِّ كما يخرجُ بسورَةِ الإخلاصِ من الشِّركِ العِلمِيِّ.

ولما كانَ العِلْمُ قبْلَ العَمَلِ وهو إمامُه وقائدُه وسائِقُه والحاكمُ عليه، كانت سورةُ الإخلاصِ تعدِلُ ثُلُثَ القرآنِ، وسورةُ الكافرونَ تعدِلُ ربعَ القرآنِ.

ولأجلِ ما تضمَّنَتْه هاتَانِ السورتان منَ الإخلاصِ الكامِلِ لله تعالى في العلمِ والعَمَلِ كانَ يقرأُ بهما رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في رَكعتَي الفَجْرِ والمغْرِبِ والوِتْرِ، وذلكَ أنَّ ركعتي الفَجرِ **هما بِدايَةُ عمَلِ اليومِ فافتَتَحَ**

اليومَ بالتوحيدِ وصلاةُ الوِترِ هي خِتامُ العَمَلِ **فخَتَمَهُ بالتوحيدِ، ومَن كانتْ بِدايَةُ عمَلِهِ وخاتمتُه بالتَّوحيدِ غَفَرَ اللهُ له ما بينَ ذلِكَ**، كما أنَّ مَن كانَ آخرُ كلامِهِ التوحيدَ لله تعالى دَخَلَ الجنةَ، ولهذا أُمِرَ الوالِدُ أنْ يجعَلَ أوَّلَ ما يدخُلُ سَمْعَ الوَلَدِ التَّوحيدَ بالأذانِ، لتكونَ حياتُه قد ابْتُدِئَتْ بالتَّوحيدِ، فإنْ خُتِمَ له بالتوحيدِ دخَلَ الجنةَ، واللهُ المستعانُ.

وأما رَكعَتا المغرِبِ، فهما خِتامُ عَمَلِ النَّهارِ وبدايةُ عَمَلِ الليلِ، ولذلِكَ كانتِ المغربُ وِترَ النَّهارِ، فعَليهِ يكونُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدْ بدأ نهارَه وخَتَمَه بالتوحيدِ، وكذلِكَ بدأ ليلَه وختَمَه بالتوحيدِ، واللهُ أعلمُ.

كما كانَ عليه الصلاةُ والسلامُ يقْرأ بهاتَينِ السورَتينِ في رَكعَتَيِ الطوافِ؛ وذلِكَ لأنَّ الحجَّ هو شِعارُ التوحيدِ كما بيَّنتُ ذلكَ في وقَفاتِ الحجِّ بفضلِ الله تعالى.

ويُسَنُّ بعدَ هاتَينِ الركعتينِ الاضْطِجاعُ على الشِّقِّ الأيمَنِ؛ كما كان يفعَلُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى يأتِيَهُ المؤذِّنُ للإقامَةِ. **وهذا الاضْطِجاعُ للراحَةِ مِن قِيامِ الليلِ** كما ذكرَ شيخُ الإسلامِ عليهِ رحمةُ الله، ولا شيءَ على مَنْ تَرَكَه فقدْ ترَكَه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحياناً.

ـ فائِدَةٌ:

قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وفي اضْطِجاعِه على شِقِّهِ الأيمَنِ سِرٌّ، وهو أنَّ القلبَ معلَّقٌ في الجانِبِ الأيسَرِ، **فإذا نامَ الرجُلُ على الجانِبِ الأيسَرِ اسْتَثْقَلَ نوماً**، لأنّه يكونُ في دَعَةٍ واسْتراحَةٍ، فيثقُلُ نومُه، **فإذا نامَ على شقِّهِ الأيمنِ فإنه يَقْلَقُ ولا يستَغْرِقُ في النومِ**، لقَلَقِ القَلبِ، وطلَبِه مستَقَرَّه،

وميلِهِ إليهِ، ولهذا استَحَبَّ الأطباءُ النومَ على الجانبِ الأيسَرِ لكَمالِ الراحةِ وطِيبِ المنامِ، وصاحِبُ الشرعِ يستَحِبُّ النومَ على الجانِبِ الأيمنِ لئَلا يثقُلَ نومُه فينامَ عن قِيامِ الليلِ، **فالنَّومُ على الجانِبِ الأيمنِ أنفعُ للقَلبِ، وعلى الجانِبِ الأيسَرِ أنفعُ للبَدَنِ**، واللهُ أعلمُ).

وذكرَ بعضُ أهْلِ العِلْمِ أنّه يُكرَهُ الكلامُ بعدَ هاتَيْنِ الركعَتينِ ورُوي هذا عن ابنِ مسعودٍ، **وذلِكَ لأنَّ هذه الساعةَ ساعةُ تَسبيحٍ وذِكرٍ لله** تعالى إلا أن يكونَ كلاماً بعِلْمٍ نافِعٍ أو محادَثَةِ أهْلٍ فهذا لا يخالِفُ الذكرَ المشروعَ، واللهُ أعلمُ.

٢ـ سُنَّةُ الظّهرِ:

صحَّ عن ابنِ عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه صلّى معَ رسولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ركْعَتَينِ قبلَ الظّهرِ وركعَتَينِ بعدَها.

وصحَّ عن عائشةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أنَّ النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كانَ لا يَدَعُ أربعاً قبلَ الظهرِ، وصحَّ عنها أيضاً قالتْ: «**كانَ النبيُّ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **يُصَلّي في بيتي قبلَ الظهرِ أربعاً ثمّ يخرُجُ فيصلّي بالناسِ..**».

وهذا يُحمَلُ على أنَّ كلَّ واحدٍ أخبرَ بما رأى، وأن النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كانَ له سُنَّتانِ عندَ الظّهرِ، واللهُ أعلمُ.

قال ابنُ القيمِ: (فإمّا أنْ يُقالَ: إنّه كانَ إذا صلّى في بيتِه صلّى أربعاً وإذا صلى في المسجدِ صلّى ركعتينِ، وهذا أظهَرُ. وإما أنْ يُقالَ: كانَ يفْعَلُ هذا ويفعلُ هذا، فحكى كلُّ واحدٍ ما شاهدَهُ.. وقدْ يقالُ: **إنَّ هذه الأربعَ لم تكنْ سنّةَ الظهرِ**، بلْ هيَ صلاةٌ مستقِلَّةٌ كان يُصلّيها بعدَ الزوالِ كما ذكره

الإمامُ أحمدُ، عن عبدِ الله بنِ السائبِ أن رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يصلّي أربَعاً بعدَ أن تزولَ الشمسُ وقالَ: «**إنّها ساعَةٌ تُفتَحُ فيها أبوابُ السماءِ، فأحِبُّ أنْ يصْعَدَ لي فيها عملٌ صالحٌ**»..فهذِه واللهُ أعلَمُ هي الأربَعُ التي أرادتْ عائشةُ أنه كان لا يدَعُهُنَّ.

وأما سنّةُ الظّهْرِ فالرّكعتانِ اللّتانِ قالَ عبدُ الله بنُ عمرَ، يوضِحُ ذلكَ أنَّ سائرَ الصّلَواتِ سُنّتُها ركعَتانِ ركعتانِ، والفَجْرُ معَ كونِها رَكعَتينِ والناسُ في وقتِها أفرغَ ما يكونونَ، ومع هذا سنَّتُها ركعتانِ، **وعلى هذا فتكون هذه الأربَعُ التي قبلَ الظهرِ وِرْداً مستَقِلاً، سببُه انتِصافُ النّهارِ وزوالُ الشمسِ**. وكان ابنُ مسعودٍ يصلّي بعدَ الزوالِ ثمانيةَ ركعاتٍ ويقول: إنّهنَّ يُعْدَلْنَ بمِثْلِهِنَّ من قيامِ الليلِ.

وسرُّ هذا ـ واللهُ أعلمُ ـ أنَّ انتِصافَ النّهارِ مُقابِلٌ لانتِصافِ اللّيلِ، وأبوابُ السماءِ تُفتَحُ بعدَ زوالِ الشمسِ، ويحصُلُ النزولُ الإلهيُّ بعدَ انتِصافِ الليلِ، فهما وقتا قُربٍ ورحمةٍ، هذا تُفتِحُ فيه أبوابُ السماءِ، وهذا ينزلُ فيه الربُّ تباركَ وتعالى إلى سماءِ الدنيا).

وصحَّ عن رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قالَ: «**مَنْ حافَظَ على أربعِ ركعاتٍ قبلَ الظهرِ وأربعٍ بعدَها حرَّمه اللهُ على النارِ**»، كما في سنن أبي داود والترمذي والنسائي وغيرهم.

٣ـ سُنّةُ العَصْر:

عن ابنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**رَحِمَ اللهُ امرَأً**

صلّى قبلَ العصـرِ أربَعاً»، وهو حديثٌ حسنٌ.

وهذه الأربعُ ليستْ من السنَنِ الرواتِبِ وإنْ كانتْ مستحَبّةً، بدليلِ أنَّ راوي الحديثِ وهو ابنُ عمرَ لمْ يَعُدَّها منَ السّنَنِ الرّواتِـبِ التـي حَفِظَهـا عن رسولِ الله ﷺ كما سيأتي معنا الحديثُ بذلك.

قال شيخُ الإسلامِ: (وليسَ للعصْـر سنةٌ راتبَةٌ، وهو مَذْهَبُ أحمدَ).

٤ـ سُنّةُ المغْرِبِ:

وهي ركعتانِ بعدَ صَـلاةِ المغـربِ لحـديثِ ابـنِ عمـرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قـال: «**صلّيْتُ مع رسولِ الله ﷺ ركعتينِ قبْلَ الظّهْرِ وركعَتَينِ بعـدَها، ورَكعتينِ بعدَ الجمعةِ، وركعَتَينِ بعدَ المغْرِبِ، وركعَتَينِ بعدَ العَشاءِ**»، وهو في صحيح البخاريِّ وغيره.

ولحديثِ عائشةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالتْ: «**كان النبيُّ ﷺ يُصَلّي في بيتي قبلَ الظّهْرِ أربَعاً، ثم يخرُجُ فيصلّي بالنـاسِ، ثـمّ يـدْخُلُ فيصـلي رَكعتـينِ، وكانَ يصلّي بالناسِ المغربَ ثم يدخلُ فيصـلي ركعتـينِ، ويُصَـلّي بالنـاسِ العَشاءَ ويدْخُلُ بَيتي فيُصَلّي ركعتَينِ**». رواهُ مسلمٌ.

قالَ ابنُ القيّمِ: (**وفي سنَّةِ المغرِبِ سنَّتانِ**: إحداهُما: أنّه **لا يُفصَلُ بينَهـا وبينَ المغربِ بكلامٍ**، قال أحمدُ في روايَةِ الميموني والمروزي: يُستَحَبُّ أنْ لا يكونَ قبلَ الركعتينِ بعدَ المغربِ إلى أن يُصلِّيَهُما كلامٌ، وقـال الحسـنُ بـنُ محمدٍ: رأيتُ أحمدَ إذا سلَّمَ من صلاةِ المغربِ قامَ ولم يـتكلَّمْ، ولم يركَـعْ في المسجِدِ قبلَ أن يدخُلَ الدارَ..

والسنّةُ الثانيةُ: أنْ تُفعَلَ في البيتِ، لما روى كعبُ بنُ عُجْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنّ

النبيَّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أتى مسجِدَ بني عبدِ الأشهَلِ فصلّى فيه المغربَ، فلما قَضَوْا صلاتَهم رآهم يُسبِّحونَ بعدَها فقالَ: «**هذهِ صلاةُ البيوتِ**»، رواه أبو داودَ الترمذيُّ والنّسائيّ.

قلتُ: والسنّةُ أنْ يقرأ في هاتَينِ الرّكعتَينِ بسورَتَيْ التوحيدِ ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ﴾ و ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وقدْ سبقَ بيانُ الحكمَةِ مِن ذلكَ في سنةِ الفجْرِ والحمدُ لله.

٥ـ سنّةُ العِشاءِ:

وهي ركعتانِ بعدَ صلاةِ العِشاءِ.

والأفْضَلُ أنْ يكونا في البيتِ لحديثِ ابنِ عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: «**حفِظْتُ مِن النبيِّ** صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **عَشْر ركَعاتٍ: ركعتينِ قبْل الظّهرِ، وركعَتَينِ بعْدَها، وركعَتَينِ بعدَ المغْرِبِ في بيْتِه، وركعَتَينِ بعدَ العشاءِ في بيتِه، وركعتينِ قبلَ الصبحِ، كانتْ ساعةً لا يُدخَلُ فيها على النبيِّ** صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، **حدَّثَتْني حفْصةُ أنه كانَ إذا أذَّنَ المؤذنُ وطَلَعَ الفجرُ صلّى ركعتينِ**»، متّفَقٌ عليه.

وهذا الحديثُ يدُلُّ على أنَّ السُّنَنَ الرواتِبَ عشرُ ركعاتٍ. وفي حديثِ أمِّ حبيبةَ أنها ثِنْتَا عشرةَ ركعةً، كما في صَحيحِ مسلمٍ، وزاد الترمذيُّ: «**أربعاً قبْلَ الظّهرِ**».

٦ـ صَلاةُ الوِتْرِ:

وهيَ مِن آكَدِ صَلواتِ التّطَوُّعِ. قال شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُٱللَّهُ: (والوِتْرُ أوكَدُ مِن سنّةِ الظّهرِ والمغْرِبِ والعشاءِ، والوتْرُ أفضَلُ من جميعِ تطوّعاتِ

النَّهارِ كصلاةِ الضحى، بل أفضلُ الصلاةِ بعدَ المكتوبَةِ قيامُ الليلِ، وأوكدُ ذلكَ الوترُ وركعتا الفجرِ).

والوِترُ سنةٌ مؤكَّدةٌ باتِّفاقِ المسلمينَ، وقد ذهبَ قومٌ إلى وجوبِه منهم أحمدُ في أحَدِ قولَيْهِ؛ فقد سُئِلَ عن الرجلِ يتركُ الوترَ متعمِّداً فقال: (هذا رجلُ سوءٍ، يتركُ سنةً سنَّها رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا ساقِطُ العدالةِ إذا ترَكَ الوِترَ تعمُّداً).

وقال ابنُ تيميةَ: (الوترُ سنةٌ مؤكَّدةٌ باتِّفاقِ المسلمينَ، ومَنْ أصرَّ على تركِه فإنه تُردُّ شهادتُه، وتنازَعَ العلماءُ في وجوبِه).

وذكرَ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ شيخَ الإسلامِ قدِ اخْتارَ وجوبَه على مَن يتهجَّدُ باللّيلِ.

قلتُ: سبَقَ التّنبيهُ على أنَّ السنةَ المؤكَّدَةَ عندَ العلماءِ هِيَ ما لا يجوزُ تركُه بغيرِ عُذْرٍ، ومَن تعمَّدَ تَرْكَه فهوَ آثِمٌ، وعليهِ فالخلافُ في وجوبِ الوترِ وكونِه سنةً مؤكدةً خلافٌ لفظيٌّ، فقَدْ اتَّفقوا على تأثيمِ تاركِه عمْداً.

وقد يقالُ: **إنَّ الوتْرَ مِن حيثُ هو واجِبٌ لا يجوزُ تركُه، وأما مِن حيثُ فعلُه كلَّ ليلةٍ فهو سنّةٌ مؤكّدةٌ**، وعليه فإنَّ مَنْ تَرَكَه مرّةً أو نادراً فلا شيءَ عليه ويفوتُه الخيرُ، ومَن ترَكَه غالباً أو دائماً فهو آثمٌ تاركٌ للواجِبِ. وهذا هو الفَرْقُ بينَه وبينَ الفَريضةِ التي لا يجوزُ تركُها ولا مَرةً بغيرِ عذرٍ، واللهُ أعلمُ.

ووقتُه ما بينَ صلاةِ العِشاءِ إلى الفَجْرِ، والأفضَلُ فِعْلُه آخرَ اللَّيلِ لمن كان يقومُ مِن الليلِ أو وَثِقَ مِن قيامِه، فإن لم يثِقْ بقيامِهِ أوْتَرَ قبلَ أن يرقدَ.

ومَن فاتَه الوترُ وكان متَعَوِّداً عليـه يَقْضـيه مِـنَ النّهـارِ شـفْعاً. قالـت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كما في صحيحِ مسلم: (**كـان رسـولُ الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **إذا مَنَعَه مِنْ قيامِ الليلِ نومٌ أو وجَعٌ، صلَّى من النّهارِ اثنَتَي عشـرةَ ركْعةً**).

وذهَبَ قومٌ إلى أنه لا يُقضـى؛ لأنَّ المقصودَ بالوتْرِ أن يكونَ آخرَ عَمَلِ الليلِ كما أنَّ وترَ النّهارِ المغـربُ، ولهـذا كـان النبـيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا فاتَـه عَمَلُ اللّيلِ صلّى منَ النّهارِ ثنتي عشـرةَ ركعةً، ولو كان الوِترُ فيهنَّ لكـانَ ثلاثةَ عشـرةَ ركعة.

قال ابنُ تيميةَ: (والصحيحُ أنه يُقضـى قبلَ صـلاةِ الصـبْحِ، فإنـه إذا صُلِّيَتْ لم يبقَ في قضائِه الفائدةُ التي شُـرِعَ لها، واللهُ أعلمُ).

وقال ابنُ القيمِ: (وترُ النهارِ يُقضـى بالاتِّفاقِ ـ أي: صـلاةُ المغـربِ ـ وأما وترُ الليلِ فلم يقُمْ على قَضائِه دليلٌ، فإن المقصودَ منه قد فـاتَ، فهـو كتحيَّةِ المسجدِ.. وسمعتُ شيخَ الإسلامِ يقولُ: في هذا دليلٌ على أنَّ الوتْرَ لا يُقضـى لفواتِ محلِّه فهو كتحيةِ المسجِدِ وصَلاةِ الكُسوفِ والاستِسْـقاءِ ونحوِها؛ لأنَّ المقصودَ به أن يكون آخرُ صلاةِ الليلِ وِتراً كـما أن المغـربَ آخرُ صلاةِ النهارِ، فـإذا انقضـــى اللّيــلُ وصُــلِّيَتِ الصـبْحُ لمْ يقَـعْ الـوِترُ موقِعَه، هذا معنى كلامِه).

والوتْرُ أقلُّه ركعةٌ وأكثرُه إحدى عشـرةَ ركعة، ولا ينبغي الإيتـارُ بركعـةٍ إلا لمن كانَ قد صلّى قبْلَه شَفْعاً، ومن كان صلى قبلَه فلا يُكرَهُ له ذلكَ.

وأدنى الكَمالِ ثـلاثُ ركَعـاتٍ؛ لأنَّ الرّكعـةَ الواحـدةَ قـد اختُلِـفَ في

كراهَتِها، والأفْضَلُ أنْ يتقدَّمَها شَفْعٌ، فلذلِكَ كانت الثلاثُ أدنى الكَمالِ بسَلامَيْنِ؛ لأنّه أكثرُ عمَلاً. قال في الإنصافِ: (وهذا بلا خلافٍ أعلَمُه).

ويُستَحَبُّ إذا أوتَرَ بثلاثٍ أن يقرأ في الركعةِ الأولى بسورةِ الأعلى، وفي الثانيةِ بسورةِ الكافرون، وفي الثالثة بسورة الإخلاصِ، كما عليهِ أكثَرُ العُلماءِ.

وقد مرَّتِ الحكْمَةُ في ذلكَ، وأن الوترَ هو خاتِمَةُ عمَلِ الليلِ، **فيختِمُ بالتوحيدِ كما بدأ عملَه بالتوحيدِ.**

ويُستَحَبُّ القنوتُ في الوتْرِ في الركعةِ الثالثَةِ، قبلَ الرُّكوعِ أو بعدَه، ومَنْ نَوَّعَ في ذلكَ فهو أفضَلُ، ويدعُو بما أثِرَ عن الحسنِ بنِ عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علَّمَهُ كلماتٍ يقولها في قُنوتِ الوترِ وهي: «**اللهم اهْدِني فيمَنْ هدَيْتَ، وعافِني فيمَنْ عافيتَ..**»، وهو الدّعاءُ المشهورُ عندَ الناسِ، وإنْ دعا بغيرِ ذلكَ جازَ، خاصةً الدعاءَ على المشركينَ والمحاربينَ لله ورسولِه والمؤمنينِ.

والقنوتُ جائزٌ في جميعِ العامِ، والأفْضَلُ فعلُه وتَرْكُه اقتداءً بالنبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذهبَ بعضُ العلماءِ إلى أنه لا يقنُتُ إلا في النِّصْفِ الأخيرِ من رمضانَ، منهم أحمدُ في أحَدِ أقْوالِه، وهو قولُ عليٍّ وأُبَيّ، وبه قال ابنُ سيرينَ والزهريُّ ومالكٌ والشافعيُّ، وغيرُهم.

٧ـ صلاةُ الضّحى:

اختلَفَ العلماءُ في استِحبابها وعَدَمِهِ.

فقد روى البخاريُّ وغيرُه عن عائشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: «**ما رأيتُ**

رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يُصَلّي سُبْحةَ الضحى، وإني لأسبِّحُها**».

وصحَّ عن ابنِ عمرَ أنه كان لا يصلّيها ولا أبو بَكْرٍ ولا عمرُ، فسئِلَ عن رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالَ: (لا إخالُه).

وصح أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلّى يومَ الفتحِ ثماني ركعاتٍ من الضحى في بيتِ أم هانيءٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وصحَّ عن عائشةَ أنها سُئلتْ: هل كانَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلّي الضُّحى؟ قالتْ: «**لا إلا أنْ يَجيءَ مِنْ مَغيبِه**».

وفي الصَّحيحينِ عن أبي هريرةَ قالَ: «**أوصاني خَليلي محمدٌ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بصِيامِ ثلاثةِ أيامٍ مِنْ كلِّ شهرٍ، ورَكعتي الضُّحى، وأنْ أوتِرَ قبلَ أن أنامَ**». وفي مُسْلِمٍ نحوُه عن أبي الدرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

واختَلفَ الصحابةُ فيها ما بينَ مستحِبٍّ لها وبينَ منكرٍ لذلِكَ.

والذي عليهِ المدَقِّقونَ منَ العُلماءِ وذَهبَ إليه شيخُ الإسلامِ وابنُ القيِّمِ رحمهما اللهُ تعالى، أنَّ **النبيَّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **لم يكنْ يقْصِدُ الصلاةَ وقتَ الضُّحى إلا لسببٍ مثلَ أن يقدُمَ من سفرٍ**،كما قالتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فيبدأ بالمسْجِدِ فيصلي فيه ركعتينِ، **ومثلَ أنْ يَشغَلَهُ نومٌ أو مرضٌ عن قيامِ الليلِ** فيُصلّي من النهارِ اثنتي عشرةَ ركعةً، **ومثلَ الصلاةِ التي صلاها يومَ الفتحِ، أو عندَ زيارتِه لقومٍ**، وغيرِ ذلكَ من الأسبابِ، ولمْ يكنْ يفعَلُها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لغَيْرِ سببٍ، ولذلكَ قالتْ عائشةُ: (**وإني لأسَبِّحُها**) معَ ذِكْرِها بأنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمْ يكُنْ يُصَلِّيها، وهيَ لم تذكُرْ أنها مكروهةٌ

ولا أنها مخالِفَةٌ لهديِهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وكان صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **يستَغْني عنها بقيامِ الليلِ؛ فهيَ كالبَدَلِ عن القِيامِ تُغني عنه**، ولهذا أمرَ بها وحضَّ عليها مَنْ لا يقومُ الليلَ كأبي هريرةَ؛ فإنّه كان يختارُ دَرْسَ الحديثِ باللّيلِ على القيامِ، فأمَرَه بالضُّحى بدَلَ القيامِ، كما أمرَه ألا ينامَ حتى يوتِرَ، ولم يأمُرْ بذلِكَ أبا بكرٍ ولا كبارَ الصحابةِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ. قال شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُٱللَّهُ: (**والأشْبَهُ أنْ يُقالَ: مَنْ كانَ مُداوِماً على قيامِ اللّيلِ أغْناهُ عنِ المداوَمَةِ على صَلاةِ الضُّحى، كما كانَ النبيُّ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **يفْعَلُ، ومَن كانَ ينامُ عن قيامِ اللّيلِ فصلاةُ الضّحى بدلٌ عن قيامِ الليلِ**)، قالَ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان]، قالَ ابنُ عباسٍ والحسنُ وقتادةُ: عِوَضاً وخَلَفاً، يقومُ أحدُهما مَقامَ صاحبِهِ، فمنْ فاتَهُ عملٌ في أحدِهما قضاهُ في الآخَرِ، والله تعالى أعلم.

ولصلاةِ الضّحى ثلاثُ درجاتٍ:

ـ **أقلُّها**: ركْعَتانِ، وهما تُجزِئانِ عن الصَّدقاتِ الواجِبَةِ على ابنِ آدمَ في كلِّ يومٍ، كما وَردَ في الحديثِ الصحيحِ عندَ مسلمٍ وغيرِه عن نبيِّنا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنّه قالَ: «**يُصْبِحُ أحَدُكم وعلى كلِّ سُلامَى منه صدقةٌ، فكلُّ تَهْليلَةٍ وتحميدَةٍ وتَكْبيرَةٍ وتَسبيحَةٍ صدَقَةٌ، وأمْرٌ بمَعروفٍ ونهيٌ عن منكرٍ صدَقَةٌ، وتُجزئُ مِن كلِّ ذلكَ ركعتا الضّحى**».

وذلِكَ أنَّ إبْقاءَ مَفاصِلِ ابنِ آدمَ على ما هَيَ عليه نعمةٌ عظيمةٌ تستَوْجِبُ الشكرَ والحمدَ، ومِن أعظَمِ الشكرِ تقديمُ الصَّدقاتِ، وبما أنه

لا يتأتّى ذلكَ لكلِّ أحدٍ عُوِّضَ عن الصَّدَقاتِ بالذِّكرِ الذي فيه حمدُ الله واعترافُ العبدِ بما لله عليه من النعمةِ والفَضْلِ. ولما كانتِ الصلاةُ من أعظَمِ الطاعاتِ، وهي جامعةٌ لجميعِ أنواعِ الذكرِ، كانتْ عِوَضاً عن هذه الصَّدَقاتِ، والله أعلَمُ.

ـ **ثانيها**: أربعُ ركعاتٍ، وهي تَكفي العبدَ في نهارِه كلِّه وتَحمِيه مِن جميعِ الآفاتِ، كما وردَ في الحديثِ القدسيِّ الذي رواه الترمذيُّ والنَّسائيُّ وأحمدُ وغيرُهم: «**يا ابنَ آدمَ، اركعْ لي أربعَ ركعاتٍ من أوَّلِ النّهارِ أكْفِكَ آخرَه**».

ـ **ثالِثُها**: ما زادَ على ذلكَ كثَمانِ ركعاتٍ أو اثنتي عشرةً ركعةً.

وأكملُ أوقاتِها حينَ يتَرَحَّلُ النّهارُ وترمَضُ الفِصالُ، لما وردَ في صحيحِ مسلمٍ وغيرِه عن النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه قالَ: «**صلاةُ الأوّابينَ حينَ ترمَضُ الفِصالُ**». أي: حينَ يشتَدُّ الحرُّ فتبركُ الفِصالُ (وهي أولادُ الناقةِ) من الحرِّ.

الوقفةُ السادسةُ والعشرونَ

فوائدُ وأحكامٌ منثورةٌ حولَ الصلاةِ

هذه الوقفةُ تضمَّنَتْ فوائداً منثورةً، وحِكَماً متنوعةً، لم يسبقِ التنبيهُ عليها خلالَ الوقَفاتِ، أو سَبَقَ التَّنبيهُ على أصلِها، ذكرتُها تتِمَّةً لهذه الوَقفاتِ، بغيرِ ترتيبٍ أو تبويبٍ، وإنما على حسَبِ ما يتيَسَّرُ منها، وقد جعلتُ لكلِّ فائدةٍ منها عنواناً يدلُّ على ما تضمَّنَتْه، والله الموفِّقُ لكلِّ خيرٍ، وهو حسبُنا ونعمَ الوكيل..

١- الجمعُ بينَ خُشوعِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبينَ التِفاتِه في الصلاةِ أحياناً:

من المعلومِ أنَّ **الالتِفاتَ** في الصلاةِ يُضادُّ الخشوعَ فيها، ولذلِكَ وردَ النهيُ عنه، وأخبرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه **اختِلاسٌ يختَلِسُه الشيطانُ** من صلاةِ العبدِ كما في صحيحِ البخاريِّ.

ولهذا لم يكنْ من هَديِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا مِن هَدْيِ أصحابِه الالتِفاتُ في الصلاةِ كما هو معلومٌ مِن صِفَةِ صلاتِهم.

إلا أنه قد وردَ في سنَنِ أبي داودَ بسندٍ صحيحٍ أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعَثَ فارِساً طليعةً ثم قامَ إلى الصلاةِ، وجَعَلَ يلتَفِتُ إلى الشِّعْبِ الذي يجيءُ منه.

وقد جمعَ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين هذا وبينَ كراهيةِ الالتِفاتِ، فقالَ: (فهذا الالْتِفاتُ مِن **الاشتِغالِ بالجهادِ في الصلاةِ**، وهو يدخُلُ في مداخِلِ العباداتِ، كصلاةِ الخوفِ، وقريبٌ منه قولُ عمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (**إني لأجهِّزُ جَيشي وأنا في الصلاةِ**) علَّقَه البُخاريُّ بصِيغَةِ الجزْمِ ووَصَلَهُ ابنُ أبي شيبةَ. **فهذا جمعٌ بينَ الجهادِ والصلاةِ.**

ونظيرُه التَّفَكُّرُ في معاني القرآنِ، واستِخْراجُ كُنوزِ العِلْمِ منه في الصلاةِ، **فهذا جمعٌ بينَ الصّلاةِ والعِلْمِ**، فهذا لونٌ والتفاتُ الغافِلينَ اللاهينَ وأفكارُهم لونٌ آخرُ، وبالله التوفيقُ).

فهذا الالتفاتُ منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **إنّما كانَ لعارضٍ عَرَضَ له وليسَ هو مِن عادَتِه**، مع ما فيه مِن الاهتمامِ بأمورِ الأمةِ، خاصةً الجهاد الذي هو مِنْ أرْفَعِ أنواعِ العبوديةِ لله تعالى، والتي لا تَتنافى معَ الصلاةِ وخشوعِها والمقصودِ منها، والله أعلم.

وقال ابن القيمِ في موضعٍ آخرَ: (وكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا قامَ إلى الصلاةِ طَأْطَأَ رأسَه.. وكان في التشهُّدِ لا يجاوِزُ بصَرُه إشارتَه.. وكان قد جَعَلَ الله تعالى قُرّةَ عيْنِه ونَعيمَه وسُرورَه وروحَه في الصلاةِ.. ومع هذا لم يكنْ يَشْغَلُه ما هو فيه من ذلِكَ مِن مراعاةِ أحوالِ المأمومينَ وغيرِهم، مع كمالِ إقبالِه وقُرْبِه من الله تعالى وحُضورِ قلبِه بينَ يدَيْه واجْتِماعِه عليه.

وكان يدخلُ في الصّلاةِ وهو يريدُ إطالَتَها، فيسمَعُ بكاءَ الصبيِّ فيخفِّفَها مخافَةَ أنْ يشقَّ على أمِّه، وأرسَلَ مرةً فارساً طليعةً له فقامَ يصلِّي

وجَعَلَ يلتَفِتُ إلى الشِّعبِ الذي يجيءُ منه الفارسُ، ولمْ يَشْغَلْه ما فيه مِن مراعاةِ حالِ فارِسِهِ..) ثم ذكرَ أمثلةً كثيرةً لهذا الأصلِ.

قلت: **وهذا هو الكمالُ الذي لا يَصِلُ إليه إلا القَليلُ من الناسِ**، وهو الجمعُ بينَ أنواعِ العبودِياتِ في وقتٍ واحدٍ، وتحمُّلُ القلبِ لكُلِّ ذلكَ بكلِّ ثباتٍ ورباطَةِ جأشٍ، ولا يُبعِدُه حالٌ عن حالٍ، واللهُ أعلم.

واقرأ زيادةً على ما سبَقَ طريقَ الهجرَتينِ لابنِ القيمِ أيضاً، في أنواعِ المحبَّةِ من آخِرِ الكتابِ ففيه زيادةُ فائدةٍ، والله الموفِّقُ.

٢- الفَصلُ بينَ الفَرضِ والسنَّةِ بكَلامٍ أو انتِقالٍ:

قال شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والسنّةُ أنْ يُفصَلَ بينَ الفَرضِ والنَّفلِ في الجمعَةِ وغيرِها، كما ثبتَ عنه في الصحيحِ أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى أن تُوصَلَ صلاةٌ بصلاةٍ حتى يُفصَلَ بينَهما بقِيامٍ أو كلامٍ؛ فلا يفعلُ ما يفعَلُه كَثيرٌ من الناسِ يَصِلُ السلامَ برَكعَتَيِ السنةِ، فإنَّ هذا ركوبٌ لنَهْيِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي هذا مِنَ الحِكمَةِ: التَّمييزُ بينَ الفرضِ وغيرِ الفَرْضِ، كما يُميَّزُ بينَ العبادةِ وغيرِ العبادةِ). وقالَ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**لئَلا يُتَّخَذَ ذريعةً إلى تَغييرِ الفَرضِ وأن يزادَ فيه ما ليسَ منه**).

قلتُ: الحديثُ الذي ذكره شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، هو حديثُ معاويةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**أنَّ النبيَّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أمَرَ بذلِكَ، أنْ لا نوصِلَ صَلاةً بصلاةٍ حتى نتكلَّمَ أو نخرُجَ**»، رواه مسلمٌ وفيه قصةٌ.

٣- قَضاءُ السُّنَنِ :

مَنْ فاتَه شيءٌ مِن السُّنَنِ سُنَّ لـه قَضاؤه، وهو مذهبُ جماعةٍ من الصحابةِ والتَّابعينَ، وإليه ذَهبَ الأوزاعِيُّ والشافعيُّ وأحمدُ، واختارَهُ شيخُ الإسلامِ رحمهم الله تعالى.

ودليلُه ما ثَبتَ أنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضى رَكعتي الفَجرِ مَعَ الفَجْرِ حينَ نامَ عنهُما، وقَضى الركعَتَيْنِ اللَّتَينِ قبلَ الظُّهرِ بعدَ العَصْرِ، وقالَ: «**مَن نامَ عنِ الوِتْرِ أو نَسِيَهُ فلْيُصَلِّهِ إذا أصبَحَ أو ذَكَرَ**»، وهو عندَ أبي داودَ والترمذيِّ وابنِ ماجه بسندٍ صحيحٍ، وقالَ: «**مَنْ لمْ يُصَلِّ ركعَتَيْ الفَجْرِ فلْيُصَلِّهما بعدَما تَطلُع الشمسُ**»، رواه الترمذيُّ والبيهقيُّ وابنُ حبانَ وغيرُهم، وهو صحيحٌ، وعن عائشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: (**كانَ النبيُّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **إذا لمْ يُصَلِّ أربَعاً قبلَ الظهرِ صَلاهُنَّ بعدَها**) وهو عندَ الترمذيِّ بسندٍ حسنٍ. وعنها: (**أنَّ النبيَّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **كانَ إذا فاتَتْه الصّلاةُ مِنَ الليلِ مِن وجَعٍ أو غيرِه، صلَّى منَ النّهارِ ثنْتَي عشرةَ ركعةً**) وهو عندَ مسلمٍ وغيرِه.

٤- السُّترةُ بَينَ يدَيِ المصلِّي وأهمّيّتُها :

أمرَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المصلِّي أنْ يجعَلَ بينَ يدَيهِ سُتْرَةً يُصلِّي إليها، فقالَ كما في صَحيحِ مسلمٍ: «**إذا قامَ أحدُكم يصلِّي، فإنه يسْتُرُه إذا كانَ بينَ يدَيهِ مِثْلُ آخِرَةِ الرَّحْلِ، فإنْ لم يكنْ بينَ يديه مثلُ آخرةِ الرَّحلِ، فإنه يقطَعُ صلاتَه الحمارُ والمرأةُ والكلبُ الأسودُ..**».

وحذَّرَ مِنَ المرورِ بينَ يدَيِ المصلّي وقالَ: «**لوْ يَعْلَمُ المارُّ بينَ يَدَيِ المصلّي ماذا عليه لكانَ أن يَقِفَ أربعينَ خيراً له من أنْ يَمُرَّ بينَ يديهِ**» وهو في

الصحيحَينِ وغيرِهما.

والسرُّ في ذلِكَ واللهُ أعلمُ، **أنَّ الصلاةَ مِن شعائِرِ الله يجِبُ تَعظيمُها، وكانَ المطلوبُ فيها تعظيمَ الربِّ سبحانَه وتعالى والتَّشَبُّهُ بقيامِ العَبيدِ بخِدمَةِ أسْيادِهِم ومُثولِهِم بينَ أيديهِم، فكانَ مِنْ تمامِ تَعظيمِها أنْ لا يَمُرَّ المارُّ بينَ يَدَيْ المصلّي، فإنَّ المرورَ بينَ يَدَيْ السيِّدِ وعَبيدِه القائِمينَ إليه سوءُ أدَبٍ**، وقد قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ أحَدَكُم إذا قامَ في الصلاةِ فإنما يناجي ربَّه، وإنَّ ربَّه بينَه وبينَ القِبلَةِ**» وهوَ في الصّحيحَينِ وغيرِهما.

معْ ما في المرورِ بينَ يَدَي المصلّي مِنَ التَّشويشِ عليهِ وإبْعادِه عن خُشوعِه، ولهذا كانَ له الحقُّ في دفْعِ المارِّ، ولو تمَنَّعَ فله أن يُقاتِلَه لحديثِ: «**فلْيُقاتِلْه فإنه شيطانٌ**»، وهوَ عندَ أبي داودَ والنّسائيِّ وابنِ ماجَهْ وغيرِهم بسَنَدٍ صَحيحٍ.

ومع ما في ذلكَ أيضاً مِنْ **تَعريضِ المصلّي لبُطلانِ صلاتِه** إنْ كانَ المارُّ امرأةً أو حماراً أو كلباً أسودَ كما ثبتَ عن رسولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصّحيحَينِ وغيرِهما مِن روايَةِ أربَعةٍ من الصّحابةِ أنه قالَ: «**تَقطَعُ الصلاةَ المرأةُ والحمارُ والكلبُ الأسودُ**»، وقدْ سَبَقَ.

وعلَّلَ في الحَديثِ أنَّ الكلبَ الأسودَ شيطانٌ.

فكانَتِ السّترةُ للمُصلّي كالحَرَمِ له تتَمَيَّزُ به ساحَةُ الصلاةِ بأمْرٍ واضِحٍ، لا يجوزُ تعَدِّيهِ ولا المرورُ فيه.

وقد ذهبَ قومٌ من السَّلَفِ أنه لا يَقطَعُ الصلاةَ شيءٌ، واستدَلّوا

ببعضِ الأحاديثِ، ولكنَّها غيرُ دافِعَةٍ لدِلالَةِ ما سَبَقَ، كما بَيَّنَ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيثُ قالَ: (**ومُعارِضُ هذه الأحاديثِ قِسمانِ: صَحيحٌ غيرُ صريحٍ، وصريحٌ غيرُ صحيحٍ، فلا يُترَكُ العملُ بها لمعارضٍ هذا شأنُه،** وكانَ رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يُصلّي وعائشةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا نائِمَةٌ في قِبَلِ قِبلَتِه، وكأنَّ ذلكَ ليسَ كالمارِّ، فإنَّ الرجلَ محرَّمٌ عليه المرورُ بينَ يَدَيِ المصلّي، ولا يُكرَه له أن يكونَ لابِثاً بينَ يديهِ، وهكذا المرأةُ يَقْطَعُ مرورُها الصلاةَ دونَ لَبثِها، واللهُ أعلمُ).

قلتُ: **مِنْ شُروطِ صِحَّةِ الصلاةِ وتَمامِ تَعظيمِ الله فيها، وصِدْقِ الانقِطاعِ فيها إلى الله تعالى وتركِ ما سواهُ، أنْ تَخْلُوَ عن هذهِ الثلاثةِ.**

والسِّرُّ في هذا، واللهُ أعلمُ، أنَّ الصلاةَ إنما شُرِعَتْ لتَعظيمِ الله تعالى والمواجَهَةِ معه ومُناجاتِه، **واختِلاطُ النّساءِ والتقرُّبُ منهنَّ والصّحبَةُ معهُنَّ، مَظِنَّةُ الالتِفاتِ إلى ما هو ضِدُّ ذلكَ،** فمُنِعَتِ المرأةُ من المرورِ، وكان مُرورُها يقطَعُ الصلاةَ.

وأما الكلبُ الأسودُ فهو شيطانٌ كما جاءَ به التَّعليلُ في الحديثِ. قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الكلبُ الأسودُ شيطانُ الكلابِ، والجنُّ تَتَصَوَّرُ بصورَتِه كَثيراً، وكذلِكَ بصورةِ القِطِّ الأسوَدِ؛ لأنَّ السَّوادَ أجمَعُ للقُوى الشيطانيةِ مِن غيرِه، وفيهِ قوةُ الحرارَةِ).

قلتُ: **وكذلَكَ الحمارُ له ارتباطٌ بالشّيطانِ،** ولهذا كان مُختَصاً برؤيَةِ الشياطينِ والنَّهيقِ عندَ ذلكَ، فشُرِعَ لنا الاستعاذةُ مِنَ الشيطانِ عندَ نَهيقِهِ، وكذلِكَ عندَ نِباحِ الكلبِ. ومُرورُ الشّيطانِ بينَ يدَيِ المصلّي يؤثِّرُ

على صَلاتِه ويُبطِلُها فكانَ ذلِكَ، والله أعلم.

مع الإشارَةِ إلى أنَّ المرأةَ أيضاً يَستَشْـرِفُها الشيطانُ إذا خَرجَتْ من بَيتِها يزيِّنُها للناسِ كما ثبتَ عن رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتأمَّلْ هذا.

ولا يَفوتُنا أنْ نُنبِّهَ هنا على ما يفعَلُه أكثَرُ الناسِ مِن عامَّةِ المصلِّينَ، **من الصلاةِ في وسَطِ المسجِدِ أو آخِره دونَ أن يتَّخِذَ سُترةً له**. وهذا مع ما فيهِ مِنْ مخالَفَةِ أمرِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السّابقِ باتّخاذِ السترةِ، قد حَرّجَ على الناسِ وشقَّ عليهِم في عَدَمِ المرورِ أمامَهُ وضَيَّقَ عليهِم واسِعاً، وعليه فلا حُرمَةَ له، ولا يُمْنَعُ الإنسانُ مِنَ المرورِ مِنْ أمامِه مِن بعيدٍ؛ لأنّه لما فَرَّطَ في الواجِبِ الذي عليهِ سقَطَ الحقُّ الذي لَه، والله أعلمُ.

مع ما في ذلِكَ مِن **تَعريضِ صَلاتِه للنَّقصِ والبُطلانِ**؛ لأنّه قَدْ فَتَحَ المجالَ للشيطانِ بذلِكَ، فإنَّ الشيطانَ قد يمرُّ بينَ يدي المصلّي إنْ لم يتَّخِذْ سترةً فيقطَعُها له وهو لا يشعُرُ، كما قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا صلّى أحَدُكم إلى سُتْرةٍ فَلْيَدْنُ مِنها، لا يقطَعُ الشيطانُ عليه صلاتَه**». رواه أبو داودَ والبَزّارُ والحاكِمُ، وهو صحيحٌ.

قال شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللهُ: (والأَوْجَهُ أنَّ الشيطانَ الجنيَّ يَقطَعُها إذا عَلِمَ بمرورِه بتَعليلِ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبظاهِرِ قولِه «**يَقْطعُ صلاتي**».

قلتُ: وإن تَرَكَ السُّترةَ وقصَّرَ بذلِكَ فقد عرَّضَ صلاتَه للخَطَرِ، والله أعلم.

وكان مِن هدْيِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **في السّترَةِ**: أنْ يجعَلَ بينَه وبينَ سترَتِه

قَدْرَ مَمَرِّ الشاةِ، ولم يكنْ يتَباعَدُ منها، بل أَمَرَ بالقُربِ منها، وكان إذا صلّى إلى عُودٍ أو عَمودٍ أو شجرةٍ جعلَه على حاجِبِه الأيمنِ أو الأيسَرِ ولم يَصمَدْ له صَمداً كما ذكَرَ ابنُ القَيِّمِ رحمهُ الله تَعالى في الزادِ، **والأحاديثُ في هذا ضَعيفةٌ** كما في نَصبِ الرايةِ، وعليهِ فلا كَراهةَ من اسْتِقبالِ السترَةِ، واللهُ أعلمُ. وكانَ يصلّي إلى الحربَةِ، وأحياناً يجعَلُ راحِلَتَه بالعَرْضِ فيصلّي إليها، وأَمَرَ المصلّي أنْ يستَتِرَ ولو بِسهْمٍ أو عصا، فإن لم يجدْ فلْيَخُطَّ خَطاً في الأرضِ، **وهذا الحديثُ فيه ضعفٌ**، وقد أخَذَ به جماعةٌ مِنْ أهْلِ العِلْمِ منهم الإمامُ أحمدُ، واللهُ أعلمُ.

٥- أوقاتُ الكَراهة:

ثبتَ عنْ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه نَهى عنِ الصّلاةِ في أوقاتٍ مخصوصَةٍ، والمقصودُ: صلاةُ النافِلَةِ التي ليسَ لها سببٌ، وهو ما يُسمّيهِ العلماءُ (**التطوُّعُ المطلَقُ**).

وأوقاتُ النَّهْيِ هذه هي:

- بعدَ صلاةِ الفَجرِ حتى تطلُعَ الشَّمسُ.
- عندَ طُلوعِ الشّمسِ حتى ترتَفِعَ.
- عندَ انتِصافِ الشّمسِ في كَبِدِ السَّماءِ حتى تَزولَ.
- بعدَ العَصرِ حتى تَميلَ للغُروبِ.
- عندَ غُروبِ الشّمسِ.

ودليلُ ذلكَ ما رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ وغيرُهما مِن حديثِ

أبي سَعيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**لا صلاةَ بعدَ الفَجرِ حتى تطلُعَ الشمسُ، ولا صَلاةَ بعدَ العَصرِ حتى تَغيبَ الشمسُ**».

وما رواهُ مسلمٌ وغيرُه من حَديثِ عقبةَ بنِ عامرٍ قالَ: (**ثلاثُ ساعاتٍ كانَ النبيُّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **ينْهانا أن نُصَلِّيَ فيهِنَّ، أو أنْ نقبرَ فيهنَّ مَوْتانا: حينَ تطلعُ الشمسُ بازِغةً حتى ترتَفِعَ، وحينَ يقومُ قائِمُ الظهيرةِ حتى تَميلَ الشمسُ، وحِين تَضيَّفُ الشّمسُ للغُروبِ حتى تغرُبَ**).

وما رواه مسلمٌ وغيرُه مِن حَديثِ عمروِ بنِ عَبْسَةَ الطويلِ في قِصةِ إسلامِه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ له: «**صلِّ صلاةَ الصُّبْحِ ثم أَقْصِرْ عنِ الصلاةِ حتى تطلعَ الشمسُ حتى ترتَفِعَ، فإنّها تطلُعُ بينَ قرنَيْ شيطانٍ، وحينَئِذٍ يسجُدُ لها الكفّارُ، ثم صَلِّ فإنَّ الصّلاةَ مشهودةٌ محضورةٌ حتى يستَقِلَّ الظلُّ بالرمْحِ، ثم أَقْصِرْ عن الصلاةِ، فإنَّ حينَئِذٍ تُسَجَّرُ جهنَّمُ، فإذا أقبَلَ الفيءُ فصَلِّ فإنَّ الصّلاةَ مشهودةٌ محضورةٌ حتى تصليَ العَصْر، ثمّ أَقْصِرْ عن الصلاةِ حتى تغرُبَ الشمسُ فإنها تغرُبُ بينَ قرني شيطانٍ وحينئِذٍ يسجُدُ لها الكفارُ..**».

والحِكمَةُ مِنَ النَّهيِ في هذه الأوقاتِ، واللهُ أعلم:

أما عِندَ الشّروقِ والغروبِ فمِنْ بابِ سدِّ ذَريعةِ الشِّركِ، كما جاءَ التصريحُ به في حديثِ ابنِ عبسةَ، حتى لا يكونَ هناك تَشَبُّهٌ بمنْ يسجُدُ للشمسِ في هذه الأوقاتِ. **والنّهيُ عنِ التشبُّهِ بالمشركينَ في كلِّ ما يختَصُّ بهم أمرٌ تواتَرَ الأمرُ به في أمورٍ كثيرةٍ**؛ لِمَا في ذلِكَ مِنْ حِمايَةٍ للتوحيدِ وسدٍّ لذَريعةِ الشّركِ ولو بمجرَّدِ مُشابَهَةِ الظاهِرِ، لما في مشابهةِ الظاهِرِ من تأثُّرِ

الباطِنِ، واللهُ أعلمُ.

وأما وقتَ الزوالِ؛ لأنّه وقتٌ تُسعَّرُ فيه جهنَّمُ كما وردَ في الحديثِ، حتى لا يتِمَّ التشبه بمن يسجُدُ في ذلِكَ الوقتِ من الكفّارِ، والله أعلم.

وأما بعدَ العصرِ وبعدَ الفَجرِ؛ فلأنَّ الفَجْرَ بدايةُ الشّروقِ والعَصْر بدايةُ الغروبِ، ومِن هنا كانتْ **صلاةُ العصرِ خاصَّةً بهذِه الأمَّةِ لأنه وقتُ وجودِها في الدُّنيا مِن يومِ الدنيا الطويلِ** كما جاء في الحديثِ الصحيحِ عن نبيِّنا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ولذلِكَ كانتِ الصلاةَ الوسطَى بالنسبَةِ للأمةِ مِن بينِ الصلواتِ كما في أحَدِ الأقوالِ الصّحيحَةِ، ومَنْ تَركَها حَبَطَ عملُه وخَرجَ عنِ الأمّةِ كما ثَبتَ عنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وأيضاً: **فالفَجْرُ وِتْرُ الصَّلواتِ وكذا العصرُ باعتبارٍ آخَرَ**؛ وذلكَ لأنَّ **الإيتارَ إنهاءُ صلاةِ اليومِ أو الليلةِ، وهوَ بمَنْزِلَةِ الختْمِ للعَمَلِ ليَحمِلَهُ الملَكُ إلى الله، لأنَّ الملوكَ لا تقبَلُ الكتابَ إلا مختوماً، فكانتْ صلاةُ الفجْرِ آخرَ صلاةِ الليلِ باعتِبارٍ، فهِيَ خَتمٌ لصلاةِ الليلِ، وكذلِكَ صلاةُ العصرِ ختمٌ لصلاةِ النَّهارِ، وبعدَ هاتَينِ الصلاتَينِ تَستَلِمُ الملائكةُ العَمَلَ لتَرْفَعَه إلى الله كما صحَّ عن النبيِّ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، **فبَعدَهما مَرحَلةٌ فاصِلةٌ بينَ مَرحلَتَيْنِ، والفاصِلُ بينَ مرحلَتَين يُجعَلُ تَسبيحاً حتى تَبدأ المرحَلَةُ الثانيةُ، والله أعلم.**

قال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [ق: ٣٩، ٤٠]، قُرِئ (أَدبارَ) وقُرِئ (إِدْبارَ) بفتحِ الهمزةِ وكسرِها، والمرادُ عِندَ نِهايةِ الصّلاةِ

وبعدَ إتْمامِها، وكذلِكَ قبلَ طلوعِ الشمسِ؛ لأنّه نِهايةُ اللّيلِ وبِدايةُ النَّهارِ، وقبلَ الغروبِ؛ لأنّه نهايةُ اليومِ وبِدايةُ اللّيلِ، وفي آخِرِ الليلِ أيضاً، **فجُعِلَ التَّسبيحُ نهايةَ الأعمالِ والصلواتِ**، واللهُ أعلم.

ومِن هنا أيضاً كانَ المنعُ مِنَ الصّلاةِ بعدَ الوِتْرِ؛ لأنّه قدْ خُتِمَ بـه عمـلُ الليلِ فلا صلاةَ إلا بعدَ الفَجرِ.

ـ الركعتانِ بعْدَ الوِتْر :

وأما ما وَرَدَ مِن صلاةِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ركعتَينِ خَفيفَتَيْنِ بعدَ الوِترِ، تارةً وهو جالسٌ وتارةً يقرأ فيهِما جالِساً، فإذا أرادَ أن يركَعَ قامَ فرَكَعَ، كما صحَّ من حَديثِ عائشةَ وأمِّ سلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وعن أبي أمامةَ أنه كـان يقـرأ فيهما بسورةِ الزلزلَةِ وسورةِ الكافرونَ، ونحوه من حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فلا تعارُضَ بين هذا وبينَ قولِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحـديثِ المتَّفـقِ عـلى صحَّتِهِ: «**اجْعَلُوا آخِرَ صلاتِكم بالليلِ وِتْراً**» كـما قـالَ ابـنُ القَـيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: (والصَّوابُ أنْ يُقالَ: إنَّ هاتَينِ الركعَتَينِ تَجرِيـانِ مجْـرَى السـنّةِ وتَكْمِيـلِ الوِتْرِ، فـإنَّ الـوِترَ عِبـادةٌ مسـتَقِلَّةٌ، ولا سِـيَّما إنْ قيـلَ بوُجوبِـه، فتَجـري الركعتانِ بعدَه مجرى سنَّةِ المغرِبِ منَ المغْربِ، فإنّها وِتْرُ النّهارِ، والركعتانَ بعدَها تَكميلٌ لها، فكذلِكَ الركعتانِ بعْدَ وتْرِ اللّيلِ، واللهُ أعلَم).

وقال في موْضعٍ آخرَ: (فإنَّ هاتَينِ الركعتَينِ لا تُنافيانِ هذا الأمْـرَ، كـما أنَّ المغرِبَ وترٌ للنّهارِ، وصلاةُ السنَّةِ شَفْعاً بَعدَها لا يُخرِجُهـا عـن كونِهـا وِتراً للنهارِ، وكذلِكَ الوتْرُ لما كانَ عبادةً مستَقِلَّةً، وهو وترُ اللّيـلِ، كانـتْ الركعتانِ بعدَه جارِيَتينِ مجرى سنَّةِ المغْربِ مِنَ المغْرِبِ، ولما كـان المغْـرِبُ

فَرْضاً كانتْ محافَظَتُه عليهِ السّلامُ على سُنَّتِها أكثرَ مِن محافَظَتِه على سنةِ الوِترِ، وهذا على أصْلِ مَن يقولُ بوُجوبِ الوِترِ ظَاهرٌ جداً.. وهي مسألةٌ شريفَةٌ لعَلَّكَ لا تراها في مصنَّفٍ، وبالله التوفيقُ).

٦- الطُّمأنينَةُ:

الطّمأنينةُ مِنَ السّكونِ والهدوءِ، والمرادُ هنا: الطمأنينةُ في الصّلاةِ في الرُّكوعِ والاعتِدالِ منه، وفي السّجودِ والجلوسِ بينَ السجدَتينِ.

والطمأنينةُ في هذهِ المواضِعِ ركْنٌ لا تَتِمُّ الصلاةُ ولا تصِحُّ إلا بِهِ. وهذا إجماعٌ من الصحابةِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وقد دلَّ عليه أحاديثُ كثيرةٌ منها:

ـ حديثُ حذيفةَ بنِ اليمانِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (**أنّه رأى رجُلاً لا يُتِمُّ ركوعَه ولا سجودَه فقالَ له: ما صَلَّيتَ، ولو مِتَّ متَّ على غيرِ الفِطرَةِ التي فَطَرَ اللهُ عليها محمَّداً** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وهو في البخاريِّ.

ـ أمْرُ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمُسيءِ في صلاتِه أنْ يُعيدَ الصلاةَ أكثرَ مِن مَرَّةٍ، ثم عَلَّمَهُ فكانَ مما قالَ له: «**ثم ارْكَعْ حتى تطمَئِنَّ راكِعاً..**»، وهو في الصحيحينِ.

ـ حديثُ أبي قتادةَ أنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**أسْوأُ الناسِ سَرِقَةً الذي يسرِقُ من صَلاتِه**»، **قيلَ: وكيفَ يسْرِقُ مِن صلاتِه؟ قال:** «**لا يُتِمُّ رُكوعَها ولا سجودَها**». وهو في مُسنَدِ أحمدَ وصحيحِ ابنِ خزيمةَ بسنَدٍ صحيحٍ.

ـ حديثُ أبي مَسعودٍ البدريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**لا تُجزِئُ صلاةٌ لا يُقيمُ الرجُلُ صُلبَه فيها في الركوعِ والسجودِ**». وهو

في البُخاريِّ.

والطمأنِينةُ هيَ سكونُ الجسَدِ عِندَ هذه الأركانِ مُدّةً يتمَكَّنُ فيها مِنْ فِعلِ الذِّكرِ الواجِبِ عليهِ.

والسرُّ فيها، واللهُ أعلمُ، أنَّ الركوعَ لا يكونُ تَعظيماً وكذلِكَ السجودُ إلا بأنْ يلبَثَ على تِلكَ الهيئَةِ زَمَاناً ويخضَعَ لربِّ العالمينَ مُسْتَشْعِراً هذا التّعظيمَ في قَلبِه في تِلكَ الحالَةِ فجُعِلَ ذلِكَ رُكناً لازِماً.

وكذلِكَ لَمّا كان القيامُ والسّجودُ بدونِ الطمأنينةِ طَيْشاً ولَعِباً مُنافياً للطاعَةِ أُمِرَ بالطمأنينةِ فيهما.

مع التّنبيهِ أنَّ الركوعَ والسّجودَ لا يكونُ إلا مع الطمأنِينةِ كما بَيَّنَ شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه قالَ ما مختَصَرُه: (إنَّ الركوعَ والسجودَ لا يكونانِ إلا إذا سَكَنَ حينَ انحِنائِه وحينَ وضْعِ وجهِه على الأرضِ، فأما مجرَّدُ الخفضِ والرفعِ عنه فلا يُسمّى ذلِكَ رُكوعاً ولا سُجوداً، ومَن سماه رُكوعاً وسُجوداً فقدْ غَلِطَ على اللُّغَةِ، فهو مُطالَبٌ بدليلٍ من اللّغةِ على أنَّ هذا يسمّى راكعاً وساجِداً حتى يكونَ فاعلُه ممتَثِلاً للأمرِ.. ثم يقالُ: لو وُجِدَ استعمالُ لفظِ (الركوعِ والسّجودِ) في لغةِ العربِ بمجَرَّدِ ملاقاةِ الوجهِ للأرضِ بلا طُمأنينةٍ لكانَ الْـمُعَفِّرُ خدَّه ساجِداً ولكانَ الرّاغِمُ أنفه ـ وهو الذي لَصَقَ أنفَه بالترابِ ـ ساجداً.. فيكونَ نقرُ الأرضِ بالأنفِ سُجوداً، ومعلومٌ أن هذا ليسَ مِن لغةِ القَومِ، كما أنه ليسَ من لغتِهم تَسمِيَةُ نَقْرَةِ الغرابِ ونحوِها سُجوداً..).

٧- أوقاتُ الصّلواتِ وعَدَدُ الرّكَعاتِ:

لّما كانَ العَدَدُ القليلُ لا يفيدُ فائـدةً مُعتَـداً بهـا، والكثـيرُ جِـداً يعسُـرُ إقامُتُه، اقتَضَـتْ حكمـةُ الله سـبحانه أن لا يشـرَعَ في الصـلاةِ أقـلَّ مـن ركعَتينِ، فالركعتانِ أقلُّ الصلاةِ.

وسنّةُ الله تعالى في خَلْقِ الأفرادِ والأشخاصِ مِن الحيـوانِ والنَّبـاتِ أنْ يكونَ هنالِكَ شِقّانِ يُضَمُّ كلُّ واحدٍ بالآخَرِ فيكونانِ شيئاً واحِداً، كـما دلَّ عليه قَسَمُ ربنا تعالى: ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ٣﴾ [الفجر: ٣].

فأصْلُ الصّلاةِ **ركْعَةٌ واحِدَةٌ** ضُمَّتْ إلى أخْتِهـا فكانـتْ ركعَتـانِ شـيئاً واحداً.

ولذلِكَ أولُّ ما فُرِضَتِ الصلاةُ كانت ركعتينِ ركعتَينِ كما قالتْ عائشـةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا وهو في الصحيحينِ وغيرِهما: «**فـرَضَ اللهُ الصـلاةَ حـينَ فَرضِـها رَكعتينِ ركعتينِ في الحضـرِ والسَّفَرِ، فأُقِرَّتْ صـلاةُ السَّـفَرِ وزِيـدَ في صـلاةِ الحضـرِ**» إلا المغربَ فكانتْ ثلاثاً لكونِها آخرَ الصلوات مِـن وجـهٍ، وهـيَ وِترُ النهارِ مِن وجهٍ آخرَ، فإنَّ العَرَبَ يَعُدّونَ اللياليَ قبلَ الأيام، **ولا بدَّ مـن خَتمِ الصلاةِ بوترٍ يكونُ كالختمِ لها؛ لأنَّ الملـوكَ لا تقبَـلُ كتابـاً إلا مَختُومـاً، وكذلِكَ الأعمالُ لا تُقبَلُ عندَ الله إلا بختْمِها**، فجَعَلَ الله تعالى لها خَاتَمـاً هـو عددٌ مبارَكٌ يدلُّ على وَحدانِيَّتِه سبحانه وتعالى، وهو الـوِترُ الـذي يحبُّـه جـلَّ وعلا لدَلالَتِه على أنه سبحانَه هو الوتْرُ. وقد سبَقَ بيانُ هذا بفَضلِ الله تعالى.

فالأصلُ في عدَدِ الرَّكعاتِ الواجِبَـةِ في اليـومِ والليلـةِ إحـدى عشـرةَ ركعةً لا يسقُطُ منها شـيءٌ بحالٍ، وهو عـددٌ متوَسِّـطٌ لـيسَ كَثيراً جِداً

فيعسُـرُ إقامتُه على الجميعِ، ولا قَليلاً جـداً فـلا يحقِّـقُ لهـم مـا أُريـدَ مِـنَ الصلاةِ، فاقتَضَتْ حِكمةُ الله تعالى هـذا العـددَ المبـارَكَ الـذي هـو أشـبَهُ الأعدادِ بالوِترِ الحقيقيِّ، ولذلِكَ كان يُصلّي به نبيُّنا صَلَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالليلِ.

ثم لما استَقَرَّ الإسـلامُ بعـدَ الهجـرةِ، وكثُـرَ أهلُـه، وزادَتْ الرغبـةُ في الخيراتِ والطاعاتِ، زِيدَتْ ستَّ ركعـاتٍ، وأبقِيَـتْ صـلاةُ السَّـفَرِ عـلى النَّمَطِ الأوَّلِ، وذلِكَ أن الزيـادةَ لا ينبغـي أن تَصِـلَ إلى مِثـلِ الشـيءِ أو أكثَرِه، وكان المناسِبُ أن تُجعَلَ نِصفَ الأصـلِ لكـنْ لـيسَ لأحـدَ عشـرَ نصف بغيرِ كسْـرٍ، فتَحصَّلَ عدَدانِ خمسةٌ وستةٌ، فإنْ زِيدتْ الخَمْسةُ صارَ العددُ شَفعاً غير وترٍ، فتَعَيَّنَتِ الستَّةُ، والله أعلم.

وأما تقْسيمُها على الأوقاتِ، فالصّلاةُ مِنْ أعظَمِ المحطّاتِ الإيمانيـةِ التـي يتزوَّدُ العبدُ فيها بالتَّقوى الموصِلةِ له إلى رضوانِ الله تعالى، وقد قالَ سبحانه: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقـرة: ١٩٧]، وقـال صَلَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والصّلاةُ خَيْرُ مَوضوعٍ فمُستَقِلٌّ أو مُستكثِرٌ**»، وهوَ عنـدَ أحمـد وابـنِ حبـانٍ والطيالسـيِّ والطبرانيِّ في الأوسطِ وغيرِهم بسندٍ صحيحٍ.

بالإضافةِ إلى ما فيها من مَغفَرةِ الذّنوبِ وصَقلِ القلوبِ مما يكونُ عَلِقَ بهـا مـن الـرانِ والسـوادِ عنـدَ انْشـغالِها بالـدُّنيا ومَعاشِـها، كـما قـالَ صَلَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والصّلاةُ إلى الصّلاةِ كفّارةٌ لِمَا بينَهـا إذا اجتُنِبَـتِ الكبـائرُ**»، وهو عندَ مسلمٍ وغيرِه.

ولما كانَتِ الفَجْرُ أوّلَ الصلواتِ، والعبدُ فيها في بدايَةِ العَمَلِ لم تَعمَـلِ

الدنيا في قَلبِهِ بعدُ، كانتِ الركعتانِ فيها كافيتينِ عنِ الكثرَةِ، وشُــرِعَ فيهــا الإطالةُ في القراءةِ كما سَبَقَ معنا لتَكثُرَ بذلِكَ المناجاةُ لله تعالى بكلامِه، مـعْ ما فيها مِنَ الشُّهودِ الذي أخبرَ عنه ربُّنـا تعـالى بقولـه: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسـراء : ٧٨] ، أي: يَشْهَدُه اللهُ تعالى وملائِكتُه.

فكانتْ هاتانِ الركعتانِ مُزوِّدَتَيْنِ للعَبدِ بزادٍ عظيمٍ من التّقـوى ينطَلِـقُ به في هذه الدنيا مُسافِراً إلى ربِّه سبحانه وتعالى.

فإذا كان وقْتُ الظّهرِ، شُـرِعَ له أنْ يترُكَ أعمالَـه ودُنيـاه ليَرجِـعَ إلى تـذَكُّرِ آخرتِه ومولاهُ، فشُـرِعَتْ له صلاةُ الظهرِ أربَعَ رَكعـاتٍ، يتطَهَّـرُ بهـا ممـا قـدْ يكونُ عَلقَ بقَلبِه في تلكَ الفترةِ من سوادِ الغَفلَةِ والمعاصـي والآثامِ، ويتـزوَّدُ بزادٍ جديدٍ من التَّقوى لينطَلِقَ في سَـفَرِهِ مِـن جَديـدٍ، فكانـتْ هـذه الصـلاةُ وكأنَّ ركعتينِ منها لتَطهيرِ العَبدِ وركَعتينِ للتزوُّدِ بالتَّقوى والإيـمانِ. وهكـذا إذا كانَ العصـرُ يفعلُ ما فَعَـلَ عنـدَ الظهـرِ مـن التطهُّـرِ والتـزوُّدِ. وكـذلك المغربُ، ولكنْ لما كان وقتُ الصلاةِ القادِمَةِ عن قَريبٍ، والاشـتغالُ بالـدنيا في وقتِه قليلٌ، كانت الثلاثُ كافيةً في ذلِكَ للتزوُّدِ والتطهيرِ.

مع كونِ صلاةِ المغربِ هي خاتمةُ صلواتِ النّهـارِ فجُعِلَـتْ وِتْـراً كـما سبقَ بيانه.

وأما العِشاءُ فإنها صلاةُ العَتمةِ وهُدوءِ الأعصابِ بعدَ التَّعـبِ والمشـاقِّ، وهي التي يَعقُبُها النومُ والراحةُ من التعبِ والأثقـالِ، وبينَهـا وبـينَ الصـلاةِ التي تَليها وقتٌ طويلٌ، فكانتِ الأربعُ فيها مناسِبةً لما ذكرنا من التطهيرِ قبـلَ المنامِ الذي هو كالمماتِ، مع ما فيها من التزودِ بـالخيراتِ لموتِـه أو ليقَظَتِـه إنْ

مَنَّ عليه بذلِكَ ربُّه الرحيمُ الرحمنُ، فكانت كفارةً لما مضى وصقلاً للصدأ الذي يكونُ على القلوبِ، وهو ما أشارَ إليه حديثُ نبيِّنا الرسولِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ صلّى العشاءَ في جماعةٍ فكأنّما قامَ نصفَ الليلِ، ومَن صلّى الفجرَ في جماعةٍ فكأنما قامَ الليلَ كلَّه**»، وهو في صَحيحِ مسلمٍ.

واللهُ أعلمُ بحِكَمِهِ وأسرارِ أوامِره وشرائِعِه سبحانه وتعالى.

ومن وجهٍ آخرَ، فإنَّ التّحَقُّقَ بثَمراتِ هذه الصلاةِ منَ التّعظيمِ وارتِباطِ القلبِ واتِّصالِه بربِّه الرحمنِ، لا يكونُ إلا بالمداوَمَةِ على هذه الصلاةِ وملازَمَتِها باللّيلِ والنهارِ. ولّما كانَ في هذا مِنَ المَشَقَّةِ ما هو معلومٌ، **كان مِنَ الحِكْمَةِ أنْ يُؤمَروا بالمحافَظَةِ عليها بعدَ كلِّ برهَةٍ من الزمانِ**، وأنْ ينتظروها ويتهيَّئوا لها في كلِّ وقتٍ وآنٍ، **ليكونَ ذلكَ لهم كأنهم في حُكْمِ الصلاةِ**، وتكونَ أوقاتُ الغفلةِ مغمورةً في وسَطِ هذا الإحسانِ.

ولّما كان لا بدَّ من تَعيينِ أوقاتٍ معلومةٍ للجَميعِ وتتناسَبُ مع أنواعِ المكلَّفينَ، لم يكنْ أحقُّ بها من الساعاتِ التي تنتَشِر فيها الرَّحمةُ وتتَنَزَّلُ فيها الملائكَةُ، وتُعرَضُ فيها على الله تعالى أعمالُ العبادِ، وهي أولُ النهارِ ووِسَطُه وأولُ الليلِ ووسطُه، فكانتِ الصلاةُ في هذهِ الأوقاتِ كما قال ربُّنا ذو الجلالِ والإكرامِ: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٨]، فأمَرَ بالصلاةِ عندَ دلوكِ الشمسِ؛ وهو **وقْتُ الظّهْرِ وانتِصافُ النّهارِ**، وكذلِكَ **غَسَقُ اللّيلِ؛ وهو ممتَدٌّ من المغرِبِ إلى نِصْفِ اللَّيلِ**، وعندَ الفجرِ وهو **بدايَةُ ظهورِ النَّهارِ**.

ولمْ يأمُرْ بالصلاةِ وجُوباً عندَ منتصَفِ الليلِ لما في ذلِكَ مِنَ المشقَّةِ على

العبادِ بعدَ تَعَبِ النهارِ والمعاشِ، فرخَّصَ لهم في تقديم هذا الوقتِ إلى أوَّلِ أوقاتِ اشْتدادِ الظلامِ، كما بَيَّن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقولِه لَمّا تأخَّرَ يوماً على الأصحابِ في صَلاةِ العِشاءِ، وخرجَ إليهم بعدَ ذهابِ ثلثِ الليلِ فقالَ لهم: «**إنّه لَوَقْتُها لولا أنْ أشقَّ على أمّتي**»، وهو في صَحيحِ مسلمٍ.

ولأجلِ عَدَمِ فَواتِ الخيرِ على المتفَرِّغِ والحريصِ، شرعَ لهم الصلاةَ في جوفِ الليلِ على ما يتيَسَّرُ لهم من غَيرِ فرضٍ وإيجابٍ إلا ما كانَ في حقِّ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وكانَ أفضلُ أوقاتِ القيامِ إذا مَضى نصفُ الليلِ وبدأ النصفُ الثاني لما ذَكَرْنا**، واللهُ أعلَمُ.

وأما صلاةُ العَصْرِ فلها معنىً خاصٌّ بهذه الأمَّةِ دونَ سواها، ولذلِكَ كانتْ **هذه الأمَّةُ أمةَ العصرِ مِنْ بينِ الأمَمِ**؛ فإنّه الوقتُ الذي وُجِدَتْ فيه الأمةُ **ضِمنَ يومِ الدّنيا الطويلِ** كما بَيَّنَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حَديثِ عَمَلِ الأمَمِ المشهورِ، وفيه أنَّ اليَهودَ عَمِلُوا من طُلوعِ الشمسِ إلى الظهرِ، وأنَّ النَّصارى عَمِلوا منَ الظّهرِ إلى العَصرِ، **وأنَّ هذه الأمَّةَ تعْمَلُ من العَصْرِ إلى غُروبِ الشمسِ**، وهو غروبُ شمسِ هذه الدّنيا الذي يكونُ به انتهاؤها وقيامُ ساعَتِها، فكانَ من أعظَمِ المناسَبَةِ وتمامِ المصلحةِ أن يُفرَضَ علينا الصلاةُ في الوقتِ الخاصِّ بنا، لِنُدَلِّلَ بهذه الصلاةِ وفي هذا الوقتِ على أنَّ حياتَنا كلَّها صلاةٌ واتصالٌ بالله وتَعظيمٌ لله تَعالى، ولهذا كانَ: «**مَنْ تَرَكَ صلاةَ العَصرِ فقَدْ حَبَطَ عملُه**»، وهو في صَحيحِ البُخاريِّ. واللهُ أعلمُ.

ومِن هنا نفْهَمُ لماذا كان الجمْعُ بينَ الصلواتِ عندَ الأعْذارِ إنما يكونُ بينَ صلاةِ الظهرِ والعصرِ من ناحيةٍ، وبينَ المغرِبِ والعِشاءِ من ناحيةِ

ثانيةٍ، فإنه بذلِكَ ترجِعُ الصلواتُ إلى أوقاتِها الأصْلِيَّةِ الثلاثِ التي لا ينبغي فيها الغفلةُ عن الصلاةِ، والله أعلمُ بالصوابِ.

٨ - تَقْسيمُ أوقاتِ الصَّلواتِ إلى أصلٍ وجوازٍ واضطرارٍ:

لَمّا كانَ التكليفُ بأنْ يُصَلِيَ جميعُ الناسِ في ساعةٍ واحِدَةٍ بِعَينِها فيهِ مِنَ الحرَجِ ما فيه، وسَّعَ اللهُ سبحانَه في الأوقاتِ بعضَ التَّوسِعَةِ رحمةً منه سبحانه بالعبادِ.

وكانَ أولُّ الوقْتِ هو أفضلَ الأوقاتِ؛ لأنّه المتناسِبُ معَ الحكمَةِ، مع ما فيه من المبادَرَةِ إلى فعلِ الخيراتِ، إلا العشاءَ فإنَّ المستحَبَّ تأخيرُها لما ذكَرْنا قبلَ هذا من أنَّ التأخيرَ هو وقتُها الأصليُّ، وإنما قُدِّمَتْ لرَفْعِ الحرَجِ والمشقَّةِ.

وكان وقتُ الجوازِ والاخْتيارِ هو ما بينَ الوقتينِ الذَيْن صلّى بهما جبريلُ عليه السلامُ بنبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **لكلِّ صلاةٍ**؛ فإنّه صلّى به الظهرَ حينَ زالَتِ الشمسُ عن كَبِدِ السماءِ، ثم صلّى به العصرَ لما صارَ ظلُّ كلِّ شيءٍ مثلَه، ثم صلّى به المغربَ عند غروبِ الشمسِ، ثم صلّى به العشاءَ لما غابَ الشَّفَقُ الأحمرُ، وصلّى به الفجرَ لما ظهَرَ الفجرُ الصادقُ. ثم في اليومِ التالي صلّى به الظهرَ لما صارَ ظلُّ الشيءِ مثلَه، وصلى به العصرَ لما صارَ ظلُّ الشيءِ مثلَيْهِ، وصلّى به المغرِبَ عندَ غروبِ الشمسِ، وصلّى به العِشاءَ لما مضى ثلثُ الليلِ، وصلى به الفجرَ لما أسفَرَ النهارُ، وقالَ له: «**ما بينَ هذينِ وقتٌ**»، وهو في سنَنِ أبي داودَ والترمذيِّ والنسائيِّ وفي مسندِ أحمد بسندٍ صحيحٍ.

وأما وقْتُ الضَّرورةِ فهو ما لا يجوزُ التأخيرُ إليه إلا بعذْرٍ، وهو تأخِيرُ

العصْـر إلى اصْفِرارِ الشّمسِ، وتأخيرُ الفَجْـرِ إلى قُـربِ طُلـوعِ الشـمسِ، وقد ورَدَ التَّحذيرُ من ذلِكَ وأخـبرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ «**تلـكَ صَـلاةُ المنـافِقِ يرقُبُ الشّمسَ حتى إذا اصفَرَّتْ وكانتْ بينَ قـرني الشـيطانِ قـامَ فنَقَرَهـا أربَعاً لا يذكرُ اللهَ فيها إلا قليلاً**»، وهو عندَ مُسلمٍ وغيرِه.

ودلَّ على الجوازِ للضّـرورةِ حديثُ: «**مَنْ أدرَكَ ركعةً من العَصْـر قبْـلَ أنْ تغربَ الشمسُ فقد أدْرَكَ العَصْـر، ومَنْ أدْرَكَ ركْعَةً مِنَ الصّبحِ قبْلَ أنْ تطلُعَ الشّمسُ فقد أدركَ الصّبحَ**»، وهو متّفَقٌ عليه.

مع التّنبيهِ هنا إلى أن الشـرعَ قد رخَّصَ للمصلّي **بإبرادِ الظّهـرِ في شِـدّةِ الحرِّ** كما في الصحيحينِ وغيرِهما، والحكمةُ في هـذه الرخصـةِ: **أن الصـلاةَ في شدةِ الحرِّ تمْنَعُ صاحِبَها من الخشوعِ والحضورِ، ويفعـلُ العبـادةَ بتكـرُّهٍ وضجرٍ**، فمن حِكمةِ الشارعِ أنْ أمَـرَهم بتأخيرِهـا حتـى ينكَسِـرَ الحـرُّ، فيصلي العبدُ بقلْبٍ حاضـرٍ، ويحصلُ لـه مقصـودُ الصـلاةِ مـن الخشـوعِ والإقبالِ على الله سبحانه وتعالى، ولكن لا ينبغي أن يُبرِدَ المصلي إلى فواتِ الوقتِ أو مقاربةِ خروجِه فيكونُ بذلكَ مترخِّصاً جافياً.

٩- الهيئاتُ المكروهةُ في الصّلاةِ:

اعلَمْ أخي، أنَّ مِنْ تَمامِ الصلاةِ ومـا يُعـينُ عـلى تحقيـقِ الخشـوعِ فيهـا وتكميلِ التعظيمِ لربِّ العالمينَ جلَّ وعلا بأدائِها، أنْ يلتزِمَ المصلي بهيئاتِهـا المسنونَةِ المشـروعَةِ، وأن يجتَنِبَ الهيْئاتِ المذْمومَةَ المكروهةَ.

وذلكَ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدْ علَّمَنـا **أكْمَـلَ الهيئـاتِ المتوافقـةِ مـع معاني الصلاةِ**، مِنْ تَحقيقِ الخضوعِ وضـمِّ الأطـرافِ، والتنبيـهِ عـلى مِثْلِ

الحالَةِ التي تعتَرِي عامةَ الناسِ عندَ مناجاةِ الملوكِ من الهيبَةِ والدَّهشةِ، كصَفِّ القدَمَيْنِ ووضعِ اليُمنى على اليُسرى وقصرِ النظرِ إلى موضعِ السجودِ وتَركِ الالْتِفاتِ.

وكذلِكَ **ما يؤدّي إلى توافُقِ القَولِ معَ الفِعْلِ،** حتى تُحاكِيَ الجوارِحُ اللّسانَ بالذّكرِ، من رفعِ اليدينِ والإشارةِ بالمسبِّحَةِ، كما سبق التنبيهُ عليه.

وكذلكَ **ما يُساعِدُ على أنْ تَكونَ الطاعةُ بطمأنينةٍ وسكونٍ،** وما يساعِدُ على الخشوعِ كجِلسَةِ الاستراحَةِ ونصبِ اليُمنى وافتراشِ اليُسرى في الجِلسَةِ الأولى لأنّه أيسرُ لقيامِه، والتّوَرّكِ في الثانيةِ لأنه أكثرُ راحةً.

وقد ورَدَ النّهيُ عن هيئاتٍ مكروهةٍ تُخِلُّ بالمقصودِ من الصلاةِ، **لما فيها مِن مناقَضَةِ الوقارِ ومحاسِنِ العاداتِ، وما يَذُمُّه أهلُ الرأيِ والنُّهَى لما فيه من الطَّيْشِ واللَّعِبِ.**

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (جاءتِ الشريعةُ بالمنْعِ منَ التّشبُّهِ بالكفّارِ والحيواناتِ والشياطينِ والنساءِ والأعرابِ وكلِّ ناقصٍ، حتى نُهِيَ عن التّشَبُّهِ بشِبْهِ أنواعٍ من الحيَوانِ يفعَلُها أو كثيراً منها الجهالُ).

وهذهِ الهيْئاتُ هيَ:

١ـ **نَقْرُ الدّيكِ:** وهو تَعبيرٌ عنِ السُّرعَةِ في السّجدةِ وعَدَمِ الطمأنينةِ فيها، وهو **مخالِفٌ لِمَا هو مطلوبٌ منَ التَّعظيمِ والخشوعِ، مَع ما فيه من التَّشبُّهِ بأهلِ اللَّعِبِ واللّهوِ والطَّيْشِ.**

٢ـ **إقْعاءُ الكَلبِ:** وهو أن يَضَعَ إلْيَتَه على الأرضِ وينْصِبَ رُكبَتَيْه

كهَيئةِ جلوسِ الكَلبِ المعلومَةِ، **وواضحٌ ما فيها من الذمِّ وقِلَّةِ الأدَبِ** بينَ يَدَي الله تعالى.

٣ـ **احْتِفازُ الثّعلَبِ**: وهو ضمُّ الثعلَبِ لنَفسِهِ إذا جَلَسَ والتِفافُه، **وهو مُخِلٌّ بالتّعظيمِ المطلوبِ من الجوارِحِ لله تعالى.**

٤ـ **بُروكُ البَعيرِ**: وهو أنْ ينزِلَ إلى سجودِهِ كما ينزِلُ البعيرُ. واختَلَفَ أهلُ العِلمِ في ذلِكَ؛ فمنهم من قالَ: **هوَ النزولُ على الرُّكبَتَيْنِ** بأنْ يَضَعَ ركبتَيهِ على الأرضِ قبلَ يدَيْهِ، ومنهم من قالَ: **هوَ النّزولُ على اليدَيْنِ** بأنْ يضَعَهُما على الأرضِ قبلَ الرُّكبَتَيْنِ.

والذي يظهَرُ لي، واللهُ أعلمُ، أنّه **التّشبُّهُ بِهَيْئَةِ البَعيرِ في وَضعِ اليَدينِ على الأرضِ معَ ارتِفاعِ الظَّهرِ والمؤخِّرَةِ**، ولا يضـرُّه النزولُ على اليَدَيْنِ أو الركبَتَينِ إذا اجتَنَبَ هذه الهيئةَ جَمعاً بينَ الأقوالِ، واللهُ أعلمُ.

وقد سبقَ التنبيهُ في الوقفةِ الثالثةِ والعِشـرينَ على أنَّ بروكَ البَعيرِ هو النزولُ شيئاً فشيئاً، وأنَّ السجودَ ينبغي أن يكونَ دفعةً واحدةً كحالِ مَنْ يسقُطُ، ولهذا عُبِّرَ عنه بالخرورِ، فمَنْ نزلَ بقُوّةٍ وشِدّةٍ، دفعةً واحدةً ولم ينزلْ شيئاً فشيئاً فقد خالفَ بروكَ البعيرِ، سواءٌ نزلَ على يديْه أم على ركبَتَيه، وبهذا نجمعُ بينَ أقوالِ أهلِ العِلْمِ، وما وردَ عن السَّلَفِ في ذلك، ولا نحتاجُ لأن نردَّ قولاً من أقوالِهم، واللهُ أعلمُ.

٥ـ **افْتراشُ السَّبُعِ**: وهو بسطُ اليدينِ على الأرضِ بحيثُ تُلامِسُ الذراعانِ الأرضَ كما يجلِسُ الكلبُ أو السَّبُعُ، وقد جاءَ النَّهيُ عن ذلكَ في السنةِ كما في صَحيحِ البخاريِّ عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: «**اعتَدِلوا**

في السُّجودِ ولا يبسُطُ أحدُكم ذِراعَيْهِ انبِساطَ الكلبِ»، وهو متفق عليه.

فينبغي على السّاجِدِ أن يَضَعَ كَفَّيهِ على الأرضِ، وأنْ يرْفَعَ مِرفَقَيْهِ عن الأرضِ وعن جَنبَيْهِ رَفْعاً بَليغاً، بحيثُ يظهَرُ باطِنُ إبْطَيْهِ لو لمْ يَكُنْ مَستوراً، مع رفْعِ بَطنِهِ عن فَخِذَيْهِ ولا يضمُّ نفسَه ضَماً، **سواءٌ كانَ ذَكَراً أم أنثى**، فإنه لم يأتِ التّفريقُ بين الذكرِ والأنْثى في شيءٍ من ذلِكَ بدَليلٍ صحيحٍ، كما ذهبَ إليه بعضُ أهلِ العلمِ.

قالَ النوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**قالَ العُلماءُ: والحِكْمَةُ في هذا أنه أشْبَهُ بالتواضِعِ وأبلغُ في تمكينِ الجبهَةِ والأنفِ من الأرضِ، وأبعدُ مِن هَيئاتِ الكُسالى، فإنَّ المنبَسِطَ كَشَبَهِ الكَلبِ، ويُشعِرُ حالُه بالتَّهاوُنِ بالصلاةِ وقلةِ الاعتِناءِ بها والإقبالِ عليها**).

٦ـ **الاختِصارُ في الصلاةِ**: وهو وضعُ اليَدِ على الخاصِرَةِ، **وهو دَليلٌ على الحيرَةِ والاندِهاشِ**، وقد جاءَ التَّعليلُ بأنه راحةٌ لأهلِ النَّارِ كما وردَ في صَحيحِ ابنِ خُزيمةَ وابنِ حِبّانَ والبيهقيِّ وغيرِهما، **وقيلَ: لأنّه مِن فِعْلِ اليَهودِ**، ولا تَنافي في ذلِكَ؛ فإنَّ كلَّ هذا مما **يخالِفُ الخضوعَ والطمأنينةَ** بينَ يَدَيِ الله تعالى، وقيلَ غيرُ ذلِكَ، كما ذكرَ ابنُ حَجَرَ في الفَتحِ.

٧ـ **الالْتِفاتُ في الصّلاةِ**: وهذا أمرٌ قَدِ انتَشَرَ بشَكلٍ واسِعٍ عندَ عامَّةِ المصلّينَ، نسألُ اللهَ العافيةَ، وهو **دَليلٌ على نقصِ الخشوعِ وقلَّةِ الخضوعِ وعَدَمِ اسْتِحضارِ القَلبِ بينَ يَدَيْ الله تعالى**.

وقد جاءَ التَّعليلُ في السنَّةِ بأنه «**اخْتِلاسٌ يختَلِسُه الشّيطانُ مِن صَلاةِ العبدِ**»، وهو في البخاري وغيره، وهذا يدُلُّ على أنه يُنقِصُ الصلاةَ

وينافي كمالَها.

٨ ـ **مسُّ الحصى واللّعِبُ باليَدِ أو غيرِها**: ثبتَ النهيُ عن مسِّ الحصى في الصلاةِ؛ لما في ذلِكَ مِنَ **اللَّغوِ واللَّهوِ وانْشغالِ القَلبِ بغيرِ الذِّكرِ واسْتحضارِ عَظَمَةِ الله تعالى**، وقد قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ لغا فلا جمعةَ له، ومَنْ مسَّ الحصى فقد لغا**»، وهو عندَ مسلمٍ وغيرِه، فجَعَلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَسَّ الحصى مِنَ اللَّغْوِ الْـمُخِلِّ بكَمالِ الصلاةِ، فإنْ كانَ لا بدَّ مِن ذلِكَ لأذىً يُصيبُه مِنَ الحصى أو ما شابَهَ، فيرَخَّصُ له بواحدةٍ كما قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للرّجلِ الذي رآهُ يسَوّي الترابَ حينَ يسجدُ: «**إنْ كنْتَ فاعِلاً فواحِدةٌ**» وهو متّفَق عليه.

والقاعِدةُ في كلِّ ما سَبقَ :

أنَّ مَبْنى الصلاةِ على أمورٍ ثَلاثةٍ: خُشوعُ الأطرافِ، وخُضوعُ القَلبِ، وكفُّ اللسانِ إلا عَنْ ذكرِ الله تعالى.

فكلُّ هيئةٍ تُخالِفُ الخشوعَ، وكلُّ كَلمةٍ ليسَتْ مِنَ الذكرِ، فإنَّه مما يخالفُ كمالَ الصلاةِ وينبغي تجنُّبُه. ولكنْ هذه الأشياءُ منها ما يُبطِلُ الصلاةَ بالكلِّيَّةِ ومنها ما يُنقِصُها.

وقد قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في صحيحِ مسلمٍ وغيرِه: «**إنَّ هذه الصلاةَ لا يصْلُحُ فيها شيءٌ من كلامِ الناسِ، إنما هيَ التَّسبيحُ والتكبيرُ وقراءةُ القرآنِ**»، ولهذا جاءَ النهيُ عما سَبَقَ مِنَ الهيئاتِ لمخالَفَتِها هذه الأصولَ التي بُنِيَتْ عليها الصلاةُ.

وكذلِكَ **جاءَ النهيُ عنِ التَّثاؤبِ في الصّلاةِ**، وأُمِرَ المتثائِبُ أنْ يَكْظِمَ ما

استَطاعَ؛ لأنَّ التثاؤبَ مِنَ الشّيطانِ، والشّيطانُ يَدْخُلُ في فَمِ العَبدِ إذا تثاءَبَ.

ويُرَخَّصُ في الأفعالِ التي يحتاجُ المصلّي إلى فِعْلِها في الصلاةِ، أو التي تَكونُ مِن غَيرِ قَصدٍ منه، مثلُ **حَمْلِ الصبيِّ على العاتِقِ، وغَمْزِ الرِّجْلِ ليسْجُدَ إذا ضاقَ المكانُ، وفتحِ البابِ إذا احتاجَ إليه، والمشي اليَسيرِ للحاجةِ؛ كالنزولِ من المنبرِ أو سدِّ فرجةٍ، وكذلِكَ التأخرِ إلى الصفِّ وقَتلِ الحيةِ والعَقرَبِ وما شابَهَ مما وَرَدَ في السنَّةِ**، واللهُ أعلم.

١٠- صلاةُ السّننِ في البيتِ:

صلاةُ السنَنِ مِنَ الرواتِبِ وغيرِها ـ سِوى ما تُشرَعُ له الجماعةُ ـ في البيتِ أفْضَلُ، خاصةً سنةُ المغربِ والفَجْرِ والعِشاءِ كما وردَ في حَديثِ ابنِ عمرَ المتقدِّمِ في وقفَةِ صَلاةِ التطوُّعِ.

قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكانَ يصلّي عامَّةَ السنَنِ والتّطوعِ الذي لا سَبَبَ له في بيتِه، لا سيَّما سنةُ المغربِ، فإنه لم يُنقَلْ عنه أنه فَعَلَها في المسجِدِ ألبتَّةَ..).

والسِّرُّ في هذا واللهُ أعلمُ: أنْ يقَعَ الفَصْلُ بينَ الفَرضِ والنَّفلِ بما ليسَ مِنْ جِنسِهما، ولا بدَّ أن يكونَ هذا الفصلُ واضِحاً لكلِّ أحدٍ.

مع ما في ذلِكَ مِنْ **برَكَةٍ للبيوتِ** بالصلاةِ فيها وإخراجِ الشيطانِ منها، كما صحَّ عن النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنّه قالَ: «**اجعلُوا مِن صلاتِكم في بيوتِكم ولا تجعلوها قُبوراً**» وهو في الصحيحينِ، وأخبرَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنَّ البَيْتَ الذي تُقرأ فيه البَقَرةُ لا يقْرَبُه شيطانٌ كما في صحيحِ مُسْلِمٍ وغيرِه.

وفيه فائدةٌ أخرى أيضاً وهي: أنَّ ذلِكَ **أبْعَدُ عـنِ الرِّيـاءِ** وفيـه تَعويـدٌ للنفسِ على الإخلاصِ، واللهُ أعلمُ.

١١- تَسوِيـَةُ الصّفوفِ:

أمرّ النبيُّ ﷺ بتَسْوِيَةِ الصّفوفِ عندَ الصلاةِ ورغَّبَ في ذلِـكَ فقالَ: «**ألا تَصُفّونَ كما تصفُّ الملائكةُ عندَ ربها**»؟ قـالوا: **يـا رَسـولَ الله! كيفَ تصفُّ الملائكةُ عندَ ربها؟** قالَ: «**يُتِمّون الصفوفَ الأُوَلَ، ويتراصُّونَ في الصفِّ**». رواه مسلمٌ.

وفي صَحيحِ مسْلِمٍ أيضاً من حـديثِ أبي مسـعودٍ رضي الله عنه قـالَ: كـانَ رسولُ الله ﷺ يمْسَحُ مَناكِبَنا في الصـلاةِ ويقـولُ: «**اسْـتَوُوا ولا تختَلِفوا فتختَلِفَ قلوبُكم، لِيَلِيَني منكم أولوا الأحلامِ والنُّهـى ثـم الـذينَ يلونهم ثم الذينَ يلونهم**».

وفي سننِ أبي داودَ وصَحيحِ ابـنِ خزيمـةَ وغيرِهمـا مِـن حـديثِ ابـنِ عمرَ رضي الله عنهما، أنّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «**أقيموا الصّفوفَ وحاذُوا بينَ المناكِبِ، وسُدّوا الخلَلَ، ولا تذَروا فرجـاتٍ للشّـيطانِ، ومَـن وَصَـلَ صَفّاً وصَلَه اللهُ، ومَن قَطَعَ صفاً قطعَهُ اللهُ**».

وفي صَحيحِ البخاريِّ مِن حديثِ أنسٍ رضي الله عنه عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «**أقيموا صُفوفَكم، فإني أراكُم مِن وراءِ ظَهري**». قالَ أنسٌ: (**وكـانَ أحَدُنا يُلْزِقُ مَنْكِبَه بمَنْكِبِ صاحِبِهِ، وقَدَمَه بقَدَمِـه**) وفي روايـةٍ صـحيحةٍ عن أنسٍ: (**لقد رأيتُ أحدَنا يُلزِقُ مَنْكِبَه بِمَنْكِبِ صاحبِه، وقَدَمَه بقَدَمِـه، ولو ذهَبْتَ تفْعَلُ ذلِكَ اليومَ لتَرى أحَدَهم كأنه بَغْلٌ شموسٌ**).

وفي سننِ أبي داودَ وصَحيحِ ابن حبانٍ ومسندِ أحمدَ عن النعمانِ بنِ بشيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: **أقبَلَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الناسِ بوجْهِه، فقالَ: «أقيموا الصفوفَ** (ثلاثاً) **والله لتقيمَنَّ صفوفَكم أو ليُخالِفَنَّ اللهُ بينَ قلوبِكم»**، قالَ النّعمانُ: (**فرأيتُ الرجلَ يُلصِقُ مَنكِبَه بمَنْكِبِ صاحِبِه، وركبَتَه بركْبَةِ صاحِبِه، وكَعْبَه بكَعْبِه**).

تضَمّنَّتْ هذه الأحاديثُ فوائدَ وأحكاماً كثيرةً، منها:

١ـ **وجوبُ إقامَةِ الصفوفِ وتَسوِيَتِها والتّراصِّ فيها**، لوُرودِ الأمرِ بذلِكَ مع التأكيدِ عليه بما يدُلُّ على وجوبِه صَراحةً، وهو التهديدُ بمخالَفَةِ القُلوبِ لمن لا يفعَلُ ذلِكَ.

٢ـ **التَّسوِيَةُ المطلوبَةُ لا تتحقَّقُ إلا بلَصْقِ المنْكِبِ بالمَنْكِبِ والقَدَمِ بالقدَمِ**؛ لأنَّ هذا هو الذي فَعَلَه الصحابةُ حِين أُمِروا بإقامَةِ الصفوفِ.

وهذه السنَّةُ قد أضاعَها المسلمونَ إلا قلةً منهم مِمَّن يحرِصُ على التمسُّكِ بالسنَّةِ، جعَلَنا اللهُ منهم، بل صارَتْ بِدْعَةً مُنكَرَةً عندَ الكثيرِ بحيثُ لو أرَدْتَ أن تفعَلَ هذه السنةَ معه فذَهبْتَ تُلزِقُ كتِفَكَ بكتِفِه وقدَمَكَ بقدَمِه لهَرَبَ منكَ ولأنكَرَ عليكَ كما رأيناه واللهُ المستعانَ. وهذا ما نَبَّه عليه أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقولِه: (**ولو ذَهَبْتَ تفْعَلُ ذلِكَ اليومَ لترى أحدَهم كأنّه بَغْلٌ شَموسٌ**)، فإذا كانَ هذا في زمانِه فما بالُكَ في هذا الزمانِ؟ واللهُ المستعانُ.

٣ـ **بَيانُ ما يحدُثُ من الشرِّ في تَركِ هذه السنَّةِ وهو أمورٌ:**

أ ـ **مخالَفَةُ الأمْرِ الشرعيِّ.**

ب ـ **استِغْلالُ الشّيطانِ هذه الفُرَجَ للدُّخولِ بينَ المصلّينَ** وما يتبَعُ ذلِكَ مِنَ الوسَوَسَةِ والتّسلُّطِ على قلوبهم.

ج ـ **تضارُبُ القلوبِ وكَثرةُ الخلافِ بينَ المسلمينَ**؛ وذلِكَ للتّرابُطِ الوَثيقِ بينَ الظاهِرِ والباطِنِ، **فقدْ تقرَّرَ في سنَنِ الله تعالى أنَّ فسادَ الظاهِرِ يؤثِّرُ في فَسادِ الباطِنِ**، والعَكْسُ بالعَكْسِ. فالتّفرُّقُ الظاهِرُ بالأبدانِ سببٌ لتَفَرُّقِ الباطِنِ والقلوبِ ودَليلٌ عليهِ، واللهُ تعالى قد حَرَّمَ كلَّ ما يؤدّي إلى تفرُّقِ القلوبِ وتباغُضِها؛ لأنَّ ذلِكَ مِنَ الشيطانِ الذي يحرِصُ على إيصالِ العَداوةِ والبغضاءِ بينَ المسلمينَ بكلِّ سبيلٍ، وأمَرَ وحَضَّ على كلِّ ما يُوصِلُ إلى ترابُطِها وتآلُفِها، **وهذهِ إحدى الحِكَمِ في شرعِ صلاةِ الجماعةِ**.
وكذلِكَ وَرَدَ الأمرُ بالاجتماعِ في كلِّ مجلسٍ وعدَمِ التفرُّقِ كما في حديثِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا رأى الصّحابةَ وكانوا في سَفَرٍ قد نَزَلوا للراحةِ فوَضَعَ كلُّ واحِدٍ منهم رَحلَهُ في ناحِيةٍ وجَلَسَ فقالَ: «**إنَّ تَفَرُّقَكُم هذا من الشيطانِ**» وهو في مسندِ أحمد وسننِ أبي داود والنسائي بإسناد صحيحٍ.

فتأمَّلْ هذه المعاني والأسرارَ العظيمةَ والحِكَمَ العَديدةَ في شَرْعِ ربِّنا الحكيمِ سبحانَه لتعَلَمَ أنَّ اللهَ تعالى **ما شَرَعَ لنا شيئاً إلا وهو مُوصِلٌ إلى أكمَلِ الخيراتِ ومُبعِدٌ لنا عن الشرورِ والآفاتِ**.

وأيضاً فإنَّ **التَّشَبُّهَ بالملائكةِ مطلوبٌ جداً** خاصةً في طريقَةِ عِبادَتهم، **والبُعدَ عنْ كلِّ ما يؤدّي إلى تسلُّطِ الشيطانِ واجبٌ مطلوبٌ** كما هو معلومٌ.

مع ما في التراصِّ في حِلَقِ الذِّكرِ مِن تَسهيلٍ لجمْعِ الخاطِرِ ووجودِ حَلاوَةِ الذِّكْرِ وسدِّ الوسَاوِسِ، واللهُ أعلمُ.

د ـ **فواتُ الثّوابِ العَظيمِ** الوارِدِ فيما سَبَقَ: «**ومَنْ وَصَلَ صَفّاً وصَلَهُ الله**» وهو في المسندِ وسننِ أبي داود والترمذي والنسائي بسندٍ صحيحٍ، وفي حديثٍ آخرَ عندَ أحمد وغيرِه بسندٍ صحيحٍ: «**إنَّ اللهَ وملائِكَتَه يُصَلُّونَ على الذينَ يَصِلونَ الصفوفَ**».

ومن هنا كان على مَن رأى فُرجَةً في الصفِّ أمامَه، أنْ يتقدَّمَ خُطوةً ليسُدَّها، وإن كانتْ الفرجةُ بجانِبِه ولم يتقَدَّمْ أحدٌ فليَسُدَّها عن طَريقِ المشي يميناً أو يَساراً، وذلكَ لقولِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رُصُّوا صفوفَكم، وقارِبوا بينَها، وحاذوا بالأعناقِ، فوالذي نفسي بيدِه، إني لأرى الشيطانَ يدخُلُ من خَلَلِ الصّفِّ كأنها الحَذَف**»، وهو في سننِ أبي داودَ بإسنادٍ صحيحٍ. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَدَّ فرجةً، رفَعَه الله بها درجةً، وبنى له بيتاً في الجنة**»، وهو في المعْجَمِ الصّغيرِ للطبرانيِّ بإسنادٍ صحيحٍ.

وأنبِّهُ هنا على أمرٍ مهمٍّ وهو:

أنَّ التراصَّ المطلوبَ في الصلاةِ لا يتحقَّقُ إلا إذا وَقَفَ كلُّ واحدٍ وُقوفاً صَحيحاً.

والوقوفُ الصَّحيحُ أنْ يَفَرِّجَ المصلي بينَ قدَمَيْهِ حتى يكونا على مُستوى كَتِفَيْه، وأنْ يجعَلَ أصابعَ قَدَمَيْهِ مُوَجَّهةً إلى القبلةِ تماماً دونَ انحرافٍ إلى اليمينِ ولا إلى اليسارِ كما يفعلُه الناسُ اليومَ؛ فيجعَلونَ الأقدامَ على هَيئة عدد السبعةِ مما يمنَعُ التَّسويَةَ المطلوبَةَ، فإنه لا يمكِنُ بذلكَ أن تلتَصِقَ القَدَمُ بالقدَمِ ولا الكَتِفُ بالكَتِفِ، واللهُ أعلمُ.

١٢- مَن يَلي الإمامَ:

صحَّ في صحيحِ مسلمٍ عن رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنـه قـالَ: «**لِيَلِيَنـي منكُم أولو الأحلامِ والنُّهى، ثم الذينَ يلونهم (ثلاثاً)، وإياكُم وهَيْشـاتِ الأسواقِ**».

ففي هذا الحديثِ الأمْرُ بأنْ يكونَ أولو الأحـلامِ والنُّهـى هـمُ الـذينَ يَلُونَ الإمامَ، أي: يكونون وراءه مباشـرةً. **وأولو الأحلامِ هم**: أصْـحابُ العُقولِ مِن أهلِ العِلْمِ والسّنِّ.

قالَ الإمامُ أحمـدُ رَحِمَهُ اللهُ: (يَـلي الإمـامَ الشـيوخُ وأصـحابُ القـرآنِ، ويؤخَّرُ الغلامُ والصِّبيانُ).

والحِكمَـةُ في هـذا ـ واللهُ أعلـمُ ـ أنْ يتقَـرَّرَ عنـدَهم **تَـوقيرُ الكَبـيرِ**، ولِيتنافَسوا في الوُصولِ إلى ذلِكَ، وحتى لا يشقَّ على أولي الأحلامِ تَقديمُ من هُم دونهم عليهِم، **فإنَّ الله تعالى أمَرَ بأنْ نُنَزِّلَ الناسَ على قَدْرِ منـازِلهم وأنْ نُعطِيَ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ**، وهذا مِن أهَمِّه؛ فإنّه إنْزالٌ لهم حيثُ أنـزَلهم اللهُ وما فضَّلهم به من العِلمِ والدِّينِ، مع مـا في ذلِـكَ مِـن **تفطُّـنِهِم لخطـأ الإمامِ وتَنبيهِهم إياه** إذا أخطأَ والفَتحِ عليه إذا نَسِـيَ، ولأنـه **ربـما احتـاجَ الإمامُ إلى استِخلافٍ**، فيكونَ هو أولى، **ولِيَضبِطوا صِفَةَ الصلاةِ وينْقُلوهـا** ويُعلِّموها الناسَ، ولِيقتَدِيَ بأفعالِهم مَن وراءَهم، واللهُ أعلمُ.

وأما هَيشاتُ الأسواقِ فهيَ: اختلاطُها والمنازَعَـةُ فيهـا والخصـوماتُ وارتفاعُ الأصواتِ واللَّغَطُ والفِتَنُ وغيرُ ذلكَ مما يكونُ في الأسواقِ.

والأمرُ باجْتِنابِ ذلِكَ واضِحُ الحِكمَةِ؛ فإنّهم بينَ يَـدَيِ الله تعـالى، ولا يليقُ بهم أن يكونوا كحالِهِم في الأسواقِ شـرِّ البِقـاعِ والتـي يتَسَـلَّطُ فيهـا الشيطانُ وينْصبُ فيها رايَتَه، وإنما يكونونَ على أكمَلِ هَيئةٍ وخُشوعٍ كمَنْ يكونُ بينَ يدَيِ الملوكِ، واللهُ أعلمُ.

١٣- أهميَّةُ الصفِّ الأوَّلِ وميامِنِ الصفوفِ:

منَ الملاحَظِ أنَّ كثيراً من المصلينَ قـد زَهِـدوا في الصـفِّ الأوَّلِ فـتَراهُم تَرَكُوا الوقوفَ فيه والحرصَ عليهِ مع إمكانيةِ ذلكَ، بل قد يكونُ الواحدُ قـد أتى المسجدَ مبكِّراً ثم إذا أقيمتِ الصلاةُ تراه واقِفاً في الصفِّ الثاني أو غيرِه.

ونُذَكِّرُ هؤلاءِ بحديثِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لوْ يعْلَمُ الناسُ ما في النداءِ والصفِّ الأوَّلِ، ثم لمْ يجِـدوا إلا أنْ يسـتَهِموا عليـه لاسـتَهَموا**». وهـو في الصَّحيحينِ. وفي روايةٍ لمسلمٍ: «**لو تعلَمونَ مـا في الصـفِّ المقـدَّمِ لكانـتْ قرعةً**».

وعنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**خيرُ صفوفِ الرجالِ أوَّلُها وشـرُّها آخرُهـا، وخيرُ صفوفِ النساءِ آخرُها وشـرُّها أوَّلُها**»، وهو في مسلمٍ.

وعنه أيضاً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ وملائِكَتَه يُصلّونَ على الصفِّ الأوَّلِ، والصفوفِ الأولى**»، وهو في مسندِ أحمد.

فتبيَّنَ بهذا ماذا يُفَوِّتُ عليه المصلي منَ الخَيْرِ بتَرْكِـه الصـلاةَ في الصـفِّ الأولِ وعدَمِ حِرصِهِ عـلى ذلِـكَ، مـع أنَّ ذلِـكَ لا مشـقَّةَ فيـه ولا تَعَـبَ، ولكنّها العادةُ معَ الجهْلِ وقِلّةِ الحرصِ على الخيرِ، والله المستعانُ.

وقالَ العلماءُ في **فوائِدِ الصفِّ الأوَّلِ** كما ذكرَ ابنُ حجَر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الفتحِ: (المسارَعةُ إلى خَلاصِ الذمَّةِ، والسَّبْقُ إلى دخولِ المسجِدِ، والقربُ من الإمامِ، واستِماعُ قراءتِه والتّعلُّمُ منه، والفَتْحُ عليه، والتبليغُ عنه، والسّلامةُ من اختراقِ المارَّةِ بينَ يديه، وسلامَةُ البالِ مِن رؤيةِ مَنْ يكونُ قُدّامَه، وسَلامَةُ مَوضِعِ سجودِه من أذيالِ المصلينَ).

وإنّما كانَ آخرُ صفوفِ النّساءِ الحاضراتِ مع الرّجالِ أفْضَلَ مِن أولِها، لبُعدِهِنَّ من مخالطَةِ الرجالِ، ورؤيتِهم، وتعلُّقِ القلبِ بهم عندَ رؤيةِ حركاتِهم، وسَماعِ كلامِهم، ونحوِ ذلكَ. وذُمَّ أولُ صفوفِهِنَّ لعكسِ ذلكَ. أما إنْ كُنَّ لوحدِهِنَّ من غيرِ رجالٍ، فأفضلُ الصفوفِ الأولُ، والله أعلم.

وبعضُ الناسِ قد يزهَدُ في الصفِّ الأولِ لاعتقادِه أنَّ الفَضيلةَ تكونُ لمنْ جاءَ أوَّلاً إلى المسجدِ، ولو وقفَ خلْفَ الصفِّ الأوَّلِ، وهذا خطأٌ؛ فإنَّ الأحاديثَ إنّما ورَدتْ في فَضْلِ الصفِّ الأوَّلِ وهو الذي يلي الإمامَ، سواءٌ جاءَ صاحبُه متَقَدِّماً أو متأخِّراً، وهو ما صَرَّحَ به الأئمَّةُ المحقِّقونَ عليهم رحمةُ الله تعالى.

وقدْ حذَّرَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مِنَ التّأخُّرِ عن الصفِّ الأوَّلِ فقالَ لما رأى في بعضِ أصحابِه تأخُّراً: «**تَقَدَّموا فَأْتَمّوا بي، وليأْتَمَّ بكم مَن بعْدَكم، ولا يزالُ قومٌ يتأخَّرونَ حتى يؤخِّرَهم الله**»، أي: يؤخّرُهم اللهُ عن رحمتِه وعَظيمِ فَضْلِه ورَفيعِ المنزِلَةِ والعِلم ونحوِ ذلكَ. والحديثُ في صحيحِ مسلمٍ.

ومنَ الأخْطاءِ التي يقعُ فيها الكثيرُ: **تركُهُم الصّلاةَ عنْ يَمينِ الإمامِ**، مع أنه قد ثبَتَ الفضلُ في ذلكَ عن النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقالَ: «**إنَّ اللهَ**

وملائِكَتَه يُصَلّونَ على مَيامِنِ الصفوفِ»، وهو في سننِ أبي داودَ وابنِ ماجَهْ بإِسْنادٍ حَسَنٍ كما قالَ ابنُ حجَر.

١٤- مُسابقَةُ الإمامِ ومساواتُه بأفعالِ الصلاةِ:

صحَّ عن رسولِ الله ﷺ أنه صلّى بأصْحابِه يوماً ثم أقبَلَ عليهم بوجهِهِ فقالَ: «**أيّها الناسُ إني إمامُكم، فلا تَسبقوني بالركوعِ ولا بالسّجودِ، ولا بالقيامِ ولا بالانصرافِ**». رواه مُسلمٌ.

وصحَّ عنه أنه قالَ: «**أما يخشَى الذي يرفعُ رأسَه قبلَ الإمامِ أنْ يحوِّلَ اللهُ رأسَه رأسَ حمارٍ**»، رواه البخاريُّ ومسلمٌ.

وعن البراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: (**كان رسولُ الله ﷺ إذا قالَ: سمعَ اللهُ لمن حمِدَهُ، لم يَحْنِ أحدٌ منا ظهرَه، حتى يقَعَ النبيُّ ﷺ ساجِداً، ثم نَقَعُ سجوداً بعدَه**)، رواه البخاريُّ.

مِن هذه الأحاديثِ يتبيَّنُ لنا خطأُ الكثيرِ من المأمومينَ في الصلاةِ، إذ يجعَلُ حركاتِه فيها مساوِيَةً لحركاتِ الإمامِ، بل بَعضُهم يسْبِقُه فيها.

وهذا من الحرامِ الذي هدَّدَ النبيُّ ﷺ فاعِلَه بالمسْخِ كما سَبَقَ، وهو مِنْ أشدِّ العقوباتِ، والعياذُ باللهِ.

وعلاجُ ذلِكَ: أنْ يَعلَمَ هذا الذي يُسابِقُ الإمامَ أنه لا ينتَفِعُ شيئاً من المسابَقَةِ إلا طلبَ الاستعجالِ واستحواذَ الشيطانِ عليه وتعرُّضَه لغضَبِ اللهِ وعقوبتِه، وتَعريضَ صلاتِه للبُطلانِ عندَ الكثيرِ من أهْلِ العِلْمِ، مع أنه لا يمكِنُه أن يُسَلِّمَ قبلَ الإمامِ، فلا ثَمَرَةَ له في هذا الاستعجالِ، فلْيَتَّقِ اللهَ تعالى في نفسِه وصلاتِه، واللهُ المستعانُ.

١٥- أذكارُ الصّلاةِ :

كلُّ ما شُرِعَ في الصلاةِ مِنَ الأذكارِ يُساعِدُ على تَحقيقِ الهدَفِ منها؛ **وهو تَعظيمُ الله تعالى والخضوعُ له سبحانه**، كما سبقَ معناه تَفصيلاً بفضلِ الله تعالى، فالتّكبيرُ تذكيرٌ للنفسِ بالخضوعِ لله تعالى، والجهْرُ فيه لتَنبيهِ القَومِ بالانتِقالِ مِن ركنٍ إلى ركْنٍ، وكذلِكَ حتى لا تخلُوَ حالةٌ مِنَ الصّلاةِ مِنَ الذّكرِ، وأفْضَلُ ما يُجعَلُ بينَ الأركانِ التكبيرُ الذي يُذَكِّرُ بالغايَةِ مِنَ الصّلاةِ وما شُرِعَتْ له، وأذكارُ الاسْتِفتَاحِ تَحضيرٌ للقلبِ للحضورِ بينَ يديِ الله ودفعُه إلى المناجاةِ، وقراءةُ الفاتحةِ جمعَتِ الذكرَ كلَّه لتَضَمُّنِها القرآنَ العظيمَ، وأذكارُ الركوعِ والسّجودِ تُذَكِّرُ العبْدَ بخضوعِه لله وتَعظيمِه، مع تنبيهِه على الحالةِ التي هو فيها من هذا التّعظيمِ، وهكذا بقِيّةُ الأذكارِ، والله المستعان..

١٦- قراءةُ الفاتِحَةِ للمأمومِ :

ثبتَ عن رسولِ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنّه قالَ: «**لا صَلاةَ لِمَنْ لا يقرأ فيها بفاتحةِ الكتابِ**»، رواه البخاريُّ ومسلمٌ.

وقال: «**لا تُجزئُ صلاةٌ لا يقرأ الرجلُ فيها بفاتحةِ الكتابِ**»، رواه ابنُ حِبّان.

وأمَرَ بها المسيءَ في صلاتِه، وقالَ لمن لمْ يستَطِعْ حِفظَها: «**قلْ: سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إله إلا اللهُ، واللهُ أكبر، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله**».

رواه أبو داودَ وابنُ خزيمة وابن حبان والحاكمُ.

وصحَّ عنه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنّه أجازَ للمأمومِ أنْ يقرأ بها خَلْفَ الإمامِ في

الصّلاةِ الجهْرِيّةِ حيثُ كانَ في صلاةِ الفَجْرِ، فقرأ فثقُلَتْ عليه القراءةُ، فلما فرَغَ قالَ: «**لعَلَّكُم تَقرؤونَ خَلْفَ إمامِكم**»؟ قلْنا: نعَم، هذّاً يا رسولَ الله (أي: بسُرعةٍ واستِعجالٍ)، قالَ: «**لا تفعَلوا إلا أنْ يَقْرأ أحَدُكم بفاتِحَةِ الكِتابِ، فإنّه لا صلاةَ لمن لم يقرأْ بها**»، وهو في سُنَنِ أبي داودَ والترمذيّ.

وانْصرَفَ يوماً مِنْ صلاةِ الصّبْحِ أو أخرى جهريةٍ فقالَ: «**هلْ قرأ معي منكم أحدٌ آنِفاً**»؟ فقال رجلٌ: نعم، أنا يا رسولَ الله ! فقال: «**إني أقولُ: مالي أنازَعُ**»؟ قالَ أبو هريرةَ: **فانْتهى الناسُ عنِ القِراءةِ معَ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما جَهَرَ فيه رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالقِراءَةِ حين سَمِعوا ذلكَ مِن رَسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**»، وهو عندَ أبي داودَ والنسائيِّ.

وأَمَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المأمومَ أنْ يُنصِتَ لِقراءةِ الإمامِ وجَعَلَ ذلِكَ مِن تمامِ الائتِمامِ به فقالَ: «**إنّما جُعِلَ الإمامُ ليؤتَمَّ به، فإذا كبَّرَ فكبِّروا، وإذا قرأ فأنْصِتوا**»، وهو متّفَقٌ عليه.

وجَعَلَ الاسْتِماعَ للإمامِ مُغْنِياً عنِ القِراءةِ للمأمومِ فقالَ: «**مَنْ كانَ له إمامٌ فقراءةُ الإمامِ له قراءةٌ**»، وهو عندَ ابنِ ماجَهْ والدارَقُطْنيِّ بسنَدٍ مختلفٍ فيه، صحَّحه الألبانيُّ.

وقدْ ذهَبَ **جماهيرُ العُلَماءِ إلى فَرَضِيَّةِ قِراءةِ الفاتحةِ في كلِّ ركعةٍ من الصّلاةِ لِمَا تقدَّمَ منَ الأحاديثِ** مِنْ أنه لا تُجزئُ الرّكعةُ التي لا يُقرأ فيها بفاتحةِ الكتابِ.

وأمّا المأمومُ فذهَبَ بعضُ العُلماءِ إلى وجوبِ قِراءةِ الفاتحةِ عليهِ في كلِّ ركعةٍ من الصّلاةِ السرِّيةِ والجهريةِ، وهو مذهبُ الشافعيِّ وروايةٌ لأحمد.

وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ هذا الوجوبَ قدْ نُسِخَ في الجهرِيَّةِ وبَقِيَ في السّرّيّةِ لما سَبَقَ من حديثِ أبي هريرةَ، وأنَّ الإمامَ يتحمَّلُ القراءةَ عن المأمومِ في الجهريّةِ، وهو مذْهَبُ الكثيرِ مِنَ العُلَماءِ.

وذهبَ البَعْضُ إلى أنَّ المأمومَ لا يقرأ وراءَ الإمامِ في الصّلاةِ الجهريّةِ إلا بفاتحةِ الكتابِ فقطْ لحديثِ: «**لا تَفْعَلوا إلا أنْ يقرأ أحدُكم بفاتحةِ الكتابِ**».

والأرجَحُ، واللهُ أعلمُ، **قِراءةُ الفاتحةِ للمأمومِ بحيثُ لا يُشوِّشُ على الإمامِ**.

والسِّرُّ فيه أنَّ القِراءةَ معَ الإمامِ تُشَوِّشُ عليه، وتُفَوِّتُ عليه التّدَبُّرَ، وتخالِفُ تَعظيمَ القرآنِ وما وَرَدَ مِن واجبِ الإنصاتِ له عندَ تلاوَتِه. والنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمْ يَذُمَّ علَيْهم أنْ يَقرؤوا سِرّاً وإنّما نهاهُم عنِ التّشويشِ، ولمْ يَعزِمْ عليهم في تَركِ القِراءةِ، وأبْقى الاختِيارَ لِمَنِ استَطاعَ ذلكَ بشرْطِ عدَمِ التشويشِ وعدَمِ الإخلالِ بالإنصاتِ.

وهذا أولى مِنَ القَولِ بالنَّسخِ أو ردِّ واحِدٍ مِنَ الأحاديثِ، واللهُ أعلمُ.

وأما اكْتِفاءُ المأمومِ بقراءةِ إمامِه، فهذا مُرتَبِطٌ بأمْرينِ:

الأوَّلُ: بالإمامِ نفْسِهِ، مِن حيثُ دينُه وتقواه وورَعُه وعِلْمُه وصِحّةُ قراءتِه وصَلاتِه، فمَن لم يَثِقْ بإمامِه أو بقراءتِه وصلاتِه ودينِه، لا ينبغي أنْ يعتَمِدَ على قِراءته؛ لأنها في الأصْلِ غيرُ كامِلَةٍ وإنْ كانتْ مُجْزِئةً، وإلا فهو معرِّضٌ صلاتَه للنَّقصِ الذي في صلاةِ الإمامِ.

والثاني: بالمأمومِ، وهل هو مُنصِتٌ لقراءةِ الإمامِ أمْ لا؟ فإنَّ الاستماعَ يكفي عن القراءةِ بشَرْطِ الإنْصاتِ، أما مَن كانَ غافِلاً شارِداً عن ذلكَ لا يعلَمُ بماذا قرأ الإمامُ ولم يُنصِتْ له، فكيفَ يقالُ إن قراءةَ الإمامِ له قراءةٌ؟

وهذا التَّقييدُ لمْ أجِدْ مَنْ نبَّهَ عليه، إلا أنني وجَدْتُ أخيراً ما يُشيرُ إليه من أقوالِ بعضِ أهْلِ العِلْمِ وهو ما ذَكَره البهوتيُّ في كشّافِ القِناعِ عنِ ابنِ قندسٍ أنّه قالَ: (الذي يظهَرُ أنَّ قراءةَ الإمامِ إنّما تَقومُ عنْ قِراءةِ المأمومِ إذا كانت صلاةُ الإمامِ صَحيحةً، احْترازاً عنِ الإمامِ إذا كانَ مُحدِثاً أو نَجِساً ولم يَعْلَمْ ذلِكَ، وقُلنا بصِحَّةِ صَلاةِ المأمومِ، فإنّه لا بدَّ مِن قراءةِ المأمومِ لعَدَمِ صِحّةِ صلاةِ الإمامِ، فتكونَ قراءتُه غيرَ معتبَرَةٍ بالنسبَةِ إلى ركنِ الصلاةِ، فلا تسقُطُ عن المأمومِ، وهذا ظاهرٌ، لكنْ لم أجِدْ مِنْ أعيانِ مَشايِخِ المذهَبِ مَنْ استَثناهُ، نعَم وجدتُه في بعضِ كلامِ المتأخِّرينَ). واللهُ أعلمُ.

وإلى هنا انتَهى ما تيَسَّرَ جمعُه من هذهِ الوَقفاتِ، والتي تضمَّنَتْ معانيَ عظيمةً، وفوائدَ فريدةً، وحِكَماً عديدةً، وأسراراً عجيبةً، مما يتعلَّقُ بأعظَمِ أركانِ هذا الدينِ وهو عمودُه الذي عليه قامَ، والصِّلةُ بينَ العبدِ وبينَ ربِّه ذي الجلالِ والإكرامِ، جمَعْتُها مِن كلامِ أهلِ العِلْمِ المدَقِّقينَ، ومن فوائِدِ أهلِ الإيمانِ والمعرِفَةِ واليقينِ، ليظهَرَ مِن خلالِها لكلِّ صاحِبِ بَصيرةٍ أنَّ اللهَ تعالى ما شَرَعَ لنا شيئاً إلا على وفْقِ أعظَمِ الحِكَمِ والمصالِحِ الموصِلَةِ للعبدِ إلى غايَةِ الكَمالِ، ليصلُحَ للدُّخولِ على الله تعالى في دارِ السلامِ.

أسألُ اللهَ تعالى كما مَنَّ عليَّ بجمْعِها، أنْ يَمُنَّ عليَّ بقبولِها، وأنْ ينْفَعَ بها جامِعَها وقارِئَها، وأنْ يجعَلَها مباركَةً بما تضمَّنَتْ مِنَ الآياتِ المباركَةِ

والأحاديثِ الجامِعَةِ، وما فيها من الدِّلالةِ على الله سبحانه، وبيانِ ما يوصِلُ إلى خَيْرِه ورِضوانِه.

كما أسألُه سبحانَه أنْ يعفُوَ عمّا فيها من الخطأ والزَّلَلِ، وأنْ يغفِرَ لجامِعِها قلَّةَ الإخلاصِ والعَمَلِ، وأنْ يجعَلَ هذا العملَ منه لوجهِه الكريمِ، لا يقصِدُ منه رياءً ولا سمعةً ولا دنيا دنيَّةً، وأنْ يُعينَه على ذكرِه وشُكْرِه وحسنِ عبادتِه، لا إله إلا أنتَ سبحانَكَ إني كنتُ من الظالمينَ.

هذا، وما كانَ مِنْ صَوابٍ فمِنَ الله وحدَه، وهو المانُّ بهِ، وما كانَ من خطأ فمني ومِنَ الشيطانِ، واللهُ ورسولُه منه براءٌ، وأستَغفِرُ اللهَ منه.

ورحِمَ اللهُ أخاً كريماً، ومُشفِقاً حَليماً، رأى خطأً فنَصَحَ وأصلَحَ، ولم يُشَوِّهْ ويفْضَحْ، فالمؤمِنُ مِرآةُ أخيهِ، يرى من خلالِه وبِسَبَبِ نصحِهِ عُيوبَه وأخطاءَه، وهذا مِن واجبِ التّناصُحِ والتّعاونِ على البرِّ والتَّقوى الذي أمر بهِ الله جلَّ وعلا. ومن المعلومِ أنَّ كلَّ عملٍ لا بدَّ فيه من النَّقصِ خاصةً في أوَّلِه، ويزدادُ كمالُه وتمامُه يوماً بعدَ يومٍ إنْ منَّ اللهُ بذلكَ.

وأختِمُ هذه الوقفاتِ بحمدِ الله تعالى كما بدأتُ بحمدِه، مصَلّياً ومسلماً على إمامِ الأوَّلينَ والآخرينَ من النَّبيِّين والمرسَلينَ، مَن بَعَثَه اللهُ رحمةً للعالمينَ فدَلَّنا على الصّراطِ المستقيمِ، وأرشَدَنا إلى الهدْيِ القَويمِ، وأوصلَ إلينا الخيرَ العَميمَ، وعلى آلِهِ الطيبينَ الطاهرينَ، وعلى أصحابِه أئمةِ الهدى والنّورِ الغُرِّ الميامين، وعلى التّابعينَ ومَن تَبِعَهم بإحْسانٍ إلى يومِ الدينِ، جعَلَنا الله منهم بمنِّهِ وكَرَمِه ورحمتِه، إنه أرحمُ الراحمينَ.

وكانَ الانْتهاءُ منه بعدَ فَجرِ يومِ الأربعاءِ، الخامسَ عشرَ مِن شهرِ الله المحرَّمِ الحرامِ، مِن العامِ الحادي والعشرينَ بعدَ الأربَعمائةِ وألفٍ من هِجرةِ النبيِّ عليهِ الصّلاة والسّلامُ.

ثمَّ أعدْتُ النَّظَرَ فيه مراراً، وزِدْتُه فوائدَ ولطائفَ في مراحلَ مختلفةٍ، كانَ آخرُها بعدَ فجرِ يومِ الثلاثاءِ، العشرينَ من شهرِ ذي القَعدَةِ من العامِ التاسعِ والعشرينَ بعدَ الألفِ والأربعمائةٍ من هجرةِ نبيّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلِكَ في منزلي بالمدينةِ النبويّةِ المنوّرةِ، على منوّرِها أفضلُ الصّلاةِ وأتمُّ السّلامِ، ولله الحمدُ والمنّةُ.

وكتبه أبو عمر القلموني
المدينة المنورة
ليلة الأول من رمضان عام ١٤٣٤هـ
tmallat@hotmail.com
alkalamouni90@gmail.com

فهرس الموضوعات